دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

دراسات في التقليد الكنسي

الكتاب الرابع

التسبحة اليومية ومزامير السواعي

للأب متى المسكين

دير القديس أنبا مقار
برية شيهيت

دراسات في التقليد الكنسي
الكتاب الرابع

التسبحة اليومية ومزامير السواعي

للأب متى المسكين

كتاب : التسبحة اليومية ومزامير السواعي
المؤلف: الأب متى المسكين
الطبعة الأولى : سنة ١٩٦٨
الطبعة الثانية : سنة ١٩٧٩
مطبعة دير القديس أنبا مقار ــ وادي النطرون

محتويات الكتاب

نظرة عامة للصلوات داخل الكنيسة

الصلاة كخدمة واجبة :

الصلاة داخل الكنيسة عموماً حسب المفهوم الكنسي ، هي « خدمة إلهية » ــ ليتورچيا λειτουργια(*) ، بمعنى أنها عمل جماعي روحي يختص بالله تُقدم له كعبادة .

والله أظهر منذ البدء أنه يهمه جداً أن نجتمع معاً ونتراءى أمامه لنعرض عليه أمورنا كما نسأل منه طلباتنا ، لأنه مع كونه يعلمها سابقاً إلا أنه يشدد أن يعلمها منا نحن ؛ كذلك يهمه أن نشكره على كافة ما قدمه لنا سابقاً عاماً وخاصاً .

لذلك نرى أن تقديمنا الصلوات أمام الله هو « عمل إلهي » يتوافق تماماً مع مشيئته . أما من جهتنا نحن ، فنرى أن الظهور أمام الله كل يوم وتقديم الصلوات

(*) هذه الكلمة « ليتورچيا λειτουργια » كلمة يونانية كنسية طقسية شائعة في الأسلوب الديني . وأصل تكوين الكلمة من مقطعين : λεως أي شعب ، εργον أي عمل . وتاريخ إستعمال الكلمة في اللغة اليونانية قديم جداً من قبل المسيحية ، فقد استخدمت للتعبير عن عمل شعبي عام وليس بالضرورة أن يكون دينياً .

ولكن بعد ترجمة التوراة إلى اللغة اليونانية في الترجمة السبعينية ، دخلت الكلمة في محدود معنوي خاص لازمها بعد ذلك وهو للتعبير عن خدمات الهيكل .

وفي العصر الكنسي بدأ المعنى يتحدد أكثر في إتجاهين :

المعنى الأول : و يشمل الخدمات الكنسية التي يشترك فيها الشعب و بالأخص صلوات السواعي والتسابيح .

المعنى الثاني : و يشمل خدمة الإفخارستيا بإعتبارها مركز كافة أنواع خدمات العبادة العامة .

ولكن الذي يهمنا من تحليل هذه الكلمة « ليتورچيا » ، هو وجود كلمة « لاؤس » في صميم تركيبها أي الشعب . « فالخدمة الإلهية » حسب طبيعة الكلمة وطبيعة فهمنا لها هي عمل شعبي بالدرجة الأولى ، أما الإكليروس فهو المتقدم والقائد يحمل صوت الشعب إلى الله ويحمل سر الله وكلمته إلى الشعب .

والتشكرات ليس تفضلاً منا ، لأن الله سيد وخالق وعظيم ونحن كمخلوقين وعبيد له مضطرون أن نمثل أمامه كل حين ، لأننا إن كنا بإرادتنا نعمل ذلك الآن ، ففي النهاية سنقف أمامه حتماً بدون إرادتنا لنقدم حساباً عن حياتنا .

إذن فالصلاة ضرورة ، وموقفنا إزاء الله يحتّم علينا أن نقدم في كل وقت ما يتناسب مع حاجتنا إلى الله وما يليق بشكره .

أي أن الله مستحق ومستوجب الخدمة في أوقاتها الحسنة . ونحن محتاجون ومسؤولون عن هذه الخدمة ...

[المسيحي ليس له سلطان على ذاته ولكنه على أتم إستعداد لخدمة الله .]

القديس أغناطيوس (*)

الصلاة كنعمة سرية :

لكن الله من جهته تفضل ورفع العلاقات الحتمية التي تربطنا به إرتباط العبد بسيده ؛ إذ تنازل في عهد جديد معنا ، نتيجة حبه لنا ، و بذل إبنه المساوي له فتجسد وتأنس وصار مساوياً لنا ، وقدم نفسه ذبيحة عنا ففدانا من اللعنة والعبودية معاً ، وأعطانا جسده المبذول ودمه المسفوك لنأكله بصورة سرية فنأكل الحياة ونشرب الخلاص ونقبل شركة الإتحاد بلاهوته .

وهكذا اشترانا الله من الموت بدمه وفدانا من العبودية للتبني وأدخلنا معه في عهد حب أبدي ، وبذلك ارتفعت الصلة التي تربطنا به ، ودخلت الصلوات التي نقدمها إليه في مفهوم سري جديد التي نسميها **« خدمة الأسرار » ، التي ننال بواسطتها نعمة فائقة غير منظورة تربطنا بالآب وتؤهلنا للصلاة بدالة جديدة هي دالة البنين مع والدهم .** « لا أعود أسميكم عبيداً لأن العبد لا يعلم ما يعمله سيده ، لكني قد سميتكم أحباء لأني أعلمتكم بكل ما سمعته من أبي » (يو١٥ : ١٥) .

بذلك دخلت الليتورجيا أو الخدمة الإلهية في أعلى مفهوم روحي لها يكاد يرفعها

(*) *Ignat. to Polycarp., A. N. F., I*

إلى معنى الخدمة وهو قبول نعمة وشركة حياة أبدية مع الله .

هنا يبدو أن خدمة الإفخارستيا يمكن أن تضعف من مفهوم خدمة الصلاة والتسبيح بإعتبار أن الإفخارستيا خدمة البنين ، والصلوات والتضرعات خدمة العبيد . ولكن الواقع أننا لا زلنا على كل وجه محسوبين عبيداً لله . لأن الله تبنانا ، أما نحن فلنسر أن نستعبد أنفسنا له . هو يقول : « من الآن لا أعود أدعوكم عبيداً بل أحباء وأبناء » ، أما نحن فلا نستطيع أن نسمي أنفسنا إلا عبيداً بطّالين ، لأننا بالكاد نعمل ما نؤمر به ... الروح حقاً و يقيناً يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله ، ولكننا نحن نشهد أننا نكون في كرامة عظمى لو تفضّل الله وحسبنا عبيداً له ! !

هذا بولس الرسول أول من نادى بحريتنا و بنوتنا ، هو نفسه أول من يقول وأول من يدعو نفسه عبداً بقوله « بولس عبدٌ ليسوع المسيح . » .

إذن فالله أبونا بلا شك أما نحن فعبيده ! !

نحن نقدم له خدمة الصلاة والتضرع والدموع والتوبة .

وهو يقدم لنا جسده ودمه وحبه ونعمته ! !

[إنتبهوا إذن فليكن لكم الإفخارستيا للوحدة لأن جسد ربنا يسوع المسيح واحد وها الكأس الواحد يعلن الوحدة الكائنة بدمه ، مذبح واحد لأسقف واحد مع القسوس والشمامسة الذين هم شركائي في الخدمة ، حتى إذا عملتم بذلك يكون عملكم حسب مشيئة الله]

القديس أغناطيوس (*)

إذن ، فالصلاة داخل الكنيسة أي الليتورجيا هي نوعان كبيران :

النوع الأول : ليتورجيا الصلوات والطلبات والتشكرات والتسابيح .

النوع الثاني : ليتورجيا الأسرار ومركزها الإفخارستيا .

(*) *Ignat. to Philad.,IV*

العلاقة القائمة بين الصلوات والتسابيح وبين الإفخارستيا:

الكنيسة الأرثوذكسية بالرغم من اهتمامها الشديد بالنوع الأول أي بليتورچيا الصلوات والتسابيح التي خصصت لها معظم ساعات النهار والليل على مدى أيام الأسبوع لتغطي كافة احتياجات الإنسان وعلاقته بالله ، إلا أنها لا تعتبر هذه الصلوات واسطة رسمية لحلول النعمة للتقديس . إذ أن الكنيسة تعتبر أن حلول النعمة وقبولها هو عمل محدد يختص بالأسرار وحدها ، لأنها ترتبت من الله لهذا الغرض .

ولكن ليس معنى هذا أن الكنيسة تقلل من قيمة الصلوات والتسابيح . فالواقع أن هذه الصلوات تأخذ من الكنيسة معظم وقتها وجهدها واهتمامها . لأنها تعتبرها المدخل الرسمي والوحيد لخدمة وقبول الأسرار واستحقاق نوال النعمة المنسكبة منها !.

فالنفس التي لا تمارس الصلوات والطلبات والتشكرات في خضوع وطاعة ، لا تؤهّل لقبول قوة النعمة التي في الأسرار بل ولا تستطيع أن تقدّر عملها ولا تفهمها .

وفي التقليد الآبائي يتضح ذلك على وجه العموم ، حيث جعلوا خدمة الصلوات والسهر والتسبيح ذات قيمة عالية جداً في تدبير البيعة ، واعتبروه أنه هو الركض في الميدان ، أما نوال نعمة الله بالأسرار فهي كالجائزة أو المكافأة أو الجعالة !!.

و يظهر هذا من قول مأثور للقديس يوحنا الدرجي :

[إن ينبوع الدموع بعد المعمودية قد فاق المعمودية ، ولو أن في هذا القول جسارة]

(الدرجة السابعة)

وهذا الكلام يبدو صعباً فعلاً إذا لم نتدارك ونقول إن الدموع ، أي التوبة ، هي ثمرة نعمة المعمودية على كل حال ! . فمهما علت قيمة الصلوات والدموع والتوبة ، فعلوُّها وأهميتها مستمدة من الأسرار التي أعطتها قوة للحركة والجهاد !!.

أي أن الكنيسة مهما عظَّمت من خدمة الصلوات والتسبيح فهي تعتبر أن أهميتها مستمدة ومنبعثة من الأسرار.

وهذا ينبه ذهننا أن كل صلاة وكل تسبيح وكل جهاد في التوبة عندما نقدمه لله ، هو في الواقع من فعل نعمته كثمرة للأسرار التي تقدست بها أرواحنا واغتسلت بها قلوبنا وعيوننا... وهذا كفيل أن يجرد صلواتنا وتسابيحنا ودموعنا وتوبتنا من كل برٍّ ذاتي .

ولكن لا نحسب أن الأسرار يمكن أن تدفعنا من ذاتها للصلاة والطلبات والتوبة والدموع ، لابد من رغبة إرادتنا الحرة ، لابد من موافقة سريعة حاضرة فرحة من ذواتنا تجاه أول إشارة أو إحساس بضرورة الصلاة أو نداء النعمة للتوبة ! .

هذا التوافق الإرادي مع النعمة ، وهذه الحساسية الداخلية المستجيبة لنداء الروح القدس في الإنسان هو ما تسميه الكنيسة synergy ، أي « وحدة العمل » ، وتفيد اتفاق النعمة الإلهية والإرادة البشرية في الخدمة الإلهية !

علماً بأن الإنسان لا يكُفّ عن أن يكون محسوباً تائباً كل أيام حياته حتى إلى أن يبلغ باب الملكوت ، على حد قول كافة الآباء القديسين :

[التوبة هي رعدة النفس حتى إلى أمام باب الفردوس]

مار اسحق

والإنسان مطالَب كما يقول القديس مقار يوس الكبير:

[أن يجمع ذاته بقدر طاقته و يطلب الله دائماً و ينتظره ليلاً ونهاراً و يصرخ إليه كما أمره لكي يصلي بلا فتور حتى يطهره]

عظة ٣٣

والنعمة التي ننالها بالأسرار تظل كامنة في النفس بدون فعل إلى أن تعمل معها حرية الإرادة بالصلاة والطلبة والدموع ، وفقاً لمشيئتها .

فالنعمة تحل في النفس بالأسرار ولكن تنمو مفاعيلها وثمارها بالصلاة والخدمة . وفي التقليد الارثوذكسي لا يمكن الحصول على حالة نعمة إلا بالأسرار، لذلك يُقال للإنسان المعتمد أنه « نال نعمة » ، وللإنسان الذي يشترك في الإفخارستيا أنه « نال نعمة » ، وتقريباً في كل سر يحصل الإنسان التائب على حالة نعمة .

فممارسة الأسرار هي في الحقيقة ممارسة حياة النعمة .

ولكن في المفهوم الأرثوذكسي لا تُعتبر « حالة النعمة » أنها ثابتة ثبوتاً مطلقاً ، بل هي حالة نمو وجهاد متواصل ، فيها الخوف المستمر وفيها الرجاء بالخلاص الذي لا ينقطع ، فيها العثرات والسقوط وفيها النصرة والقيام . وفي هذا التبادل المستمر تعمل النعمة مع الإرادة حتى تتجلى الطبيعة البشرية في نور الله . ولهذا سُميت الكنيسة على الأرض بالكنيسة المجاهدة .

والكنيسة تثق وتعلم أن الصلاة والطلبة والتسبيح لا تؤهل فقط للإشتراك في الأسرار والإنتفاع بالنعمة المنسكبة فيها ، بل تحسبها أيضاً أنها قوة حافظة لما يناله الإنسان في الأسرار من نعمة وقداسة . فممارسة الصلوات في أوقاتها بنشاط قلبي ، يجعل إحساس الإنسان برحمة الله ونعمته وتقديسه لروحه أمراً محققاً دائماً ومحسوساً . أما من يهمل الصلوات فإنه يفقد ما يكون قد إذخره في الأسرار من نعمة وقداسة ، حتى أنه لا يعود يحس لا بنعمة ولا برحمة الله ولا بالله نفسه ...

لذلك فالصلوات لا ينحصر فعلها في الإيجابية العملية المنبثقة من الأسرار فقط ، بل جُعلت أيضاً من الله كقوة حافظة حارسة للنعمة والقداسة ورحمة الله لئلا نفقدها . « إسهروا وصلوا لئلا تدخلوا في تجربة » (متى ٢٦ : ٤١)

وهكذا نستخلص من العلاقة القائمة بين ليتورجيا الصلاة والتسبيح و بين ليتورجيا الإفخارستيا النقط الآتية :

أولاً : الصلاة والتسبيح مدخل رسمي للإفخارستيا . وهذا نراه مطبقاً بصورة واضحة في الإعداد للقداس الإلهي منذ اليوم السابق في قراءات العشية ومزاميرها

وقراءات باكر مع تسابيحها . هكذا أيضاً داخل النفس ، يتطلب هذا الإعداد نفسه إستعداداً لائقاً لقبول الملك .

ثانياً : الصلاة والتسبيح يؤهلان لقبول نعمة الإفخارستيا والإحساس بها .

ثالثاً : الصلاة والتسبيح ينبثقان من نعمة الإفخارستيا ، لذلك يستمدان قوتهما و يدومان في القلب بالمواظبة على الشركة .

رابعاً : الأسرار و بالتالي النعمة لا تغني إطلاقاً عن الصلاة والطلبة والتسبيح وعمل الإرادة على الدوام حتى آخر يوم في حياة الإنسان .

خامساً : الصلاة والتوبة والتسبيح جهاد في حد ذاته تسنده النعمة ، ولكن لا تعصمه من السقوط ، تقيمه ولكن لا تحفظه قائماً دون جهاد .

سادساً : الصلاة والتسبيح يحفظان الإنسان من التقهقر (التجربة) ، ويحققان أمام عين الإنسان صورة رحمة الله وعنايته وقوته و وجوده كحالة لا تحتاج إلى برهان ، أي أن الصلاة والتسبيح يمسكان بالنعمة مسكاً .

[فلا يخدعنَّ أحد نفسه ، لأنه إذا لم يكن الإنسان متحداً بالمذبح فهو محروم من خبز الله ، لأنه إذا كانت صلاة إثنين أو ثلاثة يكون لها قوة أن تجعل المسيح حاضراً في الوسط ، فكم تكون الصلاة عندما تصير بواسطة الأسقف والكنيسة كلها وترفع في توافق إلى الله ، لذلك فكل من يفصل نفسه عن الكنيسة ولا يجتمع مع الجماعة وقت تقديم الذبيحة فهو يحسب ذئباً مهما كان مظهره معتدلاً]

القديس أغناطيوس (*)

وسنقتصر في هذا الجزء من الكتاب على ليتورجية الصلاة والتسبيح ، نعرضها في تدرجها التاريخي ، ونكشف قيمتها الروحية في بناء الكنيسة كشعب الله وجسده ، وفي بناء النفس البشرية التي ثمَّنها الله بدم إبنه على الصليب .

(*) *Ignat. to Ephes., V*

الباب الأول
طبيعة ليتورجية الصلاة

١ ــ الصلوات والتسابيح كخدمة إلهية (*)

الله يُخدم بالتسبيح والحمد والشكر، وسر المسيح الأعظم الذي هو سر الكنيسة بمركز وجودها وعملها هو « سر الشكر » أي الإفخارستيا الذي ينتهي بصلاة الكاهن « املأ امتلأ فرحاً ولساننا تهليلاً بتناولنا من أسرارك غير المائتة يارب » ...

وخدمة الإنجيل التي هي المناداة والكرازة بالكلمة المحسوبة أنها خدمة الله ، هي أيضاً تُسمى بشارة ، وترجمتها توصيل الأخبار السارة المفرحة للناس ، وكان عمل الكنيسة الأولى هو الشكر الدائم والفرح لأن المسيح أكمل كل شيء من جهة خلاصنا ومصالحتنا مع الله ، فكان مظهر الكنيسة تسبيحاً وتهليلاً دائماً و ببساطة وابتهاج قلب ، فكان هذا أقوى تعبير عن الطبيعة المسيحية بل أقوى وسائل بشارتها . فكانت الجماعات تنضم إليها لتدخل هذا المجال المفرح ... وخدمة الملائكة في السماء تسبيح دائم والتقديس : « قدوس قدوس قدوس » ! !

والصفة الغالبة في الصلاة في الترتيب الكنسي هي تسميتها بالتسبحة ، فكل الصلوات تقريباً تُقدّم داخل الكنيسة بالترتيل واللحن حتى وإن كانت في مناسبات حزينة كأسبوع الآلام . و بالحقيقة يليق بالله أن يُخدم بالتسبيح مهما كانت ظروف الإنسان . « أنت القدوس الجالس بين تسبيحات إسرائيل » (مز٢٢ : ٣) .

فالترتيل هو ثوب الصلاة السمائي الذي يُكسبها وقاراً وجدية ، حيث يُلبس التسبيح الألفاظ أثمن أوزانها الشعرية ، ويخرج الصوت البشري حاملاً ذبيحة النغم على أسمى طبقاته ، والمعاني ترتفع وتتدرج في رقّتها ومشاعرها حتى تبلغ أوج الإلهام ، فيرتفع معها قلب الإنسان بتلقائية سهلة حتى يواجه الله ، وترتفع الجماعة كلها بنفس السهولة و بألفة فائقة لحدود البشر حتى تبلغ إلى أعلى درجة للعبادة ، و بعد فترات قليلة من الترتيل المنسجم تبلغ الكنيسة إلى حالة شركة حقيقية مع الجوقات السمائية غير

(*) لقد عبّر القديس بندكت عن هذه التسمية بكلمة Opus Dei أي العمل المختص بالله . ولكن هناك فارق كبير جداً بين مفهوم هذا الإصطلاح « خدمة إلهية أو عمل مختص بالله » في الكنيسة الغربية ، ومفهومه في الكنيسة القبطية ، لأن في الغرب يعتبرون أنه من إختصاص الكهنة والرهبان وأما الأقباط فيعتبرونه أنه عمل الشعب بقيادة الكهنة !!

المنظورة يستطيع الإنسان أن يحسها من الداخل والخارج ...

ومن الأمور الثابتة في الأسفار المقدسة أن معظم حالات حلول الروح القدس للمتكلم بكلام الوحي المقدس كان على صورة أشعار موزونة ، وسيأتي الكلام على ذلك بالتفصيل ... ولكن الذي يهمنا أن نوضحه هو أن العلاقة بين التسبيح و بين حلول الروح القدس هي علاقة وثيقة في حياة خدمة الله .

فالمزامير التي هي منبع الصلوات والتضرعات قدّمها داود بنغم موزون على آلات الموسيقى ! والصلوات التي رتبتها الكنيسة منذ العصر الرسولي لتتلى في أوقات النهار والليل هي مزامير في جملتها وهي لا تخلو أيضاً من التضرعات الحزينة ، و بالرغم من ذلك اعتبرتها الكنيسة تسابيح . فأنت تقرأ في كتاب الأجبية (أي صلوات السواعي) في بداية أي ساعة مكتوب هكذا : « تسبحة الساعة السادسة أو التاسعة من النهار » . فالصلاة دُعيت تسبحة مع أنها هنا تذكار لصلب الرب وموته على الصليب ! . والأصل في ذلك أن داود النبي الذي أخذت عنه الكنيسة صلواتها كانت صلواته عبارة عن تسبيح ونشيد : « سبع مرت في النهار سبّحتك » (مز١١٨) .

وفي الحقيقة ، حينما يُفعم القلب بحركة الروح تنفك عقدة اللسان فينطلق الإنسان بنغمات تعبّر عن أعماق نفسه أشد مما تعبّر الكلمات !...

و يكفي للتدليل على ذلك أن نستشهد بألحان أسبوع الآلام التي قلّ من يُدرك معاني كلماتها ، ولكن الكل يحس بقوتها و يفهم تعبيرها ...

وهكذا ينبغي أن تكون الصلاة تسبيحاً قلبياً ، والتسبيح أيضاً ينبغي أن يكون صلاة قلبية ، ونحن نقرأ عن التحام الصلاة بالتسبيح في سيرة دانيال النبي الذي أخذت عنه الكنيسة طقس الثلاث صلوات النهارية ، أي الثالثة والسادسة والتاسعة ، فمكتوب عنه « فلما علم دانيال بإمضاء الكتابة ذهب إلى بيته وكواه مفتوحة في عُلّيته نحو أورشليم (لأنه كان في السبي) فجثا على ركبتيه ثلاث مرات في اليوم وصلى وحمد قدام إلهه كما كان يفعل قبل ذلك » (دا٦: ١٠) .

والواقع أن التسبيح هو الذي يعطي الصلاة الصفة الرسمية كخدمة تُقدّم لله .

لذلك فكلمة « الليتورجيا » من العسير انطباقها على مجرد الصلاة الصامتة التي لا يرافقها حمد وتسبيح .

وهذه الحقيقة تزداد وضوحاً إذا علمنا أن كلمة « تسبيح » لا تعني حالة السرور فقط ، بل تشمل الشكر والحمد لله حتى ولو كان الإنسان في أشد حالات الحزن والغم واليأس ، بل إن التسبيح والشكر في مثل هذه الحالات يرفع الصلاة إلى مستوى الطاعة والخضوع ، فتصير تمجيداً لله واعترافاً بحكمة تدبيره وتأخذ مضمون الخدمة الأمينة أو أمانة الخدمة...

أليس بهذا الوصف تماماً انطلق بولس وسيلا في ظلام السجن وآلام المقطرة والمرز يقات الجسد ينشدان للرب أنشودة جديدة ؟ « ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا يصليان و يُسبّحان الله والمسجونون يسمعونهما » (أع١٦: ٢٥ » .

أما وإذا كان التسبيح مقروناً أيضاً بالفرح والإيمان والرجاء ، فهو يدخل ضمن الشهادة للإيمان بالله والإعتراف برحمته . ما أروع وأجمل النفس التي تُرى — وهي في الأحزان — مسبّحة وشاكرة !! « أُخبر بإسمك إخوتي وفي وسط الكنيسة أُسبّحك » (عب٢: ١٢) . هنا يكون التسبيح بحد ذاته بشارة في أعلى مستوى وشهادة لا تحتاج إلى برهان « نبشر بتسابيح الرب » (أش ٦٠: ٦) .

وكم من الترانيم التي صدرت من قلوب فرحة واثقة بالرب ، تسببت في تشديد قلوب الضعفاء وقوّت العزائم الخائرة وجذبت نفوساً للإيمان !...

وللقديس أثناسيوس تعليم واضح بخصوص الألحان والترنم بالمزامير نلخصه كالآتي باختصار :

[ولا يفوتنا هنا أن نوضح السبب الذي يوجب ترتيل المزامير بالنغم واللحن لا بالتلاوة المجردة... لأنه من المناسب تسبيح الله بالأسفار الشعرية ، لأن صياغتها الحرة تؤكد كيف ينبغي للناس أن يعبّروا عن محبتهم لله بكل قواهم كما أن الترتيل بالمزامير يضفي أثراً على المرنم نفسه .

والترنيم بالمزامير يتطلب من الإنسان أن يتركز في معناها و ينحصر فيها بكل كيانه وهكذا يزول عنه كل تشتت ، كانسجام الأصوات نفسها......

والرب نفسه أوصى بترنيم المزامير وتلحينها كي يكون النغم معبّراً عن التوافق الروحي الداخلي مثلما تعبّر الكلمات عن أفكارنا تماماً ...

وهكذا بواسطة الترتيل تدخل إلى إحساس أنفسنا فنحس بظلمة الحزن عندما نرتل « لماذا أنت حزينة يانفسي ولماذا تضايقينني » وحينئذ تُثار أرواحنا من الداخل ، وعندما نرنم « لولا قليل لزلّت قدماي » نحس بخطر الفشل ، وعندما نرنم « الرب عوني فلن أخاف ماذا يستطيع أن يعمله بي الإنسان » نحس بالرجاء و يتبدد الخوف .

فلا شك يخطىء الذين لا يقرأون الأسفار بهذه الطريقة مترنمين بها بنشيد مقدس وفهم ... حيث يصدر النغم طبيعياً من توافق النفس وإتحادها بالروح ، هؤلاء يرنمون باللسان و بالفكر معاً ولا ينتفعون وحدهم ، بل والذين يسمعونهم أيضاً .

وكذلك كل من يرنم يقوّم روحه ، مصححاً بالتدريج نشازها ، حتى تصبح بالنهاية وهي متجددة حسب طبيعتها الحقيقية غير خائفة من أي شيء إذ تكون قد تحررت بسلام من كل الهواجس الزائلة ، وتكون قد تدربت على تأمل ورجاء الأمور الصالحة ... **فالروح المستقرة تنسى آلامها وبترتيل الكلمات المقدسة تتطلع بفرح إلى المسيح وحده] (*)**

(*) *Athanas. to Marcel., on Ps.*

٢ ــ الصلوات والتسابيح كذبيحة إلهية

[إني أعتبر الصلوات وتقديم الحمد حينما تقدّم من أشخاص معتبرين تكون هي وحدها الذبائح الكاملة والمقبولة لدى الله]

القديس يوستينوس (*)

منذ البداية أدرك داود النبي عدم نفع الذبائح الدموية للتعبير عن حب الإنسان من نحو الله ... ووجد أن تقديم الصلاة والتسابيح لله ذبيحة أكثر تعبيراً عما في قلب الإنسان وأكثر قبولاً لدى الله .

لذلك لم يكف داود عن التسبيح والحمد لله كل ساعات النهار والليل بغيرة تفوق كل ما سمعناه عن غيرة الكهنة واللاويين في تقديم الذبائح الدموية .

والقديس هيبوليتس في القرن الثاني الميلادي (١٧٠ ــ ٢٣٦م) أدرك هذه الحقيقة وكشفها للكنيسة بكل وضوح . فمن أقواله عن سفر المزامير:

[كتاب المزامير فيه نوع تعاليم جديدة New Doctrine بعد الناموس الذي أُعطي لموسى . لهذا فهو الكتاب الثاني بعد أسفار موسى . لأنه بعد موت موسى ويشوع ، وبعد القضاة ، قام داود وهو الإنسان الذي إستحق أن يُدعى أب المخلّص ، وهو أول من أعطى اليهود تسبيحات على طريقة جديدة ، أطاح بها الفرائض التي أقامها موسى بخصوص الذبائح . فأقام نظاماً جديداً لعبادة الله بالتسابيح والتهاليل وأمور أخر كثيرة (*) تفوق ناموس موسى ، عملها داود خلال مدة خدمته . وهذا هو علة

(*) مثل قرع الصدر ، ورفع اليدين ، ولبس المسوح ، ومزج الخبز بالدموع ، وتعفير الوجه بتراب الأرض ، والسجود بكثرة ، وإذلال النفس بالصوم ، وسهر الليل ، وحفظ الجفون من النعاس ، والجلوس في عزلة كعصفور فريد على السطح ، وأكل الرماد . وهذا كله من مضمون المزامير وقد صار طقس التائبين !!

(*) *Dialog., ch. 117*

تفوق سفر المزامير في القداسة والمنفعة . واليهود يطلقون عليه إسم « سيفرا تهليم » أي سفر التهليل]

وداود النبي رأى فعلاً أن في التسبيح ذبيحة حقيقية ، فإهتم بصدق وإخلاص أن يقدمها ،لا فتور . لذلك ما أكثر ما نسمعه يقول :

« طُفت وذبحت في خيمته ذبيحة التهليل » (مز٢٧ : ٦)
« قطَّعت قيودي فلك أذبح ذبيحة التسبيح » (مز١١٦ : ١٧)
« أذبح لله حمداً » (مز٥٠ : ٤)
« ليكن رفع يديَّ كذبيحة مسائية » (مز١٤١ : ٢)

أ ــ كيف يبلغ شعورنا الداخلي أثناء التسبيح إلى حالة تقديم ذبيحة :

وهنا يلزمنا لكي ندرك قيمة التسبيح كذبيحة فعلاً ، علينا أن نعرف أولاً أن التسبيح هو خدمة ملائكية خالصة : [تجعلنا متساوين مع الملائكة من جهة الكرامة] (١) . فهو عمل سمائي صِرف نقرأ عنه كثيراً في سفر الرؤيا سواء الذي يقدَّم من الملائكة أو الأربع مخلوقات الحية أو الأربعة والعشرين قسيساً أو المائة والأربعة والأربعين ألفاً أو ألوف ألوف وربوات ربوات المفديين بدم الخروف ، المقدَّم بأصوات الحمد أو المقدم على أصوات القيثارات الذهبية .

وهنا نستطيع أن نرى التسبيح شركة مع الأرواح السمائية على كل حال [تجعلنا متحدين مع الملائكة] (٢) . فيه ينفتح الوعي البشري لقبول الوقوف أمام الله والدخول إلى حضرته حيث يبتدىء الإنسان يتقبل ــ دون أن يعي ــ **إنسكاب رحمة الله وعطفه ومحبته ، التي لما يحسها فعلاً أثناء التسبيح لا يتمالك الإنسان إلا أن يرفع قلبه مع عقله مع كل مشاعره الصادقة كذبيحة شكر وحمد وعرفان بجميل الله .**
وذلك لأن إحساس الإنسان بضعفه وعدم إستحقاقه ، إذا رافقه عطاء الله وجوده ورحمته

---

(1) St. Greg., op. cit., I P. G., X / IX, 1124.
(2) St. John Chryst., op. cit., I P. G., X / IX, 776.

ومحبته يجعل الإنسان يخرج نهائياً عن أنانيته ولا يملك إلا أن يقدم نفسه ذبيحة حب بكل معنى الكلمة .

« فأطلب إليكم أيها الأخوة برأفة الله أن **تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله عبادتكم العقلية** » (رو١٢ : ١) .

هنا نلحظ أن التسبيح يفتح الباب المغلق أمام النفس لتتقبل ــ دون قصد ــ شيئاً من الله يلهبها ويجعلها تجود بنفسها كلياً وبلا مانع ... لذلك فالتسبيح مجال لتقديم الذبائح الحية في العهد الجديد ! !

وينبغي جداً أن نلاحظ أن نفس سر الإفخارستيا هو صلاة سر « شكر » ، أو تسبيح سر « شكر » ، ومن خلال سر الشكر ننال نعمة الله ! ! أي أن « الشكر » هو ذبيحة مظهراً وجوهراً ...

ب ــ توسط المسيح يرفع من قيمة الذبيحة :

والإنسان بطبيعته المتعطشة لله وللكمال الإلهي لا يمكن أن يستريح في عبادته إذا اكتفى بالصلاة والسؤال والطلبة ، لابد لكي يستريح الإنسان أن يعطي ، ويستحيل أن يحس الإنسان أنه أعطى شيئاً حقيقياً يناسب الله إلا نفسه ! ! « ذبيحة وقرباناً لم تُرِدْ ولكن هيَّأت لي جسداً » (عب١٠ : ٥) .

ومجال ليتورجية الصلاة والتسبيح جعله الله بواسطة يسوع المسيح باباً مفتوحاً أمام الإنسان لكي يستكمل به حبه لله الذي كان قد فقده سابقاً ! ...

« فلنقدم به كل حين لله ذبيحة التسبيح أي ثمار شفاه معترفة بإسمه » (عب١٣ : ١٥) .

جـ ــ تأمين ذبيحة التسبيح ضد الإحتراف :

ولكن هناك خطورة كامنة في احتراف التسبيح عندما ينحرف وراء أسباب أخرى غير تقديم النفس كذبيحة خالصة تماماً ، كما قدَّم إسحق نفسه على المذبح كمشيئة

أبيه ، لأن هذا يجعل تسبيح الليتورچيا بعيداً عن صفائه السمائي . وسرعان ما يذبل التسبيح أو يتحجر و ينقلب إلى روتين يومي كخدمة طقسية يطالِب الإنسان بأجرها الأرضي .

لذلك يلزم أن يتذكر كل إنسان وهو يصلي و يسبِّح أن ذبيحته رهن قبوله أن يظل « **أميناً لمشيئة الله** » : « بمحرقات وذبائح للخطية لم تُسرَّ ثم قلت هاأنذا أجيء في درج الكتاب مكتوب عني ــ **لأفعل مشيئتك يا الله** » (عب ١٠:٦) . وهذه الآية أصلاً من مزمور ٣٩ ، وعليها يضيف بولس الرسول قائلاً : « فبهذه المشيئة نحن مقدسون **بتقديم جسد يسوع المسيح** » ... (عب ١٠ : ١٠) أي أن المسيح تمسك بمشيئة الله حتى الصليب وتقديم الجسد .

ونحن مقدَّسون إن تمسكنا بهذه الصورة عينها مقدِّمين **أجسادنا ذبيحة** حية مقدسة عند الله **بواسطة عبادتنا** العقلية أي صلواتنا وتسبيحنا بتأمين ذبيحة المسيح !!

إذن فهناك علاقة وثيقة بين تقديم أجسادنا ذبيحة تسبيح و بين تمسكنا المطلق بذبيحة المسيح !!

هذه العلاقة هي التي تحدد العبادة وتضعها في مستوى مشيئة الله ! ... وتظل ذبيحتنا تحتاج لتقديسها إلى ذبيحة المسيح بصورة جوهرية لا غنى عنها : « فبهذه المشيئة **نحن مقدَّسون** بتقديم جسد يسوع المسيح » .

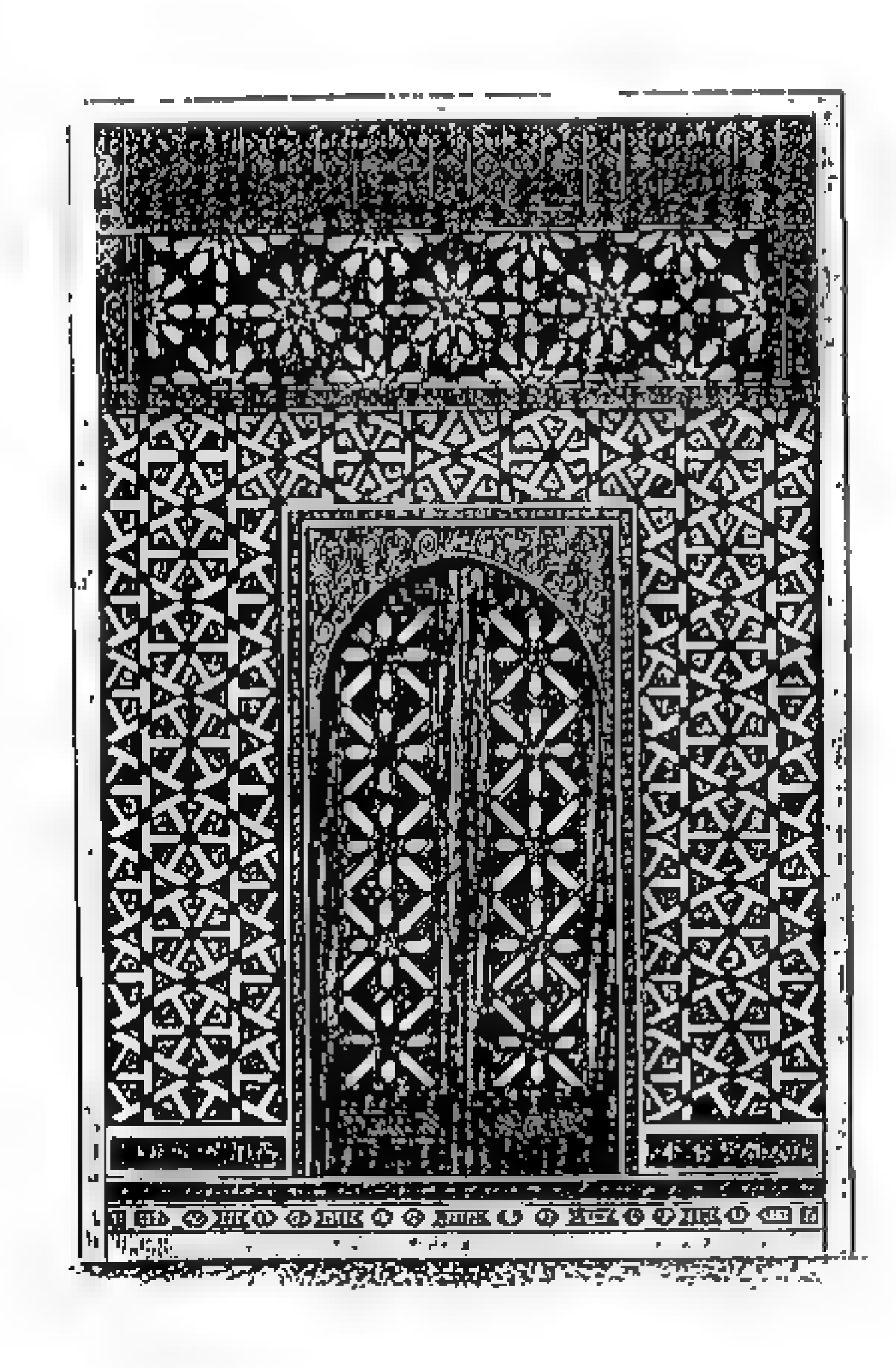
معنى هذا أن كافة التسابيح والصلوات في العهد القديم حتى والتي قدَّمها داود شيء ، والتي نقدمها في الكنيسة الآن في العهد الجديد باسم يسوع المسيح ومن خلال ذبيحته أي جسده ودمه شيء آخر تماماً ! ...

لأن الطريق الآن أمامنا مفتوح لا ننتظر ملكاً لإسرائيل ، ولا خلاصاً من أعدائنا وإنقاذاً من مبغضينا ، ولكننا ننتظر قيامة الأموات وحياة الدهر الآتي . ننتظر سماءً جديدة وأرضاً جديدة ، ننتظر أمنا العروس أورشليم الحرة ، وأمامنا سفر الرؤيا مكشوف ندخل إليه بالتسبيح بغير عناء ، وعن طريق ذبيحة المسيح ندخل كل يوم

ونتراءى أمام المذبح الناطق السمائي وعلى شفاهنا دم الخروف المذبوح منذ إنشاء العالم لنسبِّح « تسبيح الغلبة والخلاص » !!

وللقديس يوستينوس الشهيد في إحتجاجه الأول قولٌ في ذلك مأثور :

[إن الكرامة الوحيدة التي تليق بالله ليست في حرق الذبائح بالنار ، هذه التي أوجدها الله لقوام حياتنا ، إنما الكرامة له ... **تكون بتقديم الحمد له بالتسابيح والألحان** لأنه خلقنا](٠) .



1st Apology. ch. XIII.

٣ ـ الصلاة والتسبيح كطقس إلهي

ما هو الطقس ؟

يمكن في إختصار أن نعرّفه أنه : الشكل والمضمون النهائي المحدّد لنظام خدمة الصلوات والتسابيح وإقامة القداس و بقية الأسرار في الكنيسة .

و يشمل بالتفصيل :

أولاً : تحديد القراءات والصلوات التي تُقال سراً وعلناً وطرائق التسبيح واللحن والمردات بكلماتها وأوزانها وروحها .

ثانياً : ما يلازم الصلاة من ملابس و بخور وأنوار وسلوك في المسير والسجود ورفع اليد ونظام وترتيب وتخصصات في الخدمة .

ثالثاً : ما تتطلبه الصلوات من إستعدادات قلبية تقْوية وإنتباه ذهني وإخلاص في إتقان الممارسة حسب التسليم الدقيق .

ما هي أهمية الطقس ؟

النقط الثلاثة السابقة تحدد مفهوم الطقس الكنسي وعمله . وهي كفيلة أن تبرهن قيمتها بنفسها عند الممارسة العملية . ولكن لكي نمهد لقلب القارىء وذهنه لإستيعاب أهمية الطقس نقدم هذه النقط :

أولاً : توحيد العبادة :

خدمة الليتورجية بالصلاة والتسبيح عمل جماعي بطبيعته ، وسيظل عملاً جماعياً حتى في الدهر الآتي . لذلك فتحديد شكله ومضمونه مطلب جوهري ، يرفع عن كاهل الفرد صعوبة وخطورة ما يُقال وما يُعمل عند المثول أمام الله و يكون حسب مشيئته . فالكنيسة تسلمت أساس طقوسها منذ البدء من الرب والرسل ، وحافظت عليه كتقليد مقدس أضافت إليه بإرشاد الروح القدس في العصور الأولى ما يُزيد وضوحه وما يحفظه من الإنحراف .

ثانياً : التعبير عن العبادة بكل الكيان البشري :

الإنسان خُلق ليسعد بالله ، فهو يستطيع أن يحس الله بروحه و يستطيع أن يعبّر عن إحساسه الروحي بعقله وجسده !!

ولذلك فهو مدعوٌّ بالحقيقة لحياة شركة كاملة مع الله بالروح والذهن والجسد ! ولو فحصنا هذه الشركة القائمة منذ البدء بين الإنسان والله نجدها من حيث طبيعتها أنها شركة « المنظور مع غير المنظور» ، و« المدرك مع غير المدرك » ، و« المحسوس مع غير المحسوس » ، لذلك فالصلة بين الإنسان والله لها دائماً أبداً هاتان الصفتان معاً : أي أن ما يقدمه الإنسان لله في صلواته وعباداته يلزم بطبيعته أن يكون منظوراً ومدركاً ومحسوساً سواء كان بالكلام أو العقل أو العمل . وفي نفس الوقت يكون ما يقدمه الله للإنسان كإستجابة لهذه الصلاة والعبادة يلزم بطبيعته أن يكون غير منظور ولا مدركاً ولا محسوساً !! سواء كان غفراناً أو خلاصاً أو نعمة أو قداسة أو حياة أبدية ! ...

ولقد ظلت وستظل عبادة الإنسان محكومة بهذه الصفة المزدوجة للشركة مع الله كضرورة تحتمها طبيعة الإنسان وطبيعة الله ...

فعلى الإنسان دائماً أبداً أن يعلن إحساسه بالله بروحه و يعبّر عنه بعقله وجسده ، كما أن عليه في نفس الوقت أن يقبل في الحال بالإيمان لا بالعيان رداً وإستجابة من الله لا يتطلبها أن تكون منظورة ولا يُنتظر أن تكون في حدود منطقه العقلي ولا يترقبها بحواسه على وجه العموم ... وإنما يأخذها بروحه بثقة و يقين و يفرح بها و يشكر عليها . في حدود هذه الشروط الطبيعية تتم الشركة مع الله .

والتطبيق العملي لهذه الشركة القائمة على هذه الصفة المزدوجة يمارَس في الكنيسة في خدمة الصلوات والتسابيح وخدمة الإفخارستيا و باقي الأسرار .

ــ في الطقس المنظور والمدرك والمحسوس نقدم لله عبادتنا .
ــ وفي الأسرار يسكب الله في عمق أرواحنا عطايا نعمته بسر لا يُدرَك .

والطقس ضرورة طبيعية للإنسان ، لأن الإنسان دائم التطلع بروحه إلى الله ، وهو

لا ترتوي روحه إلا إذا عبَّر بكل كيانه النفسي والعقلي والجسدي عن حبه وشوقه وإخلاصه . فالطقس تكتمل فيه حاجة الإنسان الملحّة من نحو الله ، والإنسان حينما يبلغ فعلاً بالطقس إلى تحقيق شوقه إلى الله بإخلاص الصلاة والتسبيح والحمد يصل إلى ذروة الإستعداد للاتصال بالله ، وحينئذ يتم فيه سر الله ، إذ يتنازل العظيم الأبدي و يسكب من روحه وحبه في قلب الإنسان .

لذلك يلزمنا أن لا نجيز إطلاقاً تسمية الطقس بطقس إلا إذا إكتمل فيه الإحساس الروحي بالله والشوق الصادق إليه والإستعداد الداخلي للإتصال بالله . لأن الطقس لا يمثل علاقة مبتورة من جهة الإنسان نحو الله ، بل علاقة كاملة متبادلة بين الإنسان والله فيها **صلاة واستجابة معاً ، فيها مثول الإنسان أمام الله وحضور الله مع الإنسان .** « لأنه حيثما إجتمع إثنان أو ثلاثة بإسمي فهناك أكون في وسطهم » (مت١٨ : ٢٠) . و يلاحظ أن في الصلوات الفردية و باب المخدع مغلق ، **الله ينظر و يسمع فقط .** أما في صلوات الجماعة التي هي الليتورجيا **فالله يأتي ويحضر « أكون في وسْطِهِم »** .

والذي ينبغي ملاحظته أن الذي يحيي الطقس و يدفع إلى الصلاة والتسبيح في وسط الجماعة هو الروح المشتاقة إلى الله لتعبر عن حبها ورغبة شركتها معه ، فإذا غاب هذا العنصر أصبح الطقس فاقداً لطبيعته الإلهية .

لذلك فالطقس في وضعه الإلهي الكامل ، فرصة ثمينة للإنسان تجمع كافة قواه وتحضرها في ألفة وإنسجام لتستقر في خدمة تُقدَّم لله حسب مشيئته « تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك » (مت٢٢ : ٣٧) .

أ ــ عطايا الله للمواظبين على ممارسة خدمته بأمانة :

قانون الطقس يبدو في مظهره مجرد وصايا وأوامر وتحديدات ...
ولكن سر الطقس يتجلى في الأمانة عند التنفيذ والمواظبة بإخلاص حيث ينفتح على الإنسان باب العطايا الإلهية فيذوق الإنسان من سخاء الله وغزارة نعمته .. وحسب خبرة الآباء القديسين تكون العطايا دائماً من نوع الجهاد :

ــ فنشاط الجسد في الصلاة والخدمة . . ، يجازيه الله بنشاط الروح وحرارة القلب .
ــ ووقوف الإنسان في الصلاة بعزم ورزانة ، يجازيه الله بصلابة الروح وإستقامة الفكر .
ــ ورفع اليدين والعينين والقلب والنفس ، يجازيه الله بالإقتراب بنعمته إلى قلب الإنسان .
ــ والسهر بالليل . . ، يجازيه الله بيقظة في الروح وإستنارة .
ــ والصلاة بفهم ووعي قلبي . . ، يجازيه الله بنعمة الإفراز والحكمة .
ــ والسجود متواتراً إلى الأرض . . ، يجازيه الله برفع روح الإنسان من الأرضيات .
ــ والتسبيح والحمد والشكر الدائم . . ، يجازيه الله بالفرح وبهجة النفس .
ــ وتمجيد الله وتقديس إسمه متواتراً . . ، يجازيه الله بتكريم روح الإنسان في السر والعلن .
ــ والدموع والبكاء والحزن على الخطايا والصغائر . . ، يجازيه الله بعزاء النعمة والفرح الباطني .

أي أن الطقس بقدر ما يضع علينا من وصايا وأوامر وفرائض وإلتزامات ، يهيىء لنا في الواقع وفي السر العطايا الثمينة البهجة التي توازن أتعابه مائة ضعف . وكلما ثقّل علينا بإلتزامات تبدو للجهال والكسالى أنها زيادة وثقل ، كلما أضمر لنا إنفكاكاً من رُبُط الجسد والعالم وأعدّنا لنكون روحانيين ...

إذن فالأمانة والمواظبة على ممارسة الطقس فترة طويلة مستمرة ، فرصة منقطعة النظير لعطاء النعمة ، لا كمواهب تُعطى جزافاً في يوم وليلة ، ولكن كصفات حية للروح تغرسها النعمة في النفس غرساً ، قليلاً قليلاً كبناء ينمو بالإجتهاد يوماً بعد يوم على قدر الحب والأمانة و بذل الخدمة .

ب ــ إستقرار النفس من تواتر العبادة :

إعتياد الإنسان بمسرة لكثرة الصلوات وتكرارها يهيىء للنفس فرصة أن تستقر في الله كنصيب لها ...

ليس الفهم وحده ، وليست معاني الكلمات البراقة والمقاطع اللاهوتية العميقة هي التي ترفع روح الإنسان لله ، بل إعتياد الصلاة في حد ذاتها مهما كانت بسيطة ، وتكرارها بروح بسيطة غير طامحة للتأملات العليا قادر أن يسكن روح الإنسان في الله ...

ليس المطلوب في العبادة أن يسمو الإنسان بعقله وذهنه للتأمل في الله فقط ، بل أن يرتاح للصلاة و يرتاح للتسبيح و يرتاح للتلاوة والقراءة أكثر من كل شيء ... لأن التأمل ينتهي بسرعة ، ورفعة العقل في الصلاة تنحط برغم إرادة الإنسان . ولكن الإرتياح للصلاة والتسبيح وخدمة الله ترافق الإنسان كل الوقت كل الأيام .

النفس إذا بلغت الراحة والإستقرار في الصلاة تستطيع أن تنطلق نحو الله في الحال عند البدء بأول كلمة في الصلاة أوالتسبيح . ولكن هذا لا يحصل عليه الإنسان في الإبتداء وإنما يجنيه من كثرة الصلوات والإستدامة فيها وتكرارها بفرح وتفضيلها على الأعمال الأخرى والإهتمامات الباطلة الكثيرة .

ولكن لا قيمة للتكرار الذي يكون فيه عقل الإنسان منشغلاً بأمور دنيوية . فروح الإنسان لا تستقر في الله إلا إذا إستقر العقل بعيداً عن المغريات والآمال الأرضية .

والإهتمام بتنفيذ واجبات الصلاة وفروضها بدون مسرة قلبية و بدون إتصال بالله حقيقي ينشيء « البر الذاتي » ، وهذه هي الخطيئة الناجمة عن تكرار الطقس باطلاً حيث تكون مسرة الإنسان في الأعمال وليست في الله .

فالعبرة في الطقس ليست في ترديد الكلمات والسجدات ، ولكن في الدوافع القلبية التي جعلتنا نصلي ونردد الكلمات ...

والصلوات بحد ذاتها بسيطة سواء كانت مزامير أو تسابيح أو قراءات أو طلبات . إذ لا يمكن أن يجد فيها الإنسان شيئاً يساوي الأبدية أو يساوي الله . ولكن قلب الإنسان هو وحده الذي يساوي الأبدية ، وحبُّه يساوي حب الله !

فالصلوات إذا كانت من قلب واع مخلص ويحب صادق نحو الله فهي تهز أعتاب

السماء . فصلاة دانيال بسيطة يمكن أن يصليها كل إنسان ولا يحدث أي شيء . ولكن قلب دانيال الذي صلى هذه الصلاة هو الذي أحدر الملاك من السماء ليقول له : « يا دانيال إني خرجت الآن لأُعلِّمك الفهم . في إبتداء تضرعاتك خرج الأمر وأنا جئت لأُخبرك لأنك أنت محبوب » (دا ٩ : ٢٢ ، ٢٣)

إذن فسر الطقس ليس في كلام ولا في تأدية الفرائض بتدقيق ولكن في القلب الذي يمارس الطقس و يتلو الصلاة . .

أي أن العبرة ليست في ترديد الصلوات وإعتيادها وحسب ، ولكن في السر الذي يلازمها الذي لا ينكشف إلا لمن ينحني للطقوس و يكرمها و يثق في فعلها بأمانة وتوقير ... « وسرُّ الله لخائفيه » (مز ٢٥ : ١٤)

فإذا إكتفينا بالطقس دون هذا السر الإلهي الذي يحويه ، لا يبقى فيه معنى ولا قوة . حيث ترديد الصلوات يزيدها ضعفاً مهما تشبث الإنسان بها ، ومن ثمَّ يقتنع العقل بعد مدة بتفاهتها !

فالطقس بحد ذاته لا يرفع النفس فوق ذاتها . ولكن حينما تواجه النفس كلمات الصلاة والتسبيح « بخوف ورعدة » — كما ينبه الشماس الشعب دائماً — حينئذ تنتبه النفس وتنفتح حواسها فتواجه العظيم الأبدي !! ...

تكرار الطقس هنا يخدم كمنبه للروح وموقظ للنفس ، وكل مرة تنتبه الروح وتتيقظ النفس يستمد الإنسان قوة ...

والملاحظ أن قوة المزامير والصلوات المكتوبة بالروح في الأسفار المقدسة ليست متوقفة على معنى الكلام فقط ، بل من الواضح أنها تحوي « لهجة » روحية خاصة ترتبط « بموقف معين » قيلت فيه هذه الصلاة ، وكان لهذا الموقف « إستجابة » من الله ... وهذا هو السر في قوة الصلوات المكتوبة ... فالإنسان حين تنتبه روحه لكلمات الصلاة بسبب هذه « اللهجة » الروحية السرية فإنه يدخل في ذات الموقف عينه و يتقبل إستجابة !

ومن مفاخر الكنيسة أنها إستطاعت أن تضفي على كافة صلواتها لهجة روحية ذات تأثير على روح الإنسان سواء بطريقة التلاوة أو اللحن ، حتى أنه بمجرد أن يسمعها الإنسان ينفتح وعيه الروحي وتنتعش نفسه حتى لو تكرر سماعها آلاف المرات ...

ومجرد سماع صلاة كنسية من بعيد حسب طقسها ونغمها المألوف ، كفيل أن يشعل روح الإنسان بالشوق إلى الصلاة ...

والطقس يربط كافة الصلوات بطرائق وأنغام معينة محبّبة للنفس . وبذلك يسجلها في وعي الإنسان وفي اللاشعور معاً ، وحتى إذا كفّ الوعي عن أن يطلبها بسبب الإهمال أو الخطيئة نجد أن اللاشعور يلح في السعي إليها ! ...

والإنسان بدوره يربط بين هذه الصلوات ومواقف حياته التي تقبّل أثناءها معرفة هذه الصلوات وسماعها لأول مرة . فبمجرد أن يسمع الإنسان بعد ذلك إحدى هذه الصلوات أو التسابيح أو الترانيم التي تقبّلها أيام فرحه أو جهاده أو توبته ، يعود في الحال إلى الموقف المرتبط بها و يدخل في نفس الشعور بالفرح أو الجهاد أو التوبة . وبهذا ينجح الطقس في إسترجاع مواقف الإنسان العبادية المحببة إليه على الدوام ...

فالطقس يربط الإنسان بالله بصورة فائقة للعقل والمنطق ...
والتكرار إحدى وسائله المبدعة النافذة لأعماق اللاشعور!

بهذا جدير بنا أن نكرم الطقس ونعتبره القوة الأولى في الكنيسة الحارسة للإيمان والتقوى ، وهو أصدق صديق لوجدان الإنسان منذ الطفولة ...

جـ ــ خطر الطقوس :

خطران يتهددان خدمة الطقوس :

الأول : التدقيق في الطقوس وخدمتها بدون روح مع تفريغ كل الجهد والإهتمام حتى الإعياء في تكميل ما يلزم وما لا يلزم ، ومحاولة التطويل وإضافة صلوات ليست في موضعها ، ودس كلمات وحركات وأنغام وألحان على الخدمة لا تدخل في مضمونها ،

رغبة في التطويل والتباهي والإعلان الشخصي عن الحذق في الطقوس لا إعلاناً عن روحانيتها وأصالتها . وبذلك يفقد الطقس قوته ومعناه وهدفه الأصلي . وهنا لا نحاول أن نكشف ميل الإنسان نحو الظهور بالتمسك بأهداب الدين والطقس أمام الآخرين طلباً للكرامة وتزكية الذات ... ولكن الخطر الذي نوجه إليه الذهن هو محاولة الظهور بالتدين أمام الله نفسه والتمسك بالشكليات لعلنا نفوز منه بمكافأة .

الثاني : الإستهتار بالطقس وإختصاره والإسراع في تأديته وتكميله بأرخص الطرق حتى يشعر الجميع أنه شيء غير ذي أهمية ...

وفي كلا الوضعين يفقد الطقس أهميته كواسطة لإيقاظ الوعي الروحي أو رفع النفس إلى الله فيصبح ليس مُعيناً للعبادة بل ثقلاً عليها ...

يهمنا إذن أن نعلم أن قوة الطقس هي في أنه كيف يوصلنا إلى الله و يوصل الله إلينا ، فالإهتمام بالطقس أكثر من روح العبادة يحول بيننا و بين الإتصال السهل بالله . كما وأن الإهمال في تأديته يضيع علينا فرصة قوية للإتصال بالله .

ء ــ جوهر الطقس :

هو الطاعة المطلقة لترتيبات الله المعلنة من قبله في كيفية عبادته .

إن قوة الطقس هي في كونه يوصلنا إلى الله و يوصل الله إلينا .

فهل يمكننا أن نقتحم الوصول إلى الله حسب مشيئتنا أو بأي صلاة ؟
وهل الله يصل إلينا دون ترتيب وإستعداد وإختبار؟

إن تاريخ العلاقات بين الله والإنسان على مدى العهدين القديم والجديد وأخبار الآباء ، تكشف عن طبيعة الله فيما يختص فقط بمعاملته للإنسان وقبوله له أو رفضه إياه . بل وإن كافة الأسفار تدور حول محور واحد هو هذه الحقيقة عينها .

فالأسفار إما تقص علينا كيف أحب الله إنساناً أو رفض الله إنساناً ، ولماذا كان هذا القبول أو الرفض ، وإما تشرح لنا أوامر وفروضاً ووصايا وصلوات أعطاها الله

للذين أحبهم حتى يجعلوها شريعة محتمة لعبادة الله العامة والتقرب إليه .

وقد ثبت أن الإنسان لا يستطيع بمفرده وبدون إلهام أن يقترح وسيلة بها يتقرب إلى الله ، وذلك ليس بسبب ترفُّع الله ، ولكن بسبب جهلنا لطبيعته وبالتالي جهلنا لمشيئته التي تفوق فكر الإنسان . « كما علت السموات عن الأرض هكذا علت طرقي عن طرقكم وأفكاري عن أفكاركم » (أش٥٥ : ٩) « من عرف فكر الرب فيعلمه » (١ كو٢ : ١٦)

لذلك قد سبق الله وعرّف الإنسان كيف يتقدم إليه ، ويدخل في حضرته ، وبأي صوت يتكلم ، وبأي كلام يتوسل ، وبأي أعمال يرضي الله ؛ وذلك بأحكام كثيرة متنوعة تكاد تغطي الكتاب المقدس كله ...

والعجيب أيضاً أنه حتى هذه الأحكام لا يمكن وضع واحد منها بجوار الآخر وفحصها بالإستقراء ، لإكتشاف دوافع الله وصفاته الداخلية . لذلك يقول الرسول : « ما أبعد أحكامه عن الفحص وطرقه عن الإستقصاء » (رو١١ : ٣٣) . فأحكام الله لا تحتمل فلسفة الإنسان ولا تصلح إلا للخاضعين ولا تظهر قوتها إلا بالطاعة البسيطة المؤمنة .

فمن ذا يقول أو يعقل أن الغيرة على مقدسات الله والإسراع بضمير نقي لخدمة ضرورة إلهية شيء يغضب الله ؟

ولكننا نقرأ في تاريخ نقل تابوت الله من أرض فلسطين ، أنه بينما الكل في فرح وتهليل سائرين أمام تابوت الله ، وإذ بالبقرات تفزع فيميل التابوت ليسقط ، ويمد « عزّه » يده ليسند التابوت فيغضب الله عليه ويميته في الحال !! والسبب أن عزّه ليس من اللاويين المخصصين لخدمة التابوت أو لمسه !! مع أن التابوت نفسه كان مسبياً في بيت داجون الوثني وفي قرى الغُلْف ... (٢صم٦)

ومن ذا يقول أو يعقل ، أن إبني هارون وهما لاويان وكاهنان ممسوحان لخدمة الهيكل ، تخرج نار من القدس وتأكلها وهما واقفان يبخران فيقعان ويموتان في الحال ؟

وذلك لأن النار التي وضعاها في المجمرتين اللتين في أيديهما لم يأخذاها من على المذبح — كما أمر الرب — بل دخلا بها من الخارج ! « ناداب وأبيهو أخذ كل منهما مجمرته وجعلا فيها ناراً ووضعا عليها بخوراً وقرَّبا أمام الرب ناراً غريبة لم يأمرهما بها فخرجت نار من عند الرب فأكلتهما فماتا أمام الرب » (لا١٠ : ١، ٢)

وكذلك مريم النبية أخت هرون أصابها البرص لأنها طالبت بحق النبوة والقيادة دون أن يأمرها الله ، وبخلاف الترتيب تذمرت على موسى فكان ما كان (عد١٢)

وكذلك قورح وداثان وأبيرام والمائتان والخمسون الذين معهم ، إنشقت الأرض وإبتلعتهم لأنهم خالفوا أوامر الله وترتيبه وقدموا بخوراً أمام الله لم يأمر به (عد١٦)

وشاول الملك فارقه روح الله وأصابه روح شرير بمجرد أن خالف أوامر الله وقرَّب ذبائح لله لم يأمر بها ! (١صم١٥، ١٦) .

وهكذا عخان بن كرمي وجيحزي تلميذ أليشع وحنانيا وسفيرة ، أصابهم ضررٌ بليغ لأنهم إستهانوا بالله وحسبوه لا يسمع ولا يرى !!

والله أعلن مراراً وتكراراً أنه لا يقبل صلاة ولا صوماً ولا إنسحاقاً ولا ذبيحة ، إلا بمقتضى أوامره وحسب قوله ؛ على أن تكون بروح الطاعة والخضوع . لأن العبرة أيضاً ليست في الصوم ولا الصلاة ولا الإنسحاق ولا الذبيحة ، وإنما في إتّباع أوامر الله ظاهراً وخفياً !!

وهكذا يعلن الله عن رفضه للذبائح مهما كانت : « وبنوا مرتفعات توفه التي في وادي إبن هنوم ليحرقوا بنيهم وبناتهم بالنار ، الذي لم آمر به ولا صعد على قلبي » (إر٣٢ : ٣٥) .

وقد يتهيأ للفكر البشري العاجز أن الله يُسترضَى بمجرد الصلاة أو بالصوم الشديد أو بالإنسحاق والتذلل أو بالذبائح والعطايا أو حتى بحرق الجسد ... ولكن يستحيل أبداً على الإنسان أن يقتحم الله ! لابد أن يعلن خضوعه أولاً برجوعه عن طرقه التي تغضب الله . ثم لا يتقدم بالصلاة إلا بحسب فروضها وواجباتها . أي لا بد أن يطيع الإنسان

أوامر الله طاعة عملية من كل القلب ولا يقدّم إلى الله إلا ما يؤمر به وحينئذ تُقبل عبادته وصلواته وتقدماته . « فقال صموئيل هل مسرة الرب بالمحرقات والذبائح كما باستماع صوت الرب ؟ هوذا **الإستماع أفضل من الذبيحة** ، والإصغاء أفضل من شحم الكباش . لأن **التمرد كخطيئة** العرافة ، والعناد كالوثن والترافيم . لأنك رفضت كلام الرب رفضك من المُلك » (١صم١٥ : ٢٢، ٢٣) .

إذن جوهر العبادة هو في إتّباع أوامر الله ... وجوهر الطقس هو في طاعة ترتيبه للأمور التي تختص بعبادته ...

أي أن أداء الطقوس في حد ذاتها لا تفيد شيئاً ولا توصل إلى شيء...

أما إذا كان الأداء بدافع الطاعة لله ، صارت الطقوس عبادة ، وصارت العبادة واسطة للدخول إلى الله !.

إذن فمهما قدّم الإنسان من أنواع العبادات والصلوات والتقشفات ، لا تفيده شيئاً إذا كانت بروح التفضل على الله ، أو كانت بروح القوة والإقتدار، أو كانت بإحساس حسن التدبير الذاتي وكفاءة المعرفة ، أو كانت بإحساس التفوق في البذل... بل يلزم أن تكون **بروح الطاعة وبإحساس إنسان خاضع ينفّذ أوامر الله ووصاياه باتضاع وأمانة .**

والإنسان لا يجني في حياته من ممارسته للصلوات والأصوام وأنواع الطقوس قيمة روحية خالصة ، إلا في إعتباره إنساناً مطيعاً لأوامر الله ووصاياه ! !

وقد تبدو وصايا الله أحياناً أنها بسيطة بل وربما تافهة وبدون معنى ، حسب منطق الحكماء والعقلاء ، وأن الإنسان يستطيع أن يدبّر نفسه بما هو أفضل منها ويثقّف نفسه بممارسات أعلا وأجل من وصايا الله ...

ولكن الذي يقرّب الإنسان إلى الله ، والذي يرفع روحه فوق مستوى الطبيعة الجسدية والعقلية ، والذي يطهّر ضميره ويقدّس نفسه ليست الممارسات على أي وجه من الوجوه سواء كانت بسيطة تافهة أو حاذقة متقنة ، وإنما طاعته لله وأمانة حبه له من كل القلب والفكر والقدرة هي التي تسمو بالإنسان فوق ذاته ! !

بهذا نرى طريق الخلاص والحياة الأبدية مفتوحاً أمام كل إنسان ، أمام الضعيف جداً والقوي جداً ، أمام البسيط في فهمه وذكائه وأمام العميق والذكي جداً بعقله ، أمام الصبي الصغير والرجل الكامل والشيخ المضمحل ... **كل واحدٍ على قدر طاقته يجاهد لتتميم وصايا الله ، ولكن الإكليل لا يكون بمقدار الجهاد ولكن بمقدار طاعة الجهاد وبساطة الإيمان وبر الله وصلاحه .**

وقد يُكلّل الضعيف أسرع وأكثر مما يُكلّل القوي . وقد يُكلّل البسيط في فهمه أسرع وأكثر مما يُكلّل الحكيم الحاذق بعقله ...

وليس دليل على ذلك ، أقوى من المثل الذي قاله السيد المسيح على الفعلة الذين استأجرهم صاحب الكرم ثم في النهاية أعطى أجرة للذي عمل ساعة واحدة تساوي ما أخذه الذي عمل وجاهد إحدى عشرة ساعة ! ! !

أما تعليل المسيح لهذا التوزيع العجيب في المكافأة هو: « لأني صالح » .

والله منذ البدء يسهّل الخلاص للناس بسبب صلاحه ، لولا إعتداد الإنسان بذاته . فاسمع ما يقوله الله على لسان موسى النبي في سفر التثنية ، أي منذ أن ابتدأ الإنسان يتعرّف على طريق الخلاص : « إن هذه الوصية التي أوصيك بها اليوم ليست عسرة عليك ولا بعيدة منك ، ليست هي في السماء حتى تقول من يصعد لأجلنا إلى السماء ويأخذها لنا ويُسمعنا إياها لنعمل بها ، ولا هي عبر البحر حتى تقول من يعبر البحر ويأخذها لنا ويُسمعنا إياها لنعمل بها ، بل الكلمة قريبة منك جداً في فمك وفي قلبك لتعمل بها » (تث٣٠ : ١١ــ١٤) .

وبولس الرسول يعلّق على هذه الآية المنيرة بقوله إن الله نزل من السماء إلينا وصعد من أعماق الأرض إلى السماء كسابق عنا وبنا ومن أجلنا (رو١٠ : ٨) .

إذن فالله لم يترك لنا أمر الخلاص شاقاً لكي نصعد بأنفسنا إلى الله باجتهادنا واقتدارنا ، ولكن بأن نقبله لأنه أتى ويأتي إلينا كل يوم « ليأتِ ملكوتك » .

أي أنه مهما جاهدنا في تتميم الفرائض والوصايا والطقوس ، فهذا لاينقلنا إلى

السماء ولا يُحدِر إلينا الله لأن هذا عمل المسيح ... ولكن طاعتنا لله هي التي تجعلنا نحفظ وصاياه ونحبها ونعمل بها ، وحينئذٍ يزكّي إيماننا . وإيماننا بالمسيح إذا تزكّى ، فحينئذٍ المسيح نفسه هو الذي يقيمنا معه و يرفعنا معه و يُجلسنا معه في السماء .

ولذلك ، كل من يجعل جهاده الشخصي في الصلاة وتدقيقه في طقوس العبادة والنسك واسطة شخصية للتقرُّب إلى الله ، هو بمثابة إنسان يحاول أن يصعد إلى السماء بنفسه ليصالح الله و يُحدر رحمته . وهو بذلك يتجاهل المسيح ... أما من جعل الصلاة وكافة طقوس العبادة برهاناً وميداناً لإظهار الطاعة والخضوع لله ، هو بمثابة إنسان يفتح قلبه ليأتي إليه المسيح ...

ولكن إسرائيل وهو يسعى في إثر ناموس البر لم يدرك برَّ الناموس . لماذا ؟ لأنه فعل ذلك ليس بالإيمان (= الطاعة) بل كأنه بأعمال الناموس ... لأنهم إذ كانوا يجهلون برَّ الله (= طاعته) و يطلبون أن يثبِّتوا برَّ أنفسهم (= جهادهم) ، لم يخضعوا لبرِّ الله (= طاعته) (رو٩ : ٣١ ، ١٠ : ٣) .

هنا نجد أن أساس العبادة المرفوضة هو الإعتماد على تأدية الواجبات والفرائض والطقوس والنسكيات كأنها تبرِّر الإنسان مع أن **الذي يبرِّر هو الله نفسه لما نطيع وصاياه** . أي أن ليس في فرائض الله ووصاياه لا في العهد القديم ولا في العهد الجديد أعمال يمكن أن تطهِّر أو تقدِّس أو ترضي الله في حد ذاتها ... فهذه وإن كانت طقوساً جعلها الله للتكفير والمغفرة والتقديس ، إلا أن الله هو بنفسه يطهِّر و يقدِّس ...

أي أن قوة التطهير والتقديس ليست في الذبائح قديماً وليست في صلوات الخبز والخمر في الإفخارستيا ، وإنما في المسيح الذي كانت ترمز إليه الذبائح قديماً ، وفي المسيح الذي يحوِّل الخبز إلى الجسد المقدس والخمر إلى الدم الكريم ثم يطهِّر و يقدِّس كل المتناولين منها **بنفسه** ؛ لأن المسيح هو هو الذي يعطينا الجسد وهو هو الذي يعطينا الدم وهو هو الذي يطهِّرنا و يقدِّسنا ...

أي أن قوة التطهير والتقديس لا تتولد من أعمال الإنسان بحد ذاتها مهما كانت عظيمة وإلهية أو حسب فرائض الله ، ولكن الله إحتفظ بالتطهير والتقديس لنفسه

يعطيها من طهره وقداسته كموهبة وكنعمة عند طاعة أوامره وتكميل فرائضه . لذلك اقرأ عن عدم نفع الذبائح نهائياً في حالة عالي الكاهن الذي إستهتر أولاده بفرائض الله : « لا يكفَّر عن شر بيت عالي بذبيحة أو بتقدمة إلى الأبد » (١صم٣ : ١٤) .

بل إن الرسول يحذِّرنا أن الذبيحة الإلهية ليست فقط لا تقدّس المتناولين منها عندما يكونون غير مستحقين ، بل تجعلهم مرضى بل وتميتهم أحياناً (١كو١١ : ٢٧ــ٣٠) .

أي أن هناك فوق الذبيحة عيناً فاحصة وعصا مرفوعة ! و يداً تبارك وتدين .

٤ ــ منظر سمائي يشرح خدمة التسابيح والصلوات داخل الكنيسة

من يقرأ سفر الرؤيا بإتقان يطّلع على صورة سمائية دقيقة لكافة أنواع الطقوس التي تصحب الصلوات والتسابيح التي تمارسها الكنيسة كل يوم مع سر الإفخارستيا ، من ملابس بيضاء ، ومجامر و بخور وجمر نار على المذبح ، وتيجان ذهبية ومنارات ومذبح وخروف **قائم كأنه مذبوح** وشاروبيم ورؤساء ملائكة وملائكة وقوات سمائية وأربعة وعشرين قسيساً وربوات المفديين ، وتسابيح عامة وخاصة ومردات وأناشيد وتهليل وقيثارات وسجود وأسماء جديدة وأكاليل وتعزية ليست بقليلة ...

ومن التعليقات السمائية قولهم لله : « من لا يخافك يارب ويمجد إسمك لأنك قدوس وحدك » (رؤ١٥ : ٤) ، ومنها تظهر الضرورة الطبيعية لتمجيد الله بسبب إستعلان قداسته ! !

فحيثما يُستعلن مجد الله لا يمكن أن توجد خليقة تقف أمامه صامتة : « وكل خليقة مما في السماء وما على الأرض وتحت الأرض وما على البحر كل ما فيها سمعتها قائلة للجالس على العرش وللخروف : البركة والكرامة والمجد والسلطان إلى أبد الآبدين » (رؤ٥ : ١٣) .

وحينما تهتف كل الخليقة بمجد الله يرد الأربعة مخلوقات الحية (المسئولون عن كافة الخلائق) و يقولون : « آمين » (رؤ٥ : ١٤) . أليست هذه صورة سمائية مبدعة للكنيسة وهي تسبّح بكافة طقوسها ؟ حينما يرد هذا قبالة ذاك و يقولون قدوس قدوس قدوس آمين هلليلو يا ! ...

وحينما سعت الكنائس قديماً لتحصل على ذخائر الشهداء لتبني عليها مذابحها ، أليست هذه صورة للحقيقة السمائية التي نشرحها ونفك ختومها : « ورأيت تحت المذبح نفوس الذين قُتلوا من أجل كلمة الله ومن أجل الشهادة التي كانت عندهم » (رؤ٦ : ٩) .

فكما أن المذبح السمائي تحمله أرواح الشهداء هكذا المذبح في الكنيسة تحمله الشهادة عينها وكأنما دم الشهداء جزء حي في ليتورجية الصلوات !!

وحتى تعليم الكنيسة بحقيقة مشاركة الملائكة وأرواح القديسين في إقامة الليتورجية معنا بكافة أنواعها وصلواتها وتسابيحها ووقوفهم حول المذبح ، تظهر بلا لَبْس في سفر الرؤيا عندما كُشف ليوحنا عن منظر الملائكة الجليل وهم يخدمون أمام العرش جنباً إلى جنب مع كافة أرواح الأبرار المكملين (رؤ٥ : ١١)

إذن فالكنيسة لا تتبع خرافات مصنعة !؟
ولا هي وصايا وطقوس وتعاليم الناس !؟
ولا هي يهودية تحمل نفاية عبادات نافلة !؟
فسفر الرؤيا يقف شاهداً أبدياً على روحانية الليتورجية بكافة أصولها وفروعها ، ويختم بالحق الأبدي على صلواتها وتسابيحها و بخورها وذبيحتها ...

سفر الرؤيا يعلن و يشهد أن ما أعطاه المسيح للتلاميذ من تقاليد الصلاة والتسبيح والخدمة ، وما أوحاه الروح القدس للرسل القديسين من ترتيب ونظام ، هو أبدي غير زمني لا يحمل رموزاً بل حقائق سوف نتابعها حتى في الحياة الأخرى ، حينما يأخذ كل منا موضعه من العرش الإلهي و يعطى سر التسبيح الملائكي ليخدم ذات الليتورجيا وربما بنفس كلماتها ولكن في مجد لا يوصف ...

وهكذا يتضح أن عمل الكنيسة الآن يمهد بالخدمة اليومية وتقديم الإفخارستيا لإستعلان ملكوت الله .

ونحن الآن نمارس بصورة سرية نصيبنا المبارك في خدمة الله كخليقة جديدة تنتظر إستعلان مجيء المسيح ، لا بالتشوق العاطل ولا بالتمني العاجز؛ لكن بالصلاة والتسبيح كل يوم وكل ساعة ...

٥ ـ تأثير ليتورجيا الصلاة والتسبيح على الكيان الإنساني :

إن داود يُعتبر مثلاً قوياً في ممارسة الصلاة الكثيرة والتسبيح والترتيل أمام الله بفرح وخشوع على مدى النهار والليل ...

كذلك يتضح لنا من حياته وشهادة الله له ، قوة العلاقة القائمة بين الصلاة والتسبيح و بين شركة الروح القدس وسُكناه في قلب الإنسان .

وفي الحقيقة ليس من العسير أن ندرك أن الصلاة والتسبيح هي بحد ذاتها عمل الروح القدس فينا ، وأن ممارستها هي بنوع ما شركة مع الروح القدس .

لذلك فالمواظبة على خدمة ليتورجيا الصلوات والتسابيح في الكنيسة تُدخلنا في سيرة الروحانيين بدون عناء و بدون كبرياء ، وهي قادرة أن تغيِّرنا قليلاً قليلاً من شكلنا العالمي الدنيوي إلى شكل جديد حبيب إلى الله وإلى الناس أيضاً .

والملاحظ أن التسبيح عندما يكون من القلب يوقظ فينا وعي الخلود الكامن في أعماقنا ، و يزيد تعلقنا بالحياة الأبدية ... و بعد ذلك يعتاد الإنسان على جو التسبيح وكأنه جو السماء أو الوطن الأفضل ، الذي يتنسم فيه رائحة الله ، بمجرد أن يسمع خورس الكنيسة يسبّح ... فاللحن هو لغة الروح التي تستمد منه وعيها السمائي .

والذي تتيقظ روحه مرة واحدة بواسطة اللحن أوالصلاة الرتيبة داخل الكنيسة تصبح الصلاة كل مرة قادرة أن تدخله في مجال الله بدون أي عناء ، كالطفل الذي تعلّم اللغة حديثاً .

لذلك فليتورجيا الصلاة والتسبيح الجماعي داخل الكنيسة لها القدرة على إيقاظ روح الإنسان للتعرف على وطنه السمائي ، وتنمية وعيه بالخلود ، وازدياد إحساسه بالإلهيات ، وتغيير فكره وتجديده ...

خورس التسبيح في الكنيسة يستخدمه الروح القدس لجذب قلوب التائبين نحو السماء ، ولتغليب صوت الله على صوت العالم الزائل .

لذلك فخدمة التسبيح والتضرع باللحن تمهد تمهيداً باطنياً ، دون وعي ، لقبول الشركة الجماعية مع الله في سر الإفخارستيا ... خصوصاً وأن الإشتراك في التسبيح الجماعي داخل الكنيسة يذيب الفوارق بين الفرد والجماعة كما يذوب صوته في وسط صوتهم ، وكأنما التسبيح يؤلف بين المؤمنين و يقدُّهم ليكونوا صوتاً واحداً لقلب واحد وروح واحد . لأن اللحن يعزل الإنسان عن العالم كما يعزله عن أنانيته ...

٦ ـــ الصلاة والتسبيح وروح الشركة

[وحينئذ يسألون يارب ! متى رأيناك جائعاً أو عطشاناً أو غريباً أو عرياناً أو مريضاً أو محبوساً ولم نخدمك ؟ ؟

يارب ، ألا تعرفنا ؟

أنت الذي خلقتنا وأنت الذي أعطيتنا الروح والنفس !

نحن آمنا بك ! وأخذنا ختمك ! ونلنا معموديتك واعترفنا بك إلهاً ...

نحن صنعنا بإسمك آيات ! ! وأخرجنا شياطين ومن أجلك أمتنا الجسد !

واحتملنا البتولية ! ! ومارسنا العفة

ومن أجلك تغربنا على الأرض ، وأنت تقول لا أعرفكم ؟ إذهبوا عني ؟

ولكن الرب يجيب قائلاً :

أنتم خُتمتم بخاتم صليبي ولكنكم **طمستموه بقساوة قلوبكم ! !**

أنتم نلتم معموديتي ولكنكم **لم تهتموا بوصاياي ! !**

أنتم أخضعتم أجسادكم للبتولية ولكنكم **لم تصنعوا رحمة ! !**

ولم تخرجوا من قلوبكم البغضة نحو أخيكم ! ! لأنه ليس كل من يقول لي يارب يارب يخلص ولكن الذي يعمل إرادتي ! !]

هيبوليتس (*)

مهمة الكنيسة لا تقف عند خلاص الفرد ، **بل تتابعه إلى أن توحده في جسم الجماعة** ، أي الجسد الواحد السري جسد المسيح غير المنظور الذي يحوي كافة المؤمنين المجاهدين على الأرض وكافة الذين كملوا بالإيمان وتكللوا .

الكنيسة تسلّم الإنسان طبيعة الإندماج في جسمها غير المنظور في لحظة العماد ، فهي تلده ليظل مولوداً جديداً لها .

الإنسان بعد المعمودية يفقد كيانه الآدمي المستقل و يأخذ قدرة جديدة للإتحاد بالآخرين والله ، وذلك بنموه في التجرد وإنكار الذات ...

لذلك **فكل عضو في الكنيسة لا يعيش لنفسه فقط ، لأنه سيقاسم الكنيسة مجدها وحبها وغناها ، إذ ليس لأحد مجد منفصل عن الكنيسة** ، لذلك فبالضرورة ينبغي أن يعيش منذ الآن يقاسمها جهادها وخدمتها .

الإنسان إن صام أوصلى أو سهر أو خدم آخرين ، أو حتى إن أخطأ ؛ فهو مع الكنيسة ولها ... هذه الحقيقة يتحتم على كل إنسان أن يعتبرها غاية الإعتبار .

الصلوات والتسابيح الجماعية داخل الكنيسة هي بحد ذاتها شركة حية ناطقة ، ينشّطها الروح القدس ويحييها ليجعل الأعضاء بواسطتها جسماً روحياً مؤتلفاً . والكنيسة تدرك هذه الحقيقة منذ البداية ، فالمعروف من تاريخ الآباء المتوحدين في

(*) *Hypol , Works of, ch. XLVIII., ANF.* V

القرن الثالث والرابع أن قانون العبادة المشتركة كان يلزمهم بالإجتماع يومي السبت والأحد للتسابيح والصلوات طوال الليل بما يسمونه السهر Vigilar ، الذي ينتهي بالقداس في حدود ما بين الساعة الثالثة والساعة السادسة من النهار على مدى الصيف والشتاء .

هنا إدراك الكنيسة ووعيها أن إلتئام الجماعة للصلاة والتسبيح بهذه الصورة المتواصلة طول الليل كل أسبوع ، كفيل بأن يصهر الجماعة و يوحّد روحها و يربط أطرافها و يثبّت المبتدئين و يشجّعهم ، و يقدم لهم نماذج العبادة وحكمة الشيوخ وخبرتهم . خصوصاً وأنه كان يتخلل السهر كلمات من الشيوخ وأسئلة وأجوبة .

والملاحظ في التدبير الروحي أن العزلة إذا استطالت خطرة على النفس ، أما الحضور والتسبيح في وسط الجماعة فهو كفيل أن يستقطب أولاً بأول من النفس كل ميل نحو الأنانية أو العزلة المريضة ... ، هذا كله ينطبق على كافة الأفراد في العالم أيضاً ...

والكنيسة لا تكتفي بشركة المؤمنين معاً في خوارس التسبيح والصلاة ، بل تتشبث بضرورة حضور أرواح القديسين المنتقلين والملائكة المقدّسين . لذلك خصصت لهم قِطعاً للصلاة وأرباعاً للتسابيح مع تمجيدات وتوسلات في كل مناسبة تقيمها للصلاة والتسبيح ...

وما صور القديسين التي تزيّن حجاب الهيكل إلا أمكنة رمزية خصصتها الكنيسة لحضور أصحابها وجعلتهم في مقابل صفوف المسبّحين حتى يمتلئوا يقيناً بوجودهم وشركتهم ...

« أمام الملائكة أرتل لك !! » مز ١٣٨
« سبحوه في جميع قديسيه !! » مز ١٥٠
« قامت الملكة عن يمين الملك !! » مز ٤٥
« في وسط الجماعة العظيمة (الكنيسة) أسبحك !! » مز ٢٢

٧ ــ التسبيح كشركة مع خورس السماء

الذي يتقدم للتسبيح في الكنيسة والذي يشترك حتى بالسماع هو محسوب ضمن خورس كبير للقديسين من الأحياء والمنتقلين ...

لذلك نسمع في بدء تسبحة « التوزيع » في ختام القداس مطلع المزمور « سبحوه في جميع قديسيه » ، فكل خدمة يقدمها الإنسان لله داخل الكنيسة هي « في القديسين » ، أي من داخل ذلك الخورس الهائل غير المنظور في السماء وعلى الأرض .

وهذا في الحقيقة فوق أنه حقّ ونعمة فهو أيضاً ضرورة ، لأنه مَن من الناس يمكن أن يظل دائماً قادراً بمفرده أن يسبِّح الله ؟ ولكي تظهر هذه الحقيقة أكثر ضرورة فلينظر كل إنسان كيف يسبِّح وبماذا يسبِّح ولمن يسبِّح ؟

أليس هو تراث القديسين التليد وتقاليدهم بل وكلماتهم وإيمانهم بل وطريقة تسبيحهم وألحانهم التي نطقوها بالروح ؟ إذن فـ « سبحوه في جميع قديسيه » حقيقة لا مفر منها وما أجملها حقيقة ... لأنه وراء كل صوت يسبِّح في الكنيسة يمتد صوت الخورس السمائي الهائل من ربوات القديسين والقديسات يقوده محفل ملائكة ! ...

كما تسنده على الأرض توافقات من خوارس منظورة من أقصى العالم إلى أقصاه .



الباب الثاني
أثر الكنيسة في روح العبادة

١ – كيف سلبت الكنيسة كل مجد الهيكل وأسراره ولم تترك فيه إلا حجراً على حجر

المسيح أحب الهيكل جداً وكان في إعتباره « بيت أبي » الذي ينبغي له الكرامة ، لأن فيه تقدَّم العبادة والصلاة لله الآب « بيت أبي **بيت الصلاة يُدعى** » (مت٢١ : ١٣) ، وقد إجتمع فيه المسيح مراراً كثيرة مع الشعب في مواعيد العبادة الرسمية للمشاركة في العبادة ولتقديم التعليم .

ولكن كان هناك فرق شاسع بين إعتبار المسيح لمجد الهيكل و بين إعتبار الكتبة والفريسيين وعامة اليهود ، فالمسيح كان يرى مجد الهيكل كونه بيت الصلاة للآب ، أما هؤلاء فكانوا يرون مجد الهيكل في ضخامته وز ينته وحجارته وذهبه وفضته وتاريخه وأشخاص الذين بنوه !! « فتقدم تلاميذه لكي يُروه أبنية الهيكل ... أنه مز ين بحجارة حسنة وتحف » (مت٢٤ : ١ ، لو٢١ : ٥)

أما تعليق المسيح على هذا الشعور الخاطىء فكان توجيه نظرهم أن الحجارة لا بد ستُنقض ، أما مجد البيت فاسترده المسيح لنفسه ليبني به الكنيسة في كل أنحاء العالم ... وقد صار بالفعل لأنه [حيث يوجد المسيح تكون هناك الكنيسة]

(القديس أغناطيوس)

الكنيسة بدأت حياتها بالإثنى عشر تلميذاً ومعهم السبعين الآخر ين ، وكلهم كانوا يهوداً ومعظمهم كان غيوراً على العبادة والتقوى والصلاة بكل تدقيقاتها — ونموذج المسيح وغيرته المتناهية على بيت الصلاة لم تفارق ذهنهم ! ... فتذكر تلاميذه أنه مكتوب غيرة بيتك أكلتني » (يو٢ : ١٧)

أي أن الكنيسة بدأت كالمسيح غيورة جداً على معنى بيت الصلاة !! « وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة » (أع ٦ : ٤) . كما بدأت قاسية جداً على روح الرياء الديني وإختلاس أموال الكنيسة (حنانيا وسفيرة) ، وظهرت عدوة للمتاجرة بالمواهب والخدمات الإلهية (سيمون الساحر) .

ولكن لم يكن للكنيسة في البدء مكان خاص أو نظام خاص ، لأن التلاميذ كانوا يجتمعون مع جماعة المؤمنين في المجامع وفي الهيكل و يشتركون في نفس الصلوات وفي مواعيدها الرسمية اليهودية ، ولم يكن لهم كتب خاصة غير الأسفار التي للعهد القديم ، إنما بدأت الكنيسة كروح جديدة وسط هذا النظام العتيق ، ونورها بدأ ينبثق أولاً من خلال تفسير هذه الأسفار على أساس إتمام الوعد الذي كمل بمجيء المسيح وحلول الروح القدس ، فبدأت الأسفار تأخذ شكلاً جديداً بهياً ومنيراً غير شكلها اليهودي المعتاد حيث سقطت منها كافة الإعتبارات التي تنظر إلى المسيا كأنه موضوع المستقبل ، أو بإعتباره موضوع التمنيات والإنتظار الآتي لأنه قد أتى . فسقطت بذلك كافة الفرائض والرموز والأعياد والمواسم والمناسبات التي كانت تدور حول مجيء المسيا وتحث وترمز إلى مجيئه ، ولم يعد بعد حاجة إلى ذبيحة وتطهير وفدية وأعياد ومواسم ، ومن هنا بدأت الكنيسة تقف موقف المقاوم والمجدّف على الناموس في نظر اليهود . وأخيراً أُقفلت أبواب الهيكل وأبواب الجامع في وجه التلاميذ وكافة المؤمنين بالمسيح وطُردوا... فإنفصلت الكنيسة تحت الإضطرار وخرجت من الهيكل ومن المجمع و بدأت تنمو بعيداً عن التربة اليهودية نهائياً...

ولكنها خرجت ومعها كل أمجاد الهيكل الحقيقة وكل معنى « بيت الصلاة » وكل جوهر العبادة وأسرارها !!!

+خرجت ومعها :

١ ـ سر الماء : [التطهيرات ـ التي صارت في المعمودية ليس لغسيل الجسد بل لغسل الخطايا وميلاد الإنسان الجديد]

٢ ـ سر الخمر : [الذي كان يُسكب على الذبائح ـ فصار هو الدم المسفوك من الذبيحة لحياة العالم]

٣ ـ سر خبز الوجوه الساخن : [الذي كان يُقدم على المائدة أمام وجه الله ـ فصار هو الجسد الإلهي المكسور عنا ولأجلنا]

٤ ـ سر الزيت : [الذي كان لمسحة الكهنوت والملوك ـ فصار ختم الروح القدس لمسح الشعب كله ليصير الجميع ملوكاً وكهنة]

٥ ـ سر البخور : [الذي كان بمعنى تقدمة وسكيبة عطرة ـ فصار رائحة المسيح الزكية وسكيبة الصليب التي إشتمّها الآب]

٦ ـ سر الكهنوت : [الذي كان يرمز إلى الحنطة والخمر وملكي صادق ـ فصار بالجسد والدم والمسيح رئيس كهنة يكهن بنفسه في أشخاص مختار يه]

٧ ـ سر الفصح : [الذي كان تذكاراً للنجاة من عبودية مصر ـ فصار حقيقة الفداء والرجاء والقيامة]

+ خرجت ومعها ميراث الأنبياء وصلواتهم ومحبة الآباء القديسين الأوائل و بركاتهم وتوقير الملائكة ومعونتهم .

+ خرجت ومعها الأسفار المقدسة وترجمتها وشرحها وإشاراتها ورجاؤها المتركز حول المسيا...

+ خرجت ومعها طقوس الصلوات ومواعيدها ورهبتها وتسابيحها وألحانها وبهجتها .

لقد ورثت الكنيسة عن الهيكل والمجمع خبرة روحية هي حصيلة ألفي سنة لعلاقة لوطّدت بين الله وشعب إسرائيل تخللتها إستعلانات عن الله وأمجاده وجبروته ومحبته وحنانه وإخلاصه وتودده العجيب لأخصائه ، كما تخللتها تعاليم شخصية وتوبيخات وإنذارات وتأديبات وعقوبات ، هذا بالإضافة إلى إلهامات لا حصر لها فيما يختص بطرق الصلاة وأوقاتها ووسائلها ونظامها وألفاظها وواجباتها .

لقد ورثت الكنيسة حصيلة هذه الحياة الروحية التي من وضع الله بكل أوضاعها المستقرة وخصوصاً فيما يتعلق بالعبادة وأوقاتها وشروطها وآداب الحضور إلى بيت الله وأصول الإشتراك في الصلوات العامة...

٢ ـــ إرتباط المسيح بالمجمع والهيكل
وممارسته للصلوات في أوقاتها

نجد المسيح لما بدأ يعلّم فإنه لم يقلل قط من قيمة الصلوات المحددة ولا من نظامها ولا من مواعيدها بل إشترك فيها كعابد مخلص مع العابدين « غيرة بيتك أكلتني »

وكانت علاقة المسيح بالمجامع المحلية في المدن والقرى علاقة مواظبة وتوقير ، كما أن معظم تعاليمه كان يخصصها للمجمع .

فنقرأ في إنجيل متى الرسول : « وكان يسوع يطوف كل الجليل **يعلّم في مجامعهم** و يكرز ببشارة الملكوت » (مت ٤ : ٢٣) .

وفي إنجيل لوقا البشير : « ودخل المجمع حسب **عادته يوم السبت** وقام يقرأ » (لو٤ : ١٦) .

وفي إنجيل مرقس الإنجيلي ، يتضح أنه كان ينتظر حتى يأتي يوم السبت لكي يتسنى له أن يقول تعاليمه على الشعب المجتمع : « **ولما كان السبت** إبتدأ يعلّم في المجمع » (مر٦ : ٢)

وإنجيل يوحنا يوضّح لنا أن أهم وأعمق تعاليمه التي إختصت بسر الفداء والجسد والدم والحياة الأبدية إهتم أن يقولها في المجمع : « **قال هذا في المجمع** وهو يعلّم في كفر ناحوم » (يو٦ : ٥٩)

ولعل أوضح ما يثبت الأهمية التي كان يعطيها الرب لضرورة إلقاء التعاليم داخل الهيكل و لمجمع بصفتها المكانين المقدسين المهيئين للتعليم الإلهي ما جاء في إنجيل يوحنا

الرسول رداً على مهاجمة رؤساء الكهنة لتعاليمه « **أنا كلمت العالم علانية** ، أنا علمت كل حين **في المجمع وفي الهيكل** حيث يجتمع اليهود دائماً » (يو١٨ : ١٩، ٢٠)

ومن هذا يتضح إرتباط المسيح بروح المجمع والهيكل ، وإعتياده الحضور في المواعيد المحددة للصلوات والتسابيح ، ومشاركته القلبية للصلاة والقراءة ، وإستجابته لترؤسه للقراءة والوعظ والصلاة أحياناً . ومن حادثة يايرس نعلم مقدار الكرامة والإحترام اللتين كانتا للمسيح في أعين رؤساء المجامع « وإذا رجل إسمه يايرس قد جاء وكان رئيس المجمع فوقع عند قدمي يسوع وطلب إليه أن يدخل بيته » (لو٨ : ٤١) .

٣ ـــ المسيح يحول الطقس الميت إلى روح وحياة

ولكن المسيح باشتراكه في الصلاة وقيادته للوعظ والتفسير داخل الهيكل والمجمع لم يكن يهودياً إطلاقاً في نظر الكتبة والفريسيين ، لأن المسيح كان يعظ بسلطانه الشخصي وليس عن تعاليم تقليدية للربيين أو رؤساء الفريسيين . لأنه من الأمور التي كانت متّبعة بدقة أن لا يتكلم أحد إلاّ بما تعلّمه من معلمه ، وقد علّق المسيح نفسه على تقليدهم « يكفي التلميذ أن يكون كمعلمه » ، بل وكان على المتكلم أن يذكر المصدر التقليدي الذي أخذ عنه والربّي الذي تعلم على يديه .

ولكن المسيح كان يوجه فكر سامعيه أن تعاليمه هي من الله مباشرة ، لذلك نسمع إندهاش كافة المعلمين والربيين والفريسيين ورؤساء الكهنة من طريقته وأسلوبه « وتقدّم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلّم قائلين : بأي سلطان تفعل هذا ومن أعطاك هذا السلطان »(مت٢١ : ٢٣)وكان الشعب أيضاً مندهشاً من قوة هذه التعاليم وعظمتها « فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه لأنه كان يعلّمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة » (مت٧ : ٢٨، ٢٩).

فالمسيح لم يستخدم أسلوب المعلمين القدامى بل كان يتكلم عن الحق مباشرة كما هو، فكان كمن يفتح عالماً جديداً من الفهم والروح في قلوب سامعيه.

وبهذا نجد أن المسيح يضع أساساً جديداً للقراءة والتفسير والوعظ بل وللخدمة والصلاة وكل شيء دون أن يزحزح شيئاً من موضعه !! وهنا نجد بصورة سرية مبدعة أن المسيح يغيِّر الهيكل والمجمع إلى كنيسة، أو بمعنى آخر أن المسيح ينصِّر الهيكل والمجمع !!

فالأسفار هي الأسفار والنبوات هي النبوات والصلوات هي الصلوات والبركات هي البركات والبداية والختام هي البداية والختام، ولكن شتان بين تعليم الكتبة والفريسيين المتمسك بحروف الناموس ونوافل الشريعة المتعفنة « تحرزوا من خمير الفريسيين أي تعاليمهم » (مت١٦: ٦-١٢) وبين تعاليم المسيح التي بسلطان الله وبرهان الروح « لم يتكلم قط إنسان هكذا مثل هذا الإنسان » (يو٧: ٤٦).

ومن هذا الإنقلاب الكبير الذي أحدثه المسيح في صميم العبادة، بدأت صورة كنيسة العهد الجديد تأخذ ملامحها في قلوب التلاميذ وكل الذين تبعوه من كل قلبهم ...

فمع أن الصلوات والتسابيح بكل ترتيبها ونظامها مارسها المسيح مع تلاميذه داخل الهيكل والمجمع وفي مجالسهم الخاصة حتى آخر لحظة في خدمته « ثم سبَّحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون » (مت: ٢٦: ٣٠)، إلا أنها لم تكن بمألوفها القديم، إذ كانت قد بدأت تحوي في جوهرها شرارة إلهية جديدة ما عتمت أن صارت لهيباً مقدساً اضطرم يوم الخمسين على أقصاه فانبثقت منه الكنيسة بصورتها الإلهية الجديدة.

ولكن بالرغم من هذا التجديد الجوهري الذي أصاب العبادة اليهودية في الصميم بتعاليم الرب يسوع سواء الذي سلَّطه على الوصايا أو الصلوات أو الخدمات أو السجود، فالمسيح لم يبدُ غريباً على مواطنيه الأتقياء، فكافة القريبين منه والبعيدين عنه الأعداء والرؤساء الحاسدين وحتى الخدم شهدوا له ولتعاليمه الروحية.

فإنطباع تعاليمه في الشعب كان مريحاً مفرحاً جذاباً ... إذ تسمع أن « الجموع بُهتوا من تعليمه » كما شهد له السامريون وهم ألدّ أعداء اليهود « فآمن به كثير جداً بسبب كلامه وقالوا للمرأة إننا لسنا بعدُ بسبب كلامك نؤمن لأننا قد سمعنا ونعلم أن هذا هو بالحقيقة المسيح مخلِّص العالم » (يو٤: ٢١).

وكان رؤساء الكهنة فعلاً في حيرة عظيمة بسبب رصانة تعليمه ولم يستطيعوا أن يُخفوا هذه الحيرة « إلى متى تعلق أنفسنا ! » (يو١٠: ٢٤). وقد وضح التأثير الشديد الذي أحدثه تعليم المسيح على الأتقياء من المعلمين من حديث نيقوديموس وهو رئيس في الشعب وعضو السنهدريم « يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً » (يو٣: ٢). فلو كان إتجاه تعليم المسيح مخالفاً لروح الناموس، أو ضد روح العبادة، أو فيه أقل نشاز مع تقاليد الصلاة المتغلغلة في قلوب الشعب، لما استجاب أحد ولا لاقى هذا القبول العام...

كما أنه لو كانت تعاليم المسيح روحية خالصة متعالية عن مستوى العبادة والخدمات وأصولها الطقسية المألوفة والمحبوبة، لما استطاع أن يفهمها البسطاء ولما أقبل عليها الأتقياء، **ولكن كان المسيح في الواقع يجمع بين العبادة الشكلية بمظاهرها وطقوسها كما هي وبين العبادة الروحية بعمقها وحقها الإلهي في قوة وإنسجام ورباط صادق « كان يجب أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك »** (مت٢٣: ٢٣).

المسيح إذن كان يحقق بشخصه وبتعليمه إستمرار العبادة والصلوات والخدمات الإلهية سواء التي في الهيكل أو المجمع، إنما كان يدفعها أيضاً نحو الكمال والوضوح والحق.

كان همّ المسيح فقط أن يزيح عن العبادة المستقرة وعن الصلوات الرياء الديني والأحمال الصعبة التي أضافها الناموسيون على أكتاف الشعب، فكان بإستمرار يفرز الباطل الذي يتخللها ويدين التخريجات التافهة التي إستحدثها الفريسيون ويُسقط من الوصايا الإلهية كافة التقليدات التي دسَّها الشيوخ فأبطلوا بسببها وصايا الله وطمسوا جوهر الحق.

لقد حرر المسيح الناموس من بر الأعمال الإضافية التي إبتدعها الربيون وأفاضوا فيها حتى أخفوا معالم بر الله .

المسيح إستخلص الحقائق الإلهية المذخورة في العبادة والأسفار والتقاليد الأبوية المستقرة بإرشاد الله وإلهام الأنبياء والقديسين والمشرّعين ، وقدمها للشعب في حقيقتها الأولى وبنورها الإلهي الأصيل وفي معناها البسيط الواضح ، وأمدّها بسلطان الله وفعله المحيي ، وربط ربطاً سرياً وواضحاً بين هذه الحقائق وبين نفسه !! ... « **أما أنا فأقول لكم** » ... فظهر بلا أدنى شك **أن المسيح هو سر الأسفار وسر العبادة وسر الصلاة وهو أيضاً قوتها ونورها وحياتها ... وبشخصه فقط إنتقلت هذه كلها من العهد القديم إلى عهد جديد !!** .

فالمسيح في الحقيقة جاء مطابقاً للعبادة الصحيحة التي كان يمارسها مواطنوه وأهل جيله وزمانه ، لذلك قبلوه وفرحوا بأمثاله وأقواله وأفكاره لأنهم وجدوا في تعاليمه ما كان ينقصهم وما كانوا يتمنونه ، ووجدوا في شخصه وسلوكه وعبادته ما كانوا في أشد الحاجة إليه كمثلٍ حي يعيشون عليه « وفرح كل الجمع بجميع الأعمال المجيدة الكائنة منه » (لو١٣ : ١٧) .

ولكن في نفس الوقت لم يكن المسيح مرائياً ، ولا إلى لحظة ، فلم يصادق على إنحرافات العبادة وريائها التي كان يمارسها المدّعون والمراءون والمنتفعون والجهلة والمتعصبون ، لذلك كان غريباً أيضاً في أعين بعض إخوته وتلاميذه وفي وسط جيل معوج وشرير ، فحسدوه وقاوموه وعرقلوا أعماله وشككوا في أقواله وصادروا تعاليمه ، وأخيراً صلبوه ، فتم فيهم القول « إلى خاصته جاء وخاصته لم تقبله ... » (يو١ : ١١) لأنه « أحب الناس الظلمة أكثر من النور » (يو٣ : ١٩) .

ولكنه أضاف بصليبه وبموته وقيامته نوراً خلاصياً أبدياً على كل ما قال وعمل فكشف سر كل أقوال التوراه ومعاني رموزها ، وحقّق كافة وعود الله ، وبرهن بتجسده على حقيقة سكناه غير المنظور بين بني البشر ، وبموته شرح سر الذبيحة والتطهير والغفران ، وبقيامته أعلن قدرته اللانهائية ، وبإرساله الروح القدس أسس سر الكنيسة

على الأرض التي هي مثال جسده ، فنحن صرنا أعضاء المسيح من لحمه وعظامه كقول الرسول ، وحينما نجتمع معاً في بيته تلتحم الرأس على الأعضاء ويُستعلن لنا الله ...

٤ ـ سر الكنيسة كبيت الله

إن وصف الكنيسة بأنها « بيت الله » مأخوذ من قول الرب نفسه عن الهيكل ، لقد ورثنا من المسيح الشعور اليقيني بسكنى الله في الهيكل الذي هو الكنيسة الآن ، **لقد إرتاح الله قديماً أن يسكن مع الناس إنما بغير منظر وبكيفية سرية** ، إنما بواقعية فائقة للحواس والعقل . لقد قبل شعب إسرائيل هذه الحقيقة قديماً بيقين يفوق كل منطق وعقل ولا يقبل الجدل ولا مجرد السؤال ، ولكننا ورثناها مضاعفة بسبب ظهور المسيح عياناً .

هكذا كان تدبير الله منذ البدء أن يبني الوجدان الإنساني بناءً عملياً محكماً على قبول شركة السكنى الواقعية مع الله ، وسهّل الله للإنسان بكافة الطرق قبول الإحساس الفكري والروحي بإلتحام الأبدي بالزمني وغير المحدود بالمحدود وإدراك الله كشخص كامل يُدرَك ولكن لا يُدرَك كماله ، يحل فعلاً بين الناس ويسكن وسطهم ويقبل دعاءهم ويسمع صلاتهم ويستجيب توسلاتهم ، وهذا هو جوهر العبادة وسرها العظيم .

فسكنى الله في قدس الأقداس هو من حيث طبيعته سر، ويمكن أن نسميه السر الذي ينبعث منه كل سر، هو سر وجود الكنيسة وسر قوتها وهو يشرح إمكانية وجود الأسرار في الكنيسة ويفسر طبيعتها وفعلها ! ...

وتأسيس الشعور اليقيني بسكنى الله في بيته جعل لبيته رهبة وجلالاً ، وأضفى على البيت قداسة ليس بالنسبة للصلوات وحسب بل وحتى أبوابه وأعتابه مقدسة وحتى ترابه صار أيضاً مقدساً ، وكل من يدخله يشعر أنه داخل ليتقابل شخصياً مع الله

و يتراءى أمام وجهه .

كما أن حوادث ظهور الله بالفعل ودعوته وحديثه لأشخاص آباء كثيرين داخل الهيكل مثل موسى و يشوع وصموئيل وداوود وزكريا و بولس ، نبهت الشعور الباطني للإنسان الداخل إلى بيت الله لإحتمال ظهور الله له في أي لحظة إما باطنياً أو علنياً ، ومن هنا صارت تأخذ الإنسان رعدة عند وقوفه أمام هيكل الله ...

وإن كان بعض الناس قد إنغلقت قلوبهم دون هذا الإحساس بسبب ضعف إيمانهم ورخاوة حياتهم وقساوة قلوبهم ، ولكن هذا لم يمنع أن يتحقق الكثيرون من صدق رؤيا إشعياء النبي « رأيت السيد جالساً على كرسي عالٍ ومرتفع وأذياله تملأ الهيكل والسيرافيم واقفون فوقه ، لكل واحد ستة أجنحة بإثنين يغطي وجهه و بإثنين يغطي رجليه و بإثنين يطير. وهذا نادى ذاك وقال قدوس قدوس قدوس رب الجنود مجده ملء كل الأرض فإهتزت أساسات العتب من صوت الصارخ وامتلأ البيت دخاناً» (إش٦ : ١-٤) .

٥ ـــ آداب الصلاة داخل الكنيسة

كل هذا هيأ المكانة السامية لبيت الله بالنسبة لحياة الإنسان وسلوكه داخل الكنيسة .

ومن هنا نشأت آداب الصلاة داخل الهيكل وشروط العبادة ...

وكل ما اهتمت به الدسقولية (تعاليم الرسل) المعتبرة وثيقة النظام والترتيب الرسولي للعبادة داخل الكنيسة ، هو في الواقع إمتداد لهذه الحقيقة السامية : أن الله ساكن في بيته .

ـــ فتقبيل أبواب الكنيسة ، في الدخول إليها والإنصراف منها ...

ـــ والسجود على عتبة الكنيسة (*) ،

ـــ ثم السجود أمام الهيكل وتقبيل تراب الأرض ،

ـــ ثم تقبيل يد الكاهن ، وطلب بركته ،

ـــ ثم تقبيل ستر الهيكل ثم الأيقونات المقدسة ، ثم ذخائر القديسين إن كانت موجودة ،

ـــ ثم الوقوف بصمت كامل وورع مطلق .

هذا كله وإن بدا لبعض الناس أنه ممارسات عتيقة وعبادة نافلة ، فهي في الحقيقة ميراث روحي ثمين جداً بالنسبة للنفوس التي آمنت أن الله يسكن في بيته وأن لبيته ينبغي التقديس كل الأيام .

وداود النبي الذي تشرف أن يكون المسيح من نسله ، والذي شهد له الله بعد الفحص والإمتحان أن قلبه كان حسب قلب الله ، والذي شهد له المسيح أيضاً أنه قال مزاميره بالروح القدس « داود قال بالروح » ؛ كان يطرح نفسه على عتبة بيت الله عند دخوله وهو ملك ... مرنماً :ـ

« فرحت بالقائلين لي إلى بيت الرب نذهب » (مز١٢٢)
« وقفت أرجلنا في ديار أورشليم » (مز١٢٢)
« أُدخلوا أبوابه بالفرح ودياره بالتسابيح » (مز١٠٠)
« إفتحوا لي أبواب البر لكي أدخل منها » (مز١١٨)
« هذا هو باب الرب والصدِّيقون يدخلون فيه » (مز١١٨)
« إخترت أن أُطرح على عتبة بيت الله » (مز٨٤)
« أما أنا فبكثرة رحمتك أدخل بيتك وأسجد أمام هيكلك المقدس » (مز٥)
« لبيتك ينبغي التقديس يارب طول الأيام » (مز٩٣)

وهذه هي نفس الصلوات التقليدية المسلَّمة إلينا لنتلوها عند الدخول في الكنيسة

(*) وفي الأيام الممنوع فيها السجود التي هي ليالي الآحاد وأيامها وأيام الخماسين وليالي الأعياد السيدية الكبار وعددها سبعة ، و بعد التناول ، يُستبدل السجود إلى الأرض بالإنحناء فقط بدون إحناء الركب ، أي يطأطيء الإنسان رأسه حتى تصل يداه إلى ركبتيه و يضعهما عليهما .

والسجود فيها .

ومن هنا أيضاً نفهم تشديد الدسقولية على ضرورة التبكير والذهاب لبيت الله في أول ساعة من النهار وفي الغروب آخر النهار لتقديم العبادة اللائقة ، فهذا الترتيب يستمد قوته ومعناه من وجود الله في الكنيسة . فالإنسان يبدأ يومه بالسجود في حضرته و ينهي يومه بالإعتراف والشكر أمامه .

[ولا تتأخر عن الكنيسة بل بكّر إليها قبل كل شيء ، وعشية إجتمع هناك أيضاً ، واشكر الله على ما أنعم به عليك لأجل قوام حياتك]

الدسقولية ــ الباب الثامن

فصلاة باكر وعشية التي تُقام في الكنيسة ليست طقساً ثانوياً ، كما يراها الناس في هذه الأيام حتى أهملوها كليةً وقصَروها على أيام تقديم الذبيحة ــ هذا خروج عن معنى العبادة جملة ــ ، فطقس بخور باكر وعشية هما بذاتها خدمة وليتورجيا وذبيحة ، وتقديم الصلاة فيها هو لإعتبار وجود الله في الكنيسة وليس لوجود الشعب من عدم وجوده ، فالكنيسة ملزمة أن ترفع بخور باكر وعشية لله الساكن فيها وإلا إذا أغلقت أبوابها فهي تعترف ضمناً أن الله ليس موجوداً لا داخلها ولا خارجها ! ...

الدسقولية تلزم الأسقف أن يقيم هذا الطقس يومياً وتلزم الشعب بالحضور ــ (على قدر الإستطاعة) لئلا يتفسخ جسم المسيح ، فإلتئام الشعب داخل الكنيسة كفيل أن يهيىء في الشعب وحدة القلب والمحبة والإيمان ، كما يربط الشارد والوارد ويهيىء مجالاً للخدمة لا ينتهي ...

[علّم يا أسقف الشعب وأْمرهم بملازمة البيعة كل يوم بكرة وعشية لكي لا يتخلفوا عنها البتة بل يجتمعون إليها كل وقت (مفروض) فلا تنقص الكنيسة بتخلفهم عنها ولا تدع جسد المسيح ناقصاً من أعضائه ، لم نذكر هذا من أجل الكهنة فقط بل ولأجل الشعب ليلتفت كل واحد إليه ... لا تقتلعوا من مخلصنا ما له من الأعضاء ولا تفرقوا جسده ولا تجعلوا الأمور الجسدانية عندكم أفضل من كلام الله بل إجتمعوا كل يوم بكرة

وعشية إلى البيعة لتصلّوا وترتلوا .]

الدسقولية ــ الباب العاشر

ومن التقليدات الموروثة من الهيكل قديماً والتي لا زالت سارية حتى الآن في كثير من كنائس الصعيد وفي الأديرة أن الكاهن يدخل الهيكل بقدمين عاريتين تماماً ، توكيداً لوجود الله ــ وقدسية المكان ــ الذي في حضرته ينبغي للإنسان أن يخلع نعليه ! ...

كما أن عادة الدخول إلى الهيكل من الجانب الأيمن بالرجل اليمنى والخروج من الجهة اليسرى بالرجل اليسرى ، و يكون خروج الكاهن أو الشماس بظهره ووجهه يظل دائماً نحو الهيكل ، هذا أيضاً تقليد خشوعي موروث تكريماً لله الساكن في هيكله (*) ...

أما تقسيم الخوارس داخل الكنيسة فهو أصلاً طقس إلهي أُمر به موسى عندما جعل خيمة الله (قدس الأقداس) في الداخل ومن بعدها خيمة اللاويين ومن بعدها خيمة إسرائيل ، وهو نفس النظام الذي طُبّق في الهيكل : قدس الأقداس ، رواق الكهنة ، رواق إسرائيل ، رواق الأمم .

وكل هذا الترتيب قائم أصلاً على وجود الله وما ينبغي من التصرف إزاء قداسته ، فكما كان ممنوعاً أن يقترب الشعب من قدس الأقداس لا لشيء إلا لهيبة الله وقداسته ، وهو نفسه الذي أمر بذلك ، كذلك إعتبرت الكنيسة أن الهيكل مخصص لتقديسه حيث تقام الذبيحة التي تحمل سر حضوره وقداسته بصورة ملموسة ، لذلك حرّمت الكنيسة أن يدخل الهيكل إلا الكهنة والشمامسة فقط ، بصفتهم مختارين من قبل الله لتوصيل صوته وخدمة أسراره للناس ...

(*) كذلك أيضاً خروج الشعب من باب الكنيسة يلزم أن يكون بظهر الإنسان وذلك في آخر خطوة حتى يخرج الإنسان ووجهه نحو الله الساكن في هيكله ، ورأسه منحنٍ .

٦ ــ الصلاة والتسبيح جزء حي من طبيعة الكنيسة

التسبيح بدأ داخل الكنيسة منذ أول يوم إجتمع فيه المؤمنون معاً . وسفر الأعمال يصف لنا صورة للحياة اليومية في الكنيسة منذ أول يوم ! « وكانوا كل يوم يواظبون في **الهيكل** بنفس واحدة وإذ هم يكسرون الخبز في **البيوت** كانوا يتناولون الطعام بابتهاج و بساطة قلب **مسبّحين الله** » (أع٢:٤٦)

أ ــ خدمة الصلاة داخل بيت الله تدخل كعمل يومي :

ومن الملاحظات الهامة التي ينبغي التدقيق فيها ، أن الجماعات المسيحية الأولى ظلت مدة توظب على ذهابها إلى الهيكل لتتمم هناك صلواتها الطقسية فيه ، حسب أصول العبادة والصلاة الإلهية المتبعة في الهيكل في ساعاتها المحددة . ولكن في نفس الوقت كانت تجتمع سراً في بعض البيوت و بالأخص في العلية التي في بيت القديس مرقس الإنجيلي (أع١:١٤) ، لتقيم صلوات أخرى مسيحية جنباً إلى جنب مع الصلوات التقليدية الهيكلية ، وخصصت يوم الأحد لإقامة صلاة كسر الخبز أي سر الإفخارستيا . وهذا كله كان يتمشى مع أصول الحياة الطبيعية حسب الطقس اليهودي . لأن صلوات المزامير كانت تقام في ساعاتها المحددة كل يوم في الهيكل ، أما طقس كسر الخبز فلم يكن أصلاً مكانه الهيكل إنما كان يُقام في كل بيت . علماً بأن الجماعات لمسيحية الأولى كانت تعتبر وجودها وصلاتها في الهيكل يدخل في صميم حقوقهم بإعتبار أن الهيكل كان في عُرف المسيح : « بيت أبي بيت صلاة »

ومن ذلك نرى أن إجتماع الجماعة المسيحية مع الرسل في الهيكل ، و بالذات في رواق سليمان (أع٣:١١) ، حيث كان يجتمع معهم المسيح سابقاً ، لم يكن غريباً في بادىء الأمر قبل أن تستجمع السلطات الدينية قوتها وتملك زمام شعبيتها لمطاردة كل

من آمن بالمسيح .

والذي يهمنا في الأمر أن الجماعة المسيحية إرتبطت بخدمة الهيكل اليومية ، **فدخلت الصلوات والتسبحات بالمزامير ورفع البخور والقراءة في الأسفار والوعظ والتفسير، في صميم حياة المسيحيين ، كجزء لا يتجزأ من عبادتهم اليومية قبل أن ينفصلوا نهائياً عن الهيكل و يبنوا لأنفسهم كنائس خاصة بهم يتممون فيها صلواتهم .**

ب ــ رفع البخور يدخل كعمل يومي :

كذلك فمن الملاحظات الهامة التي ينبغي التوقف عندها كثيراً هي أن طقس إقامة رفع البخور الذي احتفظت به الكنيسة كما هو، كان مُعتبَراً كطقس يختص بالصلاة اليومية لا يمت بصلة إلى الذبائح الرمزية التي وجب إلغاؤها بعد ذبيحة المسيح ، لأنه كان يختص بالعبادة القلبية ؛ لأن تقدمة البخور لله كانت معتبَرة ذبيحة شكر وصلاة خالية من كل رمز، حتى أن يوحنا الرسول في سفر الرؤيا رأي هذه الصلوات عينها وهي في الأبدية مرفوعة مع البخور بيد الملاك الخاص المنوط بتقديمها لله ، الذي ظهر مرة بوضوح وعلانية لزكريا الكاهن وقت رفع البخور ! ...

ووقت رفع البخور في الهيكل كان محدداً بظهور النور في الصباح وإشعال المصابيح في المساء : منفصلاً إنفصالاً تاماً عن تقديم الذبائح والنذور . « وتصنع مذبحاً لإيقاد البخور... وتجعله قدام الحجاب الذي أمام تابوت الشهادة قدام الغطاء الذي على الشهادة حيث أجتمع بك فيوقد عليه هارون بخوراً عطراً كل صباح حين يصلح السُرُج يوقده ، وحين يصعد هارون السرج في العشية يوقده بخوراً دائماً أمام الرب في أجيالكم ... لا تُصعدوا عليه بخوراً غريباً ولا محرقة أو تقدمة ولا تسكبوا عليه سكيباً » (خر٣٠:١ــ٨) .

وكان الشعب يحضر في الهيكل ليقدم الصلوات لله مع تقديم البخور وقت ظهور النور في الصباح ووقت إشعال المصابيح في المساء ، كما هو مذكور في يشوع بن سيراخ (٥٠:١٧) ، وفي إنجيل لوقا : « وفيما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة

الكهنوت أصابته القرعة أن يدخل إلى هيكل الرب و يبخّر، وكان كل جمهور الشعب يصلّون خارجاً وقت البخور، فظهر له ملاك الرب واقفاً عن يمين مذبح البخور... وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجبين من إبطائه في الهيكل...» (لو١ : ٨—٢١) .

هكذا استوعبت الكنيسة رفع بخور باكر وعشية بكل ملابساته ومعانيه الروحية العميقة :

أولاً : فهو، وقبل كل شيء، صلاة وتسبيح وشكر لله عند إشراق نور الصباح في بدء النهار، وعند إيقاد نور المصباح في بدء الليل، باعتبار أن هذه الفريضة دهرية كقانون صلاة جماعي بعيداً عن كل الطقوس الشكلية والرمزية . وقد مارسه المسيح عندما كان يذهب للهيكل و يصلي « ثم سبّحوا وخرجوا إلى جبل الزيتون »(*) (مت٢٦ : ٣٠)

ثانياً : ظهور الملاك لزكريا أثناء رفع البخور ليعلن له استجابة طلبته التي كان يقدمها لله باستمرار، يبين لنا قيمة رفع البخور والصلاة الرسمية وحضور الجماعة المؤمنة معاً بالنسبة لتقديم طلباتنا واستجابتها . فهذا الطقس المقدس المحدد بوصية الله والمفرز للصلاة هو وقت مقبول حقاً يسمع فيه الله و يستجيب (*) .

ثالثاً : ظهور الملاك عن يمين مذبح البخور توضيحٌ ما بعده توضيح لحقيقة حضور الملائكة أثناء رفع البخور لقبول صلواتنا وتقديمها لله أو مجيئها لإعلان مشيئة الله لنا . فهذا الطقس هو في الحقيقة طقس سمائي .

ولا تزال الكنيسة القبطية تحتفظ بلحن ختامي لتسبحة باكر وعشية فيه تخاطب الملاك الحاضر للتسبحة هكذا :

(*) تسبحة عشية العيد كان يُتلى فيها مزامير١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧ وتُختم بالمزمور المُسمى بمزمور (هاللي الكبير) « إعترفوا للرب » وفيه يُقال « رتبوا عيداً » (مز١١٨)

(*) إرجع لصلاة سليمان بخصوص سماع صلاة الذين يصلون في الهيكل (١مل٨ : ٢٢—٥٣)

« ياملاك هذا النهار (أو الليل) الطائر إلى العلو بهذه التسبحة ،
اذكرنا لدى الرب ،
ليغفر لنا خطايانا . » (ختام الثيئوطوكية الواطس)

والملاحظ أن الكنيسة اليونانية لا تزال تقرن صلاة رفع بخور عشية بتسبحة « النور البهي » التي سيأتي ذكرها .

أما الصلوات والتسبحات التي يشترك فيها الشعب قبل رفع البخور، فلا تزال تنحصر معظمها في التسبيح بالمزامير في كافة الكنائس وسيأتي ذكرها بالتفصيل .

قِدَم إستخدام البخور في الكنيسة :

ويحسن هنا الإشارة إلى أن ما يجزم به العلماء جميعاً ، و بالأخص المحدثون ، بخصوص دخول طقس رفع البخور في الكنيسة من بعد مجمع نيقية فقط وأن لا وجود ولا ذكر لإستخدام البخور في الكنيسة قبل القرن الرابع ، مستدلين في ذلك على خلو صلوات القديس سيرابيون السرائرية من ذكر البخور، وكذلك كافة كتابات الآباء الرسوليين ، ومعتمدين بالأكثر على أقوال إيرينيئوس وترتليان التي تحمل إستنكاراً للبخور أو حتى المتاجرة فيه ؛ فهذا كله لا يستطيع أن ينفي وجود طقس رفع البخور في الكنيسة القبطية منذ القرن الأول ، لأن هناك فرقاً شاسعاً بين معنى البخور وإستخدامه بالنسبة للأوضاع الوثنية التي كان يقاومها إيرينيئوس وترتليان ، و بين معنى البخور واستخدامه بالنسبة للعبادة المسيحية كما تقبلته الكنيسة بكل مفهومه الإلهي من التوراة واستلمته كخدمة حية من الهيكل .

علماً بأن الكنيسة القبطية إستقرت طقوسها وصلواتها وألحانها منذ أول دخول المسيحية فيها . وكتاب الدسقولية ، الذي تحدد زمن إستخدامه ككتاب طقسي في الكنيسة القبطية بمنتصف القرن الثاني ، يذكر رفع البخور كطقس عالي الكرامة جداً . فقد نصت الدسقولية أن الذي يبخر الهيكل هو الأسقف بنفسه وليس الكاهن ، فبعدما يدور حول المذبح ثلاث دورات معطياً الكرامة للثالوث الأقدس يسلم المبخرة للكاهن ليطوف بها الكنيسة . (دسقولية الباب ٣٨) .

ولنا في كتابات العالم والكاتب الكنسي هيبوليتس إشارة واضحة لا تحتمل النكران بخصوص إستخدام البخور في الكنيسة ، وهيبوليتس عاش في القرن الثاني (١٧٠ــ٢٣٦م) ، ومن أقواله عن الأيام الأخيرة وإنخداع العالم وراء الضلال :

[لاحظوا صعوبة الأيام التي سوف تأتي على الذين في القفر والذين في المدينة سواء ... فالكل سيبكي بكاءاً عظيماً و ينتحب بشدة ... والكنائس أيضاً ستبكي وتنتحب لأنه لا تكون **تقدمة ولا بخور** يمكن رفعها ولا خدمة مقبولة يمكن أن تُقدَّم لله ، فتصير الهياكل في الكنائس فارغة مثل كشك حراسة في كرم (ناطور الكروم) . والجسد والدم المقدسان لا يظهران في تلك الأيام ، والخدمة العامة لله تتوقف والأبصلمودية (ألحان المزامير) تكُفُّ ولا تُسمع قراءة الأسفار، وإنما يوجد فقط ظلام للناس و بكاء فوق بكاء ونحيب فوق نحيب .] (*)

كما يحتفظ لنا تاريخ البطاركة بحادثة من القرن الثاني يُشار فيها إلى وجود نار و بخور وشورية في داخل الكنيسة أثناء الصلاة ، وذلك في حادثة إعلان البابا ديمتريوس البطريرك (سنة ١٩١م) عن بتوليته برغم تزوجه ووجود زوجته معه في الكنيسة فإنه استدعى زوجته أمام الشعب أثناء الصلاة بأمر الملاك وأفرغ نار الشورية في كُمّه وعلى طرحتها أمام الشعب ودار بها حول الكنيسة ، آيةً أنهما متزوجان ولكن لم ينحلّ ختم طهارتها . (إرجع لتاريخ البطاركة)

جـ ــ خدمة السواعي تدخل كعمل يومي :

ولكن لم تكن الصلوات في الهيكل مقصورة على صلاة باكر وعشية كبدء للنهار وبدء لليل ولكن من سفر الأعمال يتضح مواظبة الجماعة المسيحية ومعهم الرسل أيضاً في حضور صلوات سواعي النهار: « وصعد بطرس و يوحنا معاً إلى الهيكل في ساعة الصلاة التاسعة » (أع٣: ١)

ومن الوثائق القديمة جداً يتضح أن الكنيسة ظلت متمسكة بصلوات سواعي النهار أي الثالثة والسادسة والتاسعة ، كما ورد في فصل ٨: ٣ من الديداسكاليا أي تعاليم

(*) *Hipol., works of : XXXIII, XXXIV, A. N. F., Vol. V*

الرسل ، المعتبرة أصلاً من مكتوبات ما بين سنة ١٠٠ ــ ١٥٠م ، ولو أن ما جاء في الديداسكاليا يقول فقط بإقامة ثلاث صلوات بالنهار، إلا أن العلامة ترتليانوس يوضح تحديد هذه الساعات كما كان متبعاً في مقالته عن الصلاة (On Prayer, 25)

ومن الأمور التي ينبغي إعتبارها جداً أن صلوات المزامير التي كان الشعب يشترك في تقديم خدمتها في الهيكل ، كانت تُقدَّم كتسبيح بلحن منتظم على أصول دقيقة ، لأن المزامير في حقيقتها أشعار موزونة كتبها داود النبي بإلهام الروح القدس .

وهنا أيضاً يلفت نظرنا في العهد القديم أن الاسفار الشعرية ألهمها الروح القدس لكاتبيها بأسلوبها الشعري . وفي الحقيقة نلاحظ أنه في معظم الأحوال التي كان ينعم فيها الله بحلول روحه القدوس على الناس العاديين أو الأنبياء ، كانوا يتكلمون كلام الله على صورة شعر موزون و ينطقونه بقوة الإلهام كنشيد أو تسبيح وهم تحت تأثير الروح ، كتسبحة موسى مع بني إسرائيل لما عبروا البحر الأحمر، وهي غنية بالمعاني السرية التي تشير إلى نجاة الكنيسة من العالم . لذلك نسمع عن هذه التسبحة في سفر الرؤيا باعتبار أنها تسبحة الخلاص الأبدي ، لذلك أخذتها الكنيسة القبطية أساساً لتسبيحها . كذلك نشيد موسى في وداعه الأخير لبني إسرائيل عند قرب موته ، وهي من الأناشيد الثمينة جداً التي مطلعها :

« أنصتي أيتها السموات فأتكلم ، ولتسمع الأرض أقوال فمي .
يهطل كالمطر تعليمي ، وكالندى يعطى كلامي كالطلّ على الكلأ . وكالوابل على العشب ،
إني باسم الرب أنادي ، إعطوا عظمة لإلهنا ... »

(تث ٣٢ : ١ ــ ٤٣)

ونشيد دبورة قاضية إسرائيل الذي قدمته كتسبيح بصوت ترنيم مع آلة موسيقية ، الذي مطلعه :

« أنا للرب أترنم أزمّر للرب إله إسرائيل ...
إستيقظي إستيقظي يا دبورة

إستيقظي إستيقظي وتكلمي بنشيد (قض ٥: ١-٥)

ومن كلمات هذا النشيد نلمح أن دبورة كانت تتكلم تحت تأثير الروح القدس. فالجسد كان في شبه نوم، لكن روحها كانت في يقظة ووعي...

وبقية الأسفار الشعرية (*) وبالأخص: سفر المزامير كله وسفر نشيد الأنشاد كله وبعض النبوات الهامة التي لأشعياء النبي يظهر فيها كيف يخضع الوزن الشعري للإلهام المباشر وتتمشى النبوة مع النشيد ويرتفع الغناء والتسبيح إلى حالة وحي ونطق بالروح القدس...

ء ـ خدمة التسابيح تدخل كعمل يومي ضمن خدمة الأسرار:

وهذه الحقيقة تهمنا جداً من جهة التقليد الكنسي، لأنه يظهر فيها بوضوح العلاقة الوثيقة التي بين التسبيح وحلول الروح القدس.

فالتسابيح التي إستلمتها الكنيسة من الهيكل قبل أن تنسلخ نهائياً من الهيكل وتستقل عن العبادة اليهودية لا تزال تمارَس بعضها، باعتبار أنها إستمرار للنبوة والإلهام وحلول الروح في العبادة والخدمة الإلهية. إنما تقدمها الكنيسة بروح جديدة تناسب إنكشاف كل الرموز وظهور الخلاص وتتميم كل المواعيد (*).

فالتسبيح في الكنيسة، حينما يمارَس كخدمةإلهية وصلاة، يتحقق فيه عمل الروح القدس بصورة عملية فائقة، وكل الذين يسبِّحون من قلوبهم في الكنيسة يعرفون هذه الحقيقة، لذلك فالتسبيح في الكنيسة محسوب من صميم «الليتورچيا»، أي الخدمة الإلهية، باعتبار أنها تُقدَّم بالروح.

أما رفع البخور الذي يصحبها في الصباح وفي المساء فهو محسوب بحد ذاته «ذبيحة» مرفوعة لله بالصلاة خلواً من قرابين أو أية تقدمة أخرى، وهذا واضح جداً منذ البدء، إذ أن الله أمر أن يسمى المكان الذي يُرفع من فوقه البخور «مذبحاً»، مع

(*) الأسفار الشعرية تمثل ثلث أسفار العهد القديم

(*) لذلك نسمع كثيراً في بداية التسابيح تلميحاً واضحاً إلى هذا التحول في مضمون التسبيح وفي جوهره بعبارة «سبّحوا للرب تسبحة جديدة»

أنه لا يُذبح عليه شيء البتة، ودعاه «مذبحاً للبخور» فكان يقدَّم صباحاً ومساءً منفرداً عن كل الذبائح الدموية الأخرى.

من هذا ينبغي أن نتيقن أن التسابيح والألحان التي تقدمها الكنيسة مصحوبة برفع البخور، هي في حد ذاتها ذبيحة حقيقية يلزم أن يكون لها إعتبارها الخاص والتدقيق اللائق بها، بإعتبار أن الروح القدس يحل ويشترك في هذه الذبيحة الكريمة «لتستقمْ صلاتي كالبخور قدامك، ليكنْ رفع يديَّ كذبيحة مسائية» (مز ١٤١)

٧ ـ الكنيسة تصبغ ألحانها بالصبغة اللاهوتية

لو دققنا لوجدنا أن كافة أنواع التسبحات والألحان في الكنيسة منحصرة في جمل إيمانية وعبارات عقائدية لاهوتية، تحمل في جملتها صورة كاملة لفكر الإنسان وإيمانه عن طبيعة الله كنوع من الشهادة العلنية ينطقها الإنسان بالترنيم والغناء منفعلاً بالروح، **أولاً**: كشريك حقيقي في هذا الإيمان.
ثانياً: كمتعطش وجائع لهذا الحق الإلهي!!

والذي يجعل التسبيح والألحان المسيحية فائقة في أثرها وتعمُّقها في النفس، هو كونها تدور حول ظهور واستعلان رحمة الله ومحبته القوية، مجسَّمة وملموسة في شخص يسوع المسيح إبنه الذي ذُبح على الصليب من أجل الخطاة والمنبوذين، فالتسبيح في الكنيسة يُعتبر أيضاً استجابة إنفعالية بالروح لعمل الله ومحبته. **فهو حب مقابل حب، وهتاف من عمق الروح كردٍّ فعل لصنيع الله الذي تمَّ مع الإنسان**. لذلك ما أكثر كلمة «آمين» وكلمة «هلليلويا» وكلمة «المجد لله» في التسابيح.

ولكن الذي يجعل التسبيح في الكنيسة حاراً بالحقيقة وملتهباً بالروح هو حضور المسيح غير المنظور في وسط المسبِّحين، والذي يمهِّد بالفعل بعد ذلك لحضوره المنظور

وسط الكنيسة معلّناً في سر الخبز والخمر على المذبح ...

فالتسبحة والبخور والصلوات التي تسبق تقديم القداس تُعتبر ذبيحة قائمة بذاتها ، فهي تعتمد على تقديم القلب ومشاعره بعبارات الحب والإعتراف لله ، إلا أنها بالإضافة إلى ذلك لازمة جداً للإفخارستيا باعتبارها مرحلة مهمة لإشعال الروح في الداخل كمصباح متَّقد يستقبل العريس ظاهراً ، الذي سيدخل النفس دخولاً محققاً بسر القربان ! ...

في التسبحة يأتي المسيح ويحضر وسط الكنيسة فينير ويلهب القلوب ، وبالقربان يدخل كل قلب يكون قد اشتعل واستنار !! ، في التسبحة تُعلَن محبة الإنسان علناً ، كاعتراف . وفي القربان تُعلَن محبة الله جهاراً ، كفداء . ولكن يظل الله متفوقاً بحبه !! .

[ليس ولا واحد مستحقاً ، ولكن نتطلع فقط لصلاحك ، لذلك أرفع صوتي إليك]

(قداس القديس يعقوب الرسول)

ومن أمثلة التسبيح الخشوعي ذي الصبغة اللاهوتية في الكنيسة الأولى ، تسبحة قصيرة للقديس سرابيون أسقف مدينة أتميوس **Thiumius** (تِمَيّ الأمديد الآن) وهو تلميذ لأنبا أنطونيوس وصديق حميم للقديس أثناسيوس الرسولي ، وهذه التسبحة وردت في كتاب صلواته الخاصة :

[إنه لائقٌ وحقٌ أن نحمدك ونسبحك ونمجدك ، أيها الآب غير المخلوق ، للإبن الوحيد يسوع المسيح ، نسبحك يا الله أنت غير مخلوق وغير المفحوص والفائق عن التعبير بالكلام ، الذي لا يحيط بمعرفتك أي المخلوق قط ،
نسبِّحك أنت المعروف لإبنك وحده الوحيد الذي بواسطته يمكن أن يُنطق بك و يُعبَّر عنك وتُعرَف عند الطبيعة المخلوقة ، نسبِّحك يامن تُعرف وحدك للإبن وتعلن كل مجده للقديسين ... نسبِّحك أيها الآب غير المنظور يامن له وحده عدم الموت ، أنت ينبوع الحياة ، ينبوع النور ، ينبوع النعمة والحق .

يامحب الإنسان ، يامحب الفقراء ، يامن صالحت نفسك للجميع ، وجذبت الكل لنفسك بمجيء إبنك المحبوب]

٨ ــ القيمة المذخرة في التسبيح ذي الصبغة اللاهوتية

والتسابيح في الكنيسة تطورت عن عهدها الأول ، فقد اغتنت وفاضت بأعاجيب الميلاد البتولي والصليب والقيامة وأسرار حياة المسيح ومعجزاته ، وانكشاف أسرار التدبير الإلهي والثالوث المقدس ومجيء الروح القدس . هذه لما دخلت اللحن رفعت درجته الروحية رفعاً شديداً ، رفعته فوق ذاته ، أي فوق التعبير اللفظي ، بل وفوق المعقول ...

فقد صار اللحن في الكنيسة بمثابة جناح تطير عليه الروح لتعبر فوق كل الخليقة فتطل على أسرار الخلود ...

أسرار المسيح كلها يمسكها اللحن ويتشبث بها التسبيح تشبثاً سرياً يفوق كل قوة بشرية ، ومن تلاوتها تتشبع روح الإنسان بتوسط الروح القدس ، فالذي يمتلىء وجدانه باللحن يمتلىء بالسر الذي يقوله .

فلحن الميلاد مثلاً (*) ، حينما ينسكب في نفس السامع ينسكب معه سر الميلاد وقوته ... وذلك على شرط أن يُقدَّم اللحن بأقصى إمكانيات الحب والإخلاص والعبادة . في هذا المعنى تماماً عاش الآباء الأُول وهذه هي إحدى الشهادات :

[وحينما يغتذي الإنسان و ينمو باستمرار في هذه المراعي (أي المزامير بالنسبة للنفس العطشانة الجائعة لله) ، يأخذ لنفسه أفكار المزامير و يسبِّح بها مرنماً من عمق أعماق قلبه ، ليست كأنها من تركيب مؤلفها ولكن كأنها من نطقه هو

(*) لحن مطلعه (بي چين ميسي)

وصلاته الخاصة ، و يعتبرها موجَّهة إلى نفسه ملتفتاً إلى كلماتها لا بإعتبارها كأنها تحققت في زمانها مع النبي الذي قالها ولكن بإعتبارها أنها تتحقق وتتم يومياً فيما يخصه هو... لأنه هكذا تصبح الأسفار المقدسة مفتوحة أمامنا بوضوح أكثر وكأنما شرايينها ونخاعها منفتحة علينا ، وذلك حينما تصبح خبراتنا متوقفة على معانيها ، تترقبها وتنتظرها . ومعاني الكلمات تتكشف لنا لا كمجرد عرض بالفهم ولكن بالبرهان العملي .

لأنه حينما يكون لنا نفس الفكر الذي ينطوي عليه المزمور، ثم ننشده كما كُتب ، إنما بالخبرة العملية ، نصير مثل الذي كتبه فنتوقع حدوث معناه ، لا مجرد أن نتبعه بالذهن .

وإذ نحصل على قوة الكلمات دون أن ننشغل بفحص معناها كثيراً نذكر ما حدث لنا وما يحدث لنا عندما نسبِّح بها ، فنتفكر فيما قد جلبه علينا إهمالنا ، وما فُزنا به بسبب نشاطنا ، وما منحته لنا العناية الإلهية ؛ وما حُرمنا منه بسبب دفع الشيطان لنا . وما ضيَّعه النسيان ، وما جلبته الضعفات البشرية ، وما خُدعنا فيه بسبب جهل الفكر .

هذه المشاعر كلها نجدها مشروحة في المزامير ، حتى أننا نرى فيها كل ما يحدث لنا كأنه في مرآة فندركها بالأكثر كما من معلم ، فلا تعود الكلمات التي ننطقها مسموعة فقط بل ومنظورة أيضاً ، ليست كواقعة في حدود الفكر وحسب بل مزروعة في صميم الأشياء ، فنتأثر من أعماق قلوبنا ، ولا نعود نقف عند المعنى المكتوب بالقراءة وإنما نبلغ إلى ترقُّب حدوثها في صميم خبرتنا .

وهكذا يبلغ عقلنا إلى الصلاة عديمة الفساد ... التي يبلغها الإنسان لا إعتماداً على تصور الأشياء ـ ولا بالكلام ولا بالنطق ، وإنما بإحتفاظ غرض العقل متَّقداً بحرارة ، مع فَرغة القلب من كافة المشاعر الأرضية في نشاط الروح دون إعتماد على الحواس أو شيء منظور ، ساكباً نفسه بتنهدات وأنين لا يُنطق به .] (حوار كاسيان مع الأب إسحق)

وبهذا تأخذ العبادة داخل الكنيسة ، على مدى السنة المسيحية ، قوتها وإعتبارها لا كتذكار تاريخي مرتَّب لحوادث الإنجيل كما جاءت ، وإنما كإنفتاح حقيقي على الثالوث المقدس والمسيح وكل التدبير الإلهي بأسرار الميلاد والعماد والصلب والقيامة و يوم الخمسين ، كل ذلك بتوسط اللحن والتسبيح و بقية الليتورچيا التي تحمل روح الإنسان وتمتد به إلى عمق هذه الأسرار...

وهكذا يتلاقى في الكنيسة الترتيب التاريخي مع التدبير الإلهي ... و يتقابل الترابي مع السماوي ، والإنسان الميت ينظر و يستنشق الحياة ...

كل ذلك بواسطة يسوع المسيح « الرب الكائن والذي كان والذي يأتي القادر على كل شيء ... الحي وكنت ميتاً وها أنا حي إلى أبد الآبدين » (رؤ١: ٨، ١٨) . هذا هو يسوع المسيح روح الحياة وروح النبوة والتسبيح ، الذي جمع في نفسه الزمان والخلود وكل ما في السماء وما على الأرض ...

والمسيحي إذ يرى كل أعمال الله وتدبيره منذ الأزل وإلى الأبد معمولة ومُعلَنة بيسوع المسيح ، لذلك أصبحت كل مراحل حياة المسيح وأعماله بمثابة ظهور واستعلان حقيقي لفكر الله ومشيئته ، و بالتالي أصبح التعييد لها بالتسبيح واللحن ذا صبغة لاهوتية وذا قداسة معاً ، هذا التعييد لا يستمد سببه من التاريخ وإنما من حياة المسيح « الكائن والذي يأتي » .

فالمسيح حقاً أعلن نفسه للعالم كله مرة واحدة بالميلاد والعماد والصلب والقيامة وإرسال الروح القدس ، ولكنه لا يزال في الكنيسة من وراء الخدمة اليومية يعلن هذه الأسرار الإلهية عينها لكل نفس إعلاناً خاصاً لها ، يوصلها إلى حياة حقيقية معه ...

فالمناسبات الكنسية التي نعيِّد فيها لأعمال المسيح إذا اكتفت بوضعها التاريخي كذكرى ، فلا نوصل إلى شيء ، وحتى قيمتها التعليمية تكون ميتة وتكون التسابيح والألحان حينئذ نوعاً من التسلية للتفريج عن المؤمنين ، ولكن حقيقة الكنيسة ليست كذلك ، فهي سماء وهيكل الله وجسد المسيح و بيت الصلاة ...

والتسبيح والألحان يحتويان على شيء أعظم من التسبيح والألحان : يحتويان على أسرار المسيح وقوة حياته وأعماله التي هي مشيئة الله الأزلية ... التي يسميها يوحنا ذهبي الفم في الليتورچية التي له :

[أسرار المسيح الإلهية المقدسة الرهيبة التي بلا عيب غير المائتة السمائية معطية الحياة .] .

وفيها يقول القديس أثناسيوس الرسولي :

[إن التسبيح بالمزامير دواء لشفاء النفس](١) .

وفيها أيضاً يقول القديس باسيليوس :

[وماذا يكون للإنسان على الأرض أفضل وأسعد من أن يقتدي بالملائكة وهي تسبِّح في خوارسها فيبتدىء النهار بالصلاة و يقدِّم الكرامة والمجد للخالق بالألحان والترنيم](٢) .

لذلك فالعبادة داخل الكنيسة بالتسبيح واللحن وبقية الليتورچيا تُقاس قداستها ليس بمقدار إهتمامها بالمناسبات والتدقيق في تتميمها وحسب ، وإنما بمقدار تقديسها لهذه المناسبات ! لأن الشعور بقداسة المناسبة ورهبتها الإلهية هو فقط الذي يُعتبر برهاناً واستجابة حقيقية لحضور الله فيها !

والكنيسة في حقيقتها لا تعيِّد للمناسبة ، وإنما تعيِّد لحضور الله في هذه المناسبة

لهذا ، فكل من يشترك في العبادة داخل الكنيسة بالتسبيح أو الصلاة ينبغي أن يعتبر نفسه مكاناً لحلول الله وإعلان مشيئته ، فالروح حينما يحلُّ في الكنيسة لا يحل على « المنجلية » وإنما يحلُّ في الإنسان الواقف على « المنجلية » وفي كل إنسان مستعد لحضوره « سأسكن فيهم وأسير بينهم » (٢ كو ٦ : ١٦) .

---

(1) Bisa: Shenoutes disciple , On Ascetic Treatise, British Museum, Or. 6007
(2) Letter III, Basil to Greg.

[ورجل الصلاة عليه أن يترقب باستمرار حضور الله من كافة الأبواب ومنافذ وحواس النفس]

(القديس مقار يوس عظة ٣٣)

+[إمنحني قوة يا الله أن أقدِّم لك بإختياري مصابيحي الثلاثة متقدة ؛ روحي ونفسي وجسدي !!!
روحي للآب ، ونفسي للإبن ، وجسدي للروح القدس ؛
أيها الآب قدِّس روحي ! ، أيها الإبن قدِّس نفسي ! ، أيها الروح القدس ، قدِّس جسدي الملوث بالخطيئة]

(من خدمة الصباح في قداس للمارونيين)

أما والإنسان دائماً عاجز عن أن يقدم هذه التقدمة كاملة فقد أصبح مفروضاً عليه أن يحفظ الإتضاع ، و بالأكثر أن تكون عبادته وتسبيحه ولحنه وكل خدمته بروح التوبة والمسكنة ...

ولكن بسبب محبة الله للخطاة يكتسب الإنسان ثقة في عبادته لا تُحد ! ...

أليست هي حقيقة واحدة يسبِّح لها الجميع ؟ والحقيقة أن الذين يسبِّحون في الكنيسة هم في الواقع يعملون عمل الملائكة الذي هو من صميم اختصاصهم ! ، لذلك فالخورس حينما ينطق بالتسبيح للمسيح في الكنيسة في وحدة الروح والمحبة ، هذا يكون أعظم شهادة للتحول الذي تمَّ في طبيعة الإنسان .

[ليتنا نحن الذين بالسر نمثل الشاروبيم ، ونسبِّح تسبحة الثلاثة تقديسات للثالوث المحيي ، ننبذ عنا كل الإهتمامات الأرضية ، حتى نستقبل ملك المجد ، الذي تخدمه خفياً كل الدرجات الملائكية ...... هللويا هللويا هللويا]

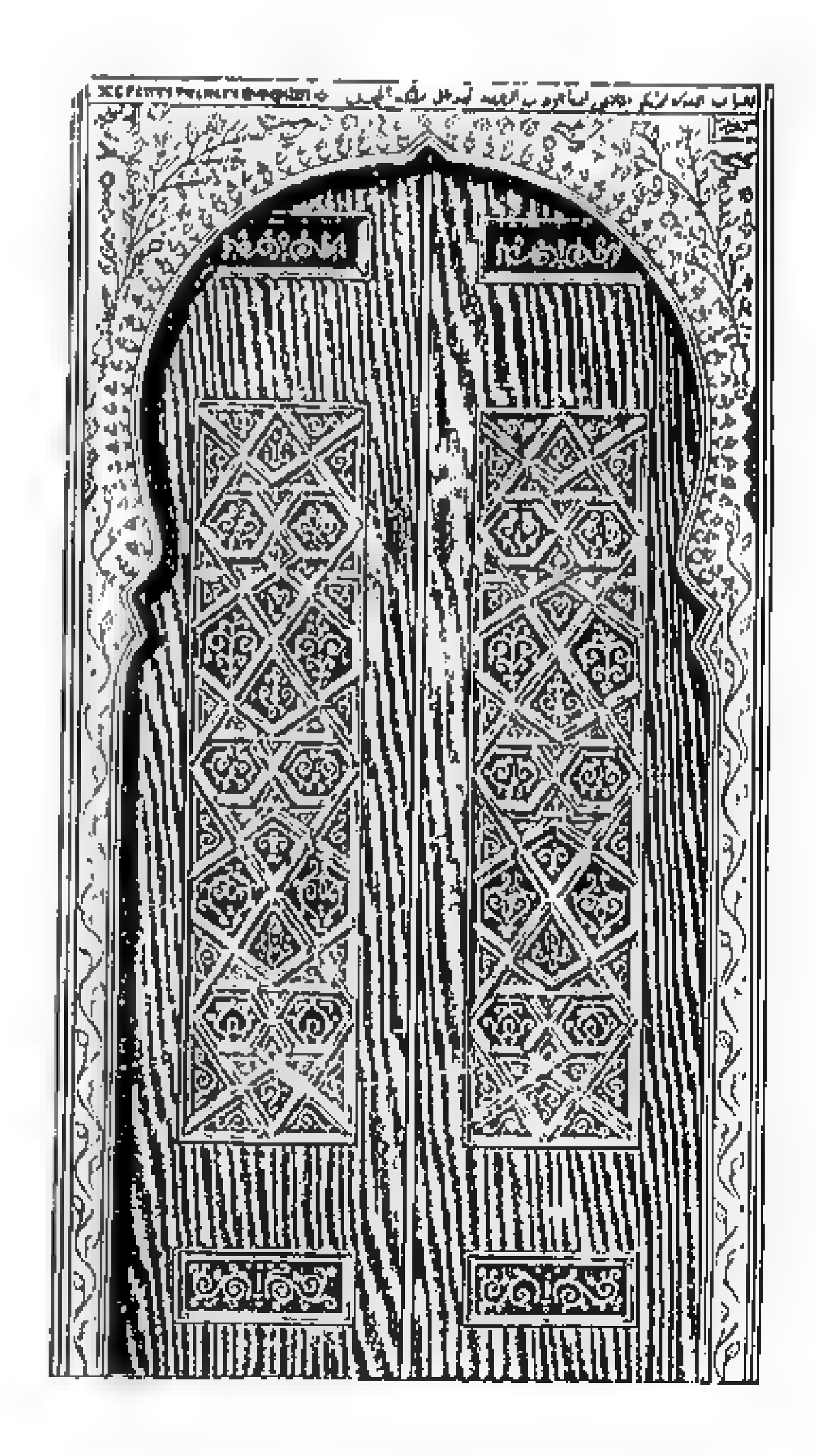
(قداس يوحنا ذهبي الفم)

ولقد عرف هذا داوود النبي ، أعظم من سبَّح لله ، لذلك يقول عن إختبار :

« أمام الملائكة أرتل لك » (مز١٣٧) .

فانظروا عظمة لنسبيح و بأية رهبة ينبغي أن نخدم اللحن أمام الله !!

[وإذا جلست يا أسقف ودخل واحد في شكل حسن ... فاستمر أنت يا أسقف تتكلم بكلام الله أو تسمع المرتل والقارىء ، ولا تدع عنك ذلك لأجل مراءاة ذلك الإنسان لكي تدعوه إلى أول المجلس ، بل كن ثابتاً في هدوء ولا تقطع كلامك ولا تدع عنك سماع كلام الفصل أو الأبصلمودية]
(دسقولية ــ الباب العاشر)



الباب الثالث
نماذج من تسبحات الكنيسة الأولى

١ ـ الإبصلتير أو كتاب المزامير لداوود النبي

Ψαλτηριον

هو كتاب الخدمة الرسمية في الهيكل (الثاني) ، (٥٢٠ ق.م منذ أيام زكريا وحجّاي النبيين) ، وقد أعاد ترجمته علماء اليهود ترجمة شعرية مضبوطة في بدء أيام ظهور المجامع حتى يسهل على الشعب إستخدامه وفهمه باللغة العبرية المتطورة ، وجعلوه مناسباً للخدمة اليومية وفي جميع الأعياد والمناسبات وشكّلوه ووضعوا أوزانه المتقابلة . وعُرفت هذه الترجمة ، أو هذه النسخة بالماسورية « Massoretic » وهي كلمة عبرية تعني « تقليدية » ، أي الترجمة حسب الأصول التقليدية . وهي مشابهة للترجمة السبعينية ، وقد ثبت حديثاً أن الترجمة الماسورية يمكن الإعتماد عليها جداً .

وفي هذه الترجمة ، والترجمة السبعينية أيضاً ، ينقسم السفر إلى خمسة كتب : الأول من مزمور ١ ــ ٤١ ، والثاني من ٤٢ ــ ٧٢ ، والثالث من ٧٣ ــ ٨٩ ، والرابع من ٩٠ ــ ١٠٦ ، والخامس من ١٠٧ ــ ١٥٠ ، وكل كتاب من الأربعة الأولى ينتهي بتمجيد(*) ماعدا الكتاب الخامس فإن مزاميره الأخيرة هي للتمجيد بحد ذاتها .

وكان الإعتقاد قديماً أن داوود النبي هو واضع المزامير كلها ، وأصحاب هذا الرأي يتزعمهم القديس أمبروسيوس والقديس أغسطينوس ، و يعارضهم في ذلك بشدة

(*) فمزمور ٤١ ينتهي هكذا : مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد . آمين آمين .
ومزمور ٧٢ ينتهي هكذا : مبارك الرب الله إله إسرائيل الصانع العجائب وحده ، ومبارك إسم مجده إلى الدهر ، ولتمتلىء الأرض كلها من مجده . آمين آمين
ومزمور ٨٩ ينتهي هكذا : مبارك الرب إلى الدهر . آمين آمين .
ومزمور ١٠٦ ينتهي هكذا : مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل وإلى الأبد . و يقول كل الشعب آمين هلليلو ياه .

القديس چيروم الذي ترجم كتاب المزامير لأول مرة إلى اللغة اللاتينية ثلاث تراجم من ثلاثة أصول . ورأي چيروم هو الذي ثبت على مدى البحث ، والمعروف الآن أن واضعي المزامير كثرة ، وأن مزامير كثيرة كُتبت بعد السبي و بالأخص في أيام المكابيين .

ولكن يظهر أن ميل الكنيسة (حتى الآن) إلى ضم كل المزامير لداوود النبي يرجع إلى أن داوود هو من انسكبت عليه هذه الموهبة بصورة فائقة ، كما أنه وضع أوزاناً كثيرة لها ووقّعها على الآلات وأدخلها ضمن الخدمة الإلهية . وكانت له مزامير خاصة تُسمى المزامير الملكية ، كان يخدم بها بنفسه وهي مز ٢، ١٨، ٢٠، ٢١، ٧٢، ١٠١، ١١٠، ١٣٢، ١٤٤، وقد صارت من طقس خدمة الملوك من بعده وكانت تعطي للهيكل صفة ملكية رمزية للمسيّا القادم . وهي حقاً ذات هيبة وجمال ملوكي ! .

وقد استرعى كتاب المزامير اهتمام كافة آباء الكنيسة قديماً وحديثاً ، فقد اهتمّ كل من أحس بقوة هذا السفر أن يشرحه و يفسّره . وهذا راجع إلى أن المزامير تحمل روحاً ملهمة قوية ، كل من يتقرّب إليها لا يستطيع أن يفلت من عشقها ، وكل الآباء النساك حفظوا المزامير كلها عن ظهر قلب بسبب قوتها وحلاوتها .

وقد اهتم الآباء الروحانيون بالتأمل في معانيها لأنها تحمل تركيزاً هائلاً للعلاقات التي تربط الإنسان بالله ، وفي نفس الوقت تكشف عن أعمق صفات الله وهي مزدحمة بالعواطف من كلا الجهتين . وكل مزمور يمثل قصة قلب الإنسان ، وكل مزمور يصوّر حاله ، وكل مزمور ينطق بما يمكن أن يجول في كل نفس ... والمزامير عموماً يتخللها السؤال والجواب ، سؤال النفس الحائرة وجواب الله الرزين .

وهي تحمل أشد عبارات التوبة والإنسحاق منطوقة بفم ملك كان في اتضاعه يلبس المسوح ويجلس في التراب و يغمس لقمته بالدموع ... ولكن من العسير أن تجد مزموراً لا يحمل رنة الرجاء الأكيد بمعونة الله وعودة مراحمه .

والمزامير زاخرة بتسابيح الله من قلب مخلص يفيض حمداً وشكراً وتهليلاً ، كل هذا جعل كتاب المزامير منهجاً للتسبيح والصلاة والخدمة داخل الكنيسة وخارجها في كافة

أنحاء الأرض ، وخاصة أنه كان السفر المحبوب لدى المسيح ، الذي علّم به ، واستشهد منه ، وصلّى به في المجمع ، وواجه به تجربة الشيطان ، وسبّح به في عشائه الأخير ، ومات وآخر كلمة على فمه منه « في يديك أستودع روحي » . كما كان عماد الرسل في استشهاداتهم عن المسيح وفي صلواتهم وتسابيحهم وتمسكهم بمواعيد الله التي فيه .

وقد ورثت الكنيسة هذا الميراث الغني من الهيكل والمجمع ، وكانت كنيسة الإسكندرية هي السبّاقة في استلام هذا الميراث عن اليهود الإسكندريين المتنسكين (الشيرابيوتا) عندما قبلوا البشارة وصاروا مسيحيين ، وأخذ عنهم الأقباط كل دقائق الخدمة بالمزامير .

ومن الملاحظ أن الدسقولية (من منتصف القرن الثاني وموطنها الإسكندرية) ذكرت(*) أن مزمور الخدمة اليومية المنصوص عليه هومز ٩٢ « صالح هو الإعتراف للرب » ، مع أن المستخدم فعلاً في الكنيسة الآن هومز ٦٢ « يا الله إليك أبكّر» ، فكثير من العلماء حسبوه خطأ في النسخ وحاولت النسخ المطبوعة أن تصححه ولكن الحقيقة خلاف ذلك ، فمزمور ٩٢ هو فعلاً مزمور الخدمة الذي كان معمولاً به في الهيكل(١) ، فالذي كتب الدسقولية كان يقصد مزمور ٩٢ فعلاً ، وقد أخذت به الكنيسة الأولى ولكنها استبدلته بالمزمور ٦٢ في باكر ، أما مزمور ٩٢ فهو باقٍ في تسبحات الكنيسة حتى الآن في صلاة النوم .

وفي إعتقادنا أن الترجمة القبطية للمزامير (للأسف لم يُبحث حتى الآن مصدرها بالتحقيق) مأخوذة عن النسخة العبرية المسماه بالماسورية **Massoretic** التي كان يستخدمها يهود الأسكندرية النُسّاك قبل تحوُّلهم إلى المسيحية ، وعنهم إستلم الأقباط طريقة الترنيم بالأنتيفونا **Antiphona** أي المجاوبة الصوتية ، وهي طريقة الخورسين ، خورس قبلي وخورس بحري وكل واحد يردُّ على الآخر.

وقد احتار العلماء في أصل دخول الأنتيفونا في الكنيسة ، فبعضهم قال أن بطرس

(*) الباب العاشر

1. The Temple, by Edershim, p. 52.

الرسول رآها في رؤيا (٢) ، وآخرون قالوا إنها من ترتيب القديس أغناطيوس (٣) ، ولكن الحقيقة أنها طقس قديم جداً في الهيكل ومعمول به منذ أيام عزرا ونحميا . فبالرجوع إلى عزرا٣: ١٠، ١١ ، ونحميا١٢ : ٢٧-٤٠ نجد أن نظام الخورسين واضح والترتيل بالأنتيفونا قديم جداً ومذكور عنه : « لتسبيح الرب على ترتيب داوود ملك إسرائيل » ، « فوقفت الفرقتان من الحمّادين في بيت الله ... وغنّى المغنُّون » ، وهي نفس الطريقة التي رآها إشعياء النبي وسمعها من الخورس السمائي عندما كان يصرخ الساروفيم **الواحد قبالة الآخر** قائلين : قدوس قدوس قدوس ، كما أنها مذكورة أيضاً في سفر الرؤيا ٤ :٨، ١١ ؛ ٥ :٩، ١٢ ؛ ٧ : ١٠-١٢ .

وفي الكتاب الذي وضعه العلاّمة فيلو اليهودي يصف فيه حياة الكنيسة الأولى في الأسكندرية وكل مصر ، وهي لا تزال في صبغتها اليهودية الأولى (٤٥-٥٥م) ، يذكر أن هؤلاء النساك كانوا يستخدمون طريقة الأنتيفونا في تسبيحهم الليلي (٤) ، وهكذا إنتقلت الأنتيفونا كطقس خِدمة إلهية من هؤلاء النساك إلى الكنيسة . وهذا ما يقول به العلاّمة *Lightfoot* (٥) . وقد أخذت الكنائس اللاتينية هذه الطريقة في التسبيح عن كنيستنا (٦) .

كما استلم الأقباط أيضاً من هؤلاء النساك اليهود المتنصرين طريقة التسبيح بالناي (المزمار= *flute*) في إجتماعاتهم العامة المسماه « الأغابي » ، والمعروف أن الأقباط ظلوا يستخدمون الناي في إجتماعات الأغابي حتى سنة ١٩٠م. ، حينما أوقف كليمندس الإسكندري إستخدام الناي واستبدله بالناقوس *Cymvalon* (٧) . والملاحظ أن الناي كان ممنوعاً إستخدامه داخل الهيكل وإنما كان من

2.,3. Theodoret. , E. H. II , 19, notes.
4. De Vitae Contemplata, ch. X.
5. Lightfoot, Apostol. Fath., Pt. 2. 1, p. 31.
6. St. Augustin., Confess., IX, 7 :
[وفيه يقول القديس أُغسطينوس أن طريقة الترتيل بالأنتيفونا أدخلت إلى كنيسة ميلان مأخوذة عن الآباء الشرقيين *Secondum morem oriantaluim Patruim*
في أيام القديس أمبروسيوس . ومن ميلان إنتشرت إلى جميع أنحاء العالم]

(7) Leyrer u. s., cited by Edershim, The Temple, p. 56.

إستخدام الشعب في الحفلات الرسمية خارج الهيكل فقط ، ومن هنا دخل الناي في إجتماعات الأغابي ولم يدخل في العبادة داخل الكنيسة .

تقسيم كتاب المزامير (الإبصلتير) للخدمة اليومية :

(١) وقد قام الآباء الأقباط من القرون الأولى بتقسيم كتاب المزامير إلى أعداد (آيات طويلة) ، كل آية عبارة عن بيت شعر كامل في الأصل العبري ، ولكن بطبيعة الحال تعذّر عليهم نقل الوزن لأنه محدد بعدد ألفاظ معينة ، وكل بيت شعر يسمى إستيخن σϯχον ، وعدد الإستيخونات في كتاب المزامير (١٥٠ مزموراً) هو ٢٥٠٠ إستيخوناً حسب التقسيم القبطي ، وهذا التقسيم يختلف عن كافة التقسيمات الأخرى المطبوعة وغير المطبوعة للتراجم المختلفة ، مما يفيد أنه من صنع الأقباط بدون شك . هذا بالإضافة إلى أن معاني الكلمات تختلف عن النسخة السبعينية المعروفة التي تُرجم منها بقية أسفار العهد القديم باللغة القبطية .

(٢) ثم عاد الآباء وقسّموا الكتاب كله بحسب الإستيخونات إلى مجموعات ، كل مجموعة إستيخونات قد تشمل ثلاثة مزامير أو مزمورين أو مزموراً واحداً أو جزءً من مزمور مثل مزمور ١١٩ الطويل ، وجعلوا في نهايتها وقفة ϭⲧⲁⲥⲉⲓⲥ يُقال فيها التمجيد « ذُكصا » أي يُتلى التمجيد للثالوث « المجد للآب والإبن والروح القدس . الآن وكل أوان وإلى دهر الداهرين آمين » .

وعدد الذكصا في كتاب المزامير كله « ٥٩ ذكصا » .

(٣) ثم قسموا « الذُكصا » في الكتاب كله ، كل ثلاث « ذُكصا » يكون وقفة للصلاة تسمى kαθισμα ، حيث تُقال صلاة قصيرة (صلاة القطع) .

وعدد الكاثيسمات في كتاب المزامير كله ، أي الوقفات للصلاة : « ٢٠ كاثسما » . أي أن كتاب المزامير قسمه الآباء إلى عشرين صلاة ، وهذا هو التقسيم السائد الذي سارت عليه الكنيسة الأولى تقريباً والذي طُبع به كتاب المزامير باللغة القبطية .

ولكن مما يثبت أن هذا التقسيم هو من عمل الآباء الأُوَل ، أننا نجد تقاسيم أخرى

مشابهة كثيرة حيث تختلف فيها مواضع الكاثسمات ، أي وقفات الصلاة ، فقد عثرنا على مخطوطات بدير السريان تحت رقم [(٣٢٦) ، (٣٤١) طقوس] وجدنا فيها تقسيم الكاثسمات يختلف قليلاً عن التقسيم الأساسي في كتاب المزامير المطبوع

(٤) ومن المشاهد في كتب المزامير المخطوطة أن غالبيتها كان مستخدماً للخدمة في الصلوات النهارية والليلية ، حيث يُقسّم الكتاب كله (أي الـ ١٥٠ مزموراً) إلى سبع صلوات — ففي المخطوطة رقم (٣٢٦ ، طقوس ، دير السريان) ، نجد تقسيم المزامير كالآتي :

١ . صلاة باكر من المزمور ١ - ١٨ ،
٢ . صلاة الثالثة من مزمور ١٩ - ٥٢ ،
٣ . صلاة السادسة من مزمور ٥٣ - ٩٤ ،
٤ . صلاة التاسعة من مزمور ٩٥ - ١١٥ ،
٥ . صلاة الغروب من مزمور ١١٦ - ١٢٨ ، بإستثناء مز ١١٨ الكبير
٦ . صلاة النوم من مزمور ١٢٩ - ١٥١
٧ . صلاة نصف الليل مزمور ١١٨ - كالمعتاد .

كذلك في المخطوطة رقم (٣٤١ ، طقوس ، دير السريان) نجد التقسيم كالآتي :

١ . صلاة نصف الليل مز ١١٨
٢ . صلاة باكر من مزمور ١ - ٢٣
٣ . صلاة الثالثة من مزمور ٢٤ - ٥٣
٤ . صلاة السادسة من مزمور ٥٤ - ٩٤
٥ . صلاة التاسعة من مزمور ٩٥ - ١١٥
٦ . صلاة الحادية عشر من مزمور ١١٦ - ١٢٨
٧ . صلاة الثانية عشر من مزمور ١٢٩ - ١٥١

ومن النادر أن توجد التقاسيم في هذه الكتب — بالنسبة لعدد مزامير كل صلاة من السبع صلوات — مطابقةً للأخرى ، لأن هذه التقاسيم كان كل أب يرتبها لنفسه حسب مسرته ولم يلتزم إلا بقانون الإثني عشر مزموراً التي سنّها الآباء للغروب وصلاة

السهر (*) (نصف الليل الآن)

(٥) إذن فمن المشاهد أن النظام الجاري عند الآباء في مصر هو ترتيل المائة والخمسين مزموراً على مدى اليوم الكامل، أي الليل والنهار، ومعظمهم كان لا يتقيد بمواعيد الساعات. فكان كتاب الإبصلتير (كتاب المزامير) يظل مفتوحاً أمامه طول اليوم يرتل منه حسب مسرته على أن ينتهي من تلاوته قبل أن يشرق النهار الجديد إذ يختمه بالهوس الرابع: مز ١٤٨ و١٤٩ و١٥٠. ولا يزال هذا النظام معمولاً به عند الآباء المحبين للوحدة في بعض الأديرة.

وقد أخذت الكنائس في العالم كله بدورة المزامير، فالكنيسة الرومانية الكاثوليكية ترتل المائة والخمسين مزموراً في خدماتها الإلهية على مدى الأسبوع، (إختصرته الآن). والكنيسة البيزنطية على مدى شهر.

أما الكنيسة القبطية حالياً فهي أثناء خدماتها العامة أي السبعة صلوات (ثلاثة نهاراً وأربعة ليلاً) (*) التي تحوي ٧٤ مزموراً، تتلو نصف المزامير كل يوم، ولأن طقس الكنيسة الأصيل لا يحدد أنواع المزامير فكان هذا يعني أنها تتلو المائة وخمسين مزموراً كل يومين. ولكن بسبب تحديد المزامير (وهذا وضع حديث وغير دقيق) صارت الكنيسة تتلو نصف كتاب المزامير باستمرار كل يوم دون أن ترى أو تسمع عن النصف الآخر، إلا لماماً في بعض الآيات المنتخَبة التي تُتلى قبل الإنجيل في باكر وعشية وفي خدمة القداس. و ياحبذا لو تعدّل الوضع إلى ما كان عليه و يُطبع كتاب خاص للمزامير لخدمة الكنيسة.

(*) يلاحظ أن صلاة نصف الليل حالياً (صلاة السهر) هي إثنا عشر مزموراً، تتكون من ثمانية مزامير في بداية الخدمة الأولى بعد «قوموا يا بني النور» مضافاً إليها ثلاثة مزامير (الهوسات الثلاثة الأولى التي تمثل الثلاث خدم) مضافاً إليها المزمور ١١٨. علماً بأن الهوس الرابع (ثلاث مزامير ١٤٨ و١٤٩ و١٥٠) هو صلاة السحر وهي صلاة قائمة بذاتها. وسيأتي الكلام عنها.

(*) تقسيم صلوات الساعات عند الغرب هو سبعة ساعات نهارية كالآتي: السحر و باكر والثالثة والسادسة والتاسعة والغروب والنوم (ختام النهار). مع صلاة واحدة ليلية هي صلاة نصف الليل. أما تقسيم صلوات الساعات عندنا فهو ثلاثة نهارية كالآتي: الثالثة والسادسة والتاسعة، وأربعة ليلية كالآتي: الغروب والنوم ونصف الليل والسحر (باكر).

٢ ـ تسابيح الأنبياء

وتُسمى في الكنيسة الغربية Canticles، وهي مجموعة تسابيح مختارة من أسفار العهد القديم إختارتها الكنيسة بدوافع روحية عميقة لنسبّح بها مع المزامير أثناء خدم الليل والنهار وفي داخل الكنيسة، وفي بعض المواسم مثل يوم السبت الكبير في طقس عشية أبوكاليبسيس.

وقد اعتنى الآباء القدامى جداً بهذه التسابيح فكانت ذات أثر كبير في حياتهم، ومن المشاهد أن كثيراً من المخطوطات التي تحوي سفر المزامير تحوي في نهايتها أيضاً هذه التسابيح المختارة، ولا يزال حتى الآن قليل من الآباء الرهبان يعتنون بتلاوة هذه التسابيح، وقد كان غبطة البابا الراحل كيرلس السادس يسبّح بها مع المزامير أثناء وجوده في مغارته بدير البراموس، وقد رأينا المخطوطة التي نسخها لسفر المزامير وتسابيح الأنبياء بخط يده على ضوء شمعة صغيرة، فالتسليم لا يزال جارياً بأهمية هذه التسابيح... و يلزم جداً أن تنتبه الكنيسة أن هذه التسابيح قانونية وداخلة في صميم الخدمة.

ومعروف أن الآباء القدامى واظبوا عليها ضمن قانون خدماتهم الليلية وهذا نقرأه في سيرة الأب القديس فيليمون الذي عاش أولاً بدير البراموس ثم انتقل إلى قلاية يوحنا القصير وأمضى حياته في مغارة بالقرب من الدير، والذي اعتنت الفيلوكاليا بسرد نموذج حياته إذ اعتبرته من الآباء الأمائل الذين اشتهروا بحب العبادة والتسبيح:

[وكان هذا الشيخ محافظاً على القانون فكان يتلو المزامير أثناء الليل مع التسع تسابيح الموجودة بكتاب المزامير بدون عجلة أو توقف]

وعدد هذه التسابيح هو سبعة من العهد القديم وثلاثة من العهد الجديد، ولكن واحدة من العهد الجديد داخلة في قانون صلاة النوم «إطلق عبدك بسلام»، لذلك فهي محسوبة تسع تسابيح مع عدة صلوات أخرى مختارة للتوبة، مثل صلاة منسّى الملك لما تاب، وهي من أروع الصلوات التذللية.

واختيار الكنيسة لهذه التسابيح ليس جزافاً لأنها تسابيح قانونية كانت تدخل ضمن خدمة الصلاة داخل الهيكل مثل :

— تسبحة موسى النبي الواردة في سفر الخروج ص ١٥ : « حينئذ سبَّح موسى » ، فهذه التسبحة كانت داخلة ضمن قانون الصلاة مع مزمور ٩٢ في عشية السبت لخدمة الهيكل وفي المجامع أيضاً . وقد أدخلتها الكنيسة ضمن صلاة نصف الليل : الهوس الأول .

— وتسبحة موسى النبي الواردة في سفر التثنية ص ٣٢ : « إنصتي أيتها السموات فأتكلم ولتسمع الأرض أقوال فمي » ، وهذه التسبحة كانت تدخل ضمن صلاة باكر في الهيكل والمجامع أيضاً كشاهد أبدي على مراحم الله وعظمته ونعمته ...

— تسبحة أشعياء النبي الواردة في إصحاح ٢٥ :

[يارب أنت إلهي أعظِّمك ... أحمد اسمك لأنك صنعت عجباً ... لأنك كنت حصناً للمسكين حصناً للبائس في ضيقه ملجأ من السيل ظلاً من الحرّ... يصنع رب الجنود لجميع الشعوب في هذا الجبل وليمة سمائن ... و يُفني في هذا الجبل وجه النقاب ، النقاب الذي على الشعوب والغطاء المغطَّى به على كل الأمم ... يُبتلَع الموت إلي الأبد ، ويمسح السيد الرب الدموع من كل الوجوه ... و يُقال في ذلك اليوم هوذا إلهنا إنتظرناه فخلَّصنا ...]

وهذه التسبحة كانت من صميم خدمة عيد المظال الذي كانوا يعيدونه بخروج إسرائيل من بيوتهم وسكناهم في المظال (رمزاً على تشتتهم ودخول ملء الأمم وإنسكاب مراحم الله على كافة شعوب الأرض) ، لذلك نجد أن أقوال أشعياء المنتخبة لخدمة هذا العيد هي عجيبة في الواقع ولا تتناسب إلا مع الكنيسة !!

— وتسبحة أشعياء النبي الواردة في إصحاح ٢٦ ، وهي من أجمل التسابيح في العهد القديم :

[في هذا اليوم يغنَّى بهذه الأغنية ... يجعل الخلاص أسواراً ومترسة ... ذو الرأي الممكَّن تحفظه سالماً سالماً ، لأنه عليك توكَّل ... توكَّلوا على الرب إلى الأبد لأن في ياه الرب صخر الدهور... بنفسي اشتهيتك في الليل ... بروحي في داخلي أبكِّر إليك ... تحيا أمواتك وتقوم الأجساد ... إستيقظوا ترنَّموا ياسكان التراب !!]

وقد كانت هذه التسبحة محور تعاليم الفريسيين والربيين بخصوص القيامة من الأموات ، فأخذتها الكنيسة وترنَّمت بها لتمجِّد بها صدق وعد الرب !!

وهكذا نجد أن اختيار الكنيسة لهذه التسبحات السبعة من وسط مئات من الأناشيد القديمة ، لم يكن جزافاً إنما لدوافع روحية ولاهوتية تحتاج إلى كثير من التيقظ والإنتباه ، وإنما يلزم ترجمة هذه التسبحات ترجمة صحيحة ، وإعادة التشديد في قانونيتها .

وقد انتقل هذا الطقس القبطي المختار لتسابيح العهد القديم من مصر إلى الغرب عن طريق كاسيان وتلقفته أنظمة البندكت ، فدخل في صميم الخدمات الالهية داخل الكنيسة . وقد وردت هذه التسبحات السبعة عندهم في كتاب الصلوات Breviary مع بعض إختلافات في إختيار الفصول ، وهم يرتلون في صلاة السحر (الفجر) تسبحة الثلاث فتية في أيام الآحاد والأعياد ، وهي في كنيستنا تحتل الهوس الثالث من التسبحة اليومية السنوية ، وكذلك يرتلون تسبحة أشعياء أصحاح ١٢ ، وهي عندنا أصحاح ٢٥و٢٦ ، وتسبحة حزقيا الملك لما مرض للموت ثم شُفي وهي مطابقة لطقسنا ، وتسبحة حنة أم صموئيل النبي وهي أيضاً مطابقة لطقسنا ، وتسبحتي موسى النبي وهما مطابقتان لطقسنا ، وتسبحة حبقوق النبي وهي مطابقة لطقسنا .

وفي تسابيح العهد الجديد يستخدمون تسبحة زكريا الكاهن في خدمة صلاة السحر ، وتسبحة العذراء مريم (التعظمة) في الغروب ، وتسبحة سمعان الشيخ « إطلق عبدك » في النوم .

وفي الطقس الغربي يتم تلاوة تسابيح العهد القديم السبعة على مدى الأسبوع ، أما الثلاث تسابيح التي للعهد الجديد فتُتلى عندهم يومياً .

٣ — نصوص إنجيلية

بدأت الكنيسة بالمزامير والتسابيح التي وردت في العهد القديم ، ولكن الإضافات المسيحية ظهرت مبكرة جداً ، ونستطيع أن نلمحها في رسالة بولس الرسول إلى أهل

كولوسي « لتسكنْ فيكم كلمة المسيح بغنى وأنتم بكل حكمة معلّمون ومنذرون بعضكم بعضاً بمزامير وتسابيح وأغاني روحية بنعمة مترنمين في قلوبكم للرب » (كو٣: ١٦) .
وقد حوت أسفار العهد الجديد مجموعة من التسابيح نذكر منها الآتي :

١ ـ تسبحة العذراء مريم : (لو١: ٤٦ ـ ٥٥) وتُسمَّى « التعظمة » . **Magnificat** ـ (ولا تزال تُتلى كتسبحة رئيسية في خدمة المساء عند اللاتين) . ونحن نوردها هنا حسب تقسيم وزنها في اللحن الذي وردت به في الأصول .

« فقالت مريم :
+ تعظِّم نفسي الرب ،
وتبتهج روحي بالله مخلِّصي ،
لأنه نظر إلى إتضاع أمَتِه ،
+فهوذا منذ الآن جميع الأجيال يدعونني المطوَّبة (*)
لأن القدير صنع بي عظائم ،
وإسمه قدوس .
+ ورحمته على الذين يخافونه من جيل إلى جيل (*)
+ صنع قوة بذراعه ، شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم ،
أنزل الأعزاء عن كراسيهم (*)
ورفع المتضعين؛ أشبع الجياع خيرات ،
وصرف الأغنياء فارغين .
+ عضَّد إسرائيل فتاه ،
تذكاراً لرحمته (*)
كما كلَّم أباءنا ، لإبراهيم ونسله للأبد »

وهذه التسبحة تدخل في خدمة سهر ليالي كيهك في الكنيسة القبطية .

٢ ـ تسبحة زكريا : (لو١: ٦٧ ـ ٧٩) وتُسمى « البركة » **Benedictus** ـ (ولا تزال تُتلى مع التسبحة الرئيسية بعد باكر في خدمة اللاتين) ونوردها بتقسيمها حسب اللحن كما وردت به في الأصول :

(*) هنا تصحيح في النص وهو الأصح في الترجمة .

« وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلاً :
+ مبارك الرب إله إسرائيل ،
لأنه افتقد وصنع فداءً لشعبه ،
وأقام لنا قرن خلاص في بيت داوود فتاه ،
كما تكلَّم بفم أنبيائه القديسين الذين منذ الدهر ،
أننا سنخلص من أعدائنا (*) ،
ومن أيدي جميع مبغضينا ،
ليصنع الرحمة التي وعد بها آباءنا (*) ،
و يذكر عهده المقدس ،
القَسَم الذي حلف لإبراهيم أبينا أن يعطينا ،
أننا بلا خوف ونحن منقَذين من يد أعدائنا نستطيع أن نعبده بلا خوف (*)
بقداسة و برٍّ قدامه جميع أيام حياتنا .
+ وأنت أيها الصبيُّ نبيَّ العليّ تُدعى ،
لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعدَّ طرقه ،
لتعطي شعبه معرفة الخلاص ،
بمغفرة خطاياهم ،
بأحشاء رحمة إلهنا ،
عندما يشرق علينا فجر ذلك اليوم من الأعالي (*) ليضيء على الجالسين في الظلمة وظلال الموت ،
لكي يهدي أقدامنا في طريق السلام . »

وهذه التسبحة تدخل في خدمة سهر ليالي شهر كيهك في الكنيسة القبطية .

٣ ـ تسبحة الملائكة : (لو٢: ١٣ ، ١٤) وتُسمَّى « مجدٌ في الأعالي » **Gloria in Excelsis** (تقولها الكنيسة القبطية في صلاة باكر وفي القداس)ونوردها حسب تقسيمها الشعري الذي وردت به في الأصول :

« وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوي مسبِّحين الله وقائلين :

(*) هنا تصحيح في النص وهو الأصح في الترجمة .

+ المجد لله في الأعالي ،
وعلى الأرض سلامٌ ، بينَ الناس الذين سُرَّ بهم (*)
أو [وعلى الأرض سلام والمسرَّة بين الناس] (٢) »

وقد رتبت الكنيسة هذه التسبحة ضمن صلوات باكر منذ العصر الرسولي ، ولا تزال الكنيسة القبطية تصلي بها ، وهي مدونة في كتاب السبع صلوات ضمن التسابيح التي تُقال بعد الإنجيل والقطع ، وقد وردت بنصها في كتاب تعاليم الرسل « ديداسكاليا » تحت عنوان صلاة للنهار υμνος εωθινος :

[« المجد لله في الأعالي وعلى الأرض السلام وفي الناس المسرة » ، **نسبّحك ، ونرتل لك بالألحان ، نباركك ونمجدك** ، ونعبدك بواسطة كاهنك الأعظم ، أنت هو الله الحقيقي غير المولود وغير المُدرَك من أجل عِظم مجدك أيها المالك على السموات ، الله الآب ضابط الكل ، أيها الرب الإله أبا يسوع المسيح الإبن الوحيد والروح القدس . أيها الرب الإله حمل الله إبن الآب الذي يرفع خطية العالم إقبل صلواتنا ، أيها الجالس عن يمين أبيه إرحمنا لأنك أنت وحدك القدوس أنت وحدك المسيح ، يسوع المسيح مجد الله الآب آمين .] (٣)

و يلاحَظ فيها أن خدمة باكر النهار كانت تقدّم بالتسبيح والترتيل والألحان .

٤ ــ تسبحة سمعان الشيخ : (لو٢ : ٢٨ ــ ٣٢) إطلاق العبد Nunc Dimittis
ــ (ولا زالت تُقال في التسبحة مساءً وفي نصف الليل) :
«« وأخذه على ذراعيه و بارك الله قائلاً :
+ ياسيد الآن إطلق عبدك بسلام ، حسب قولك (*)
لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك ،
الذي أعددته قدام جميع الشعوب ،
نور إعلان للأمم ،
ومجداً لشعبك إسرائيل . »

(*) هنا تصحيح في النص وهو الأصح في الترجمة .
(٢) في نسخ أخرى قديمة .

3) *Apost. Constit. B. 7. 47.*

وقد تسلّمت الكنيسة هذه التسبحة لتُقال في تسبحة المساء منذ أيام الرسل (أنظر الأبصلمودية) ، وقد وردت في كتاب الدسقولية تحت عنوان« صلاة المساء » ، ولكن في صلوات الأجبية نجدها واردة ضمن إنجيل صلاة النوم .

وهي حسب نصها كما جاء في الدسقولية :
[« سبّحوا الرب أيها الفتيان سبّحوا إسم الرب »
نسبّحك ونرتل لك بالألحان ، نباركك من أجل عظم مجدك .
أيها الرب ملكنا ، أبا المسيح الحَمَل الذي بلا خطيئة الذي يرفع خطية العالم ،
يليق بك التسبيح ، يليق بك الترتيل ، يليق بك التمجيد ،
يا الله الآب ، بالإبن ، وفي الروح القدس ، من الآن وإلى الأبد آمين .
« الآن ياسيد إطلق عبدك بسلام حسب قولك لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك الذي أعددته قدام جميع الشعوب نور إعلان للأمم ومجداً لشعبك إسرائيل] (١)

و يلاحَظ فيها أن التسابيح والتراتيل والألحان كانت هي خدمة المساء .

وهذه الصلاة غير صلاة الغروب التي تسمّى « صلاة النور البهي » .

٥ ــ تسبحة الأربعة أحياء غير المتجسدين : (رؤ٤ : ٨) كما وردت بنصها الشعري في سفر الرؤيا :
« ولا تزال نهاراً وليلاً قائلة :
+ قدوس قدوس قدوس الرب الإله القادر على كل شيء ،
الذي كان والكائن والذي يأتي . »
والملاحظ أنها دخلت بكاملها في ألحان وصلوات القداس .

٦ ــ تسبحة الأربعة والعشرين قسيساً : (رؤ٤ : ١١)
« يسجدون للحي إلى أبد الآبدين و يطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين :
+ مستحق أنت يا ربنا وإلهنا ، (*)
أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة ،
لأنك خلقت كل الأشياء ،

(*) هنا تصحيح في النص وهو الأصح في الترجمة .

1. *Apost. Constit. B. 7. 48*

وهي بإرادتك كائنة وخُلقَت . »

٧ ــ الترنيمة الجديدة : (رؤ٥ : ٩، ١٠) وهي تسبحة الأربعة أحياء غير المتجسدين مع الأربعة والعشرين قسيساً على القيثارة .

« يترنمون ترنيمة جديدة قائلين :
+ مستحق أنت أن تأخذ السفر وتفُك ختومه ،
لأنك ذُبحت و بدمك **اشتريت الناس لله** من كل قبيلة ولسان وشعب وأمة
وجعلتهم ملوكاً وكهنة لله ، **وهم** سيملكون على الأرض(١) »

٨ ــ تسبحة الأربعة والعشرين قسيساً عند إعلان الدينونة الأخيرة :
(رؤ١١ : ١٥ــ١٨)

« ثم بوّق الملاك السابع فحدثت أصوات عظيمة في السماء قائلة : قد صارت ممالك العالم لربنا ومسيحه فسيملك إلى أبد الأبدين . والأربعة والعشرون شيخاً الجالسون أمام الله على عروشهم خرُّوا على وجوههم وسجدوا لله قائلين :
+ نشكرك أيها الرب الإله القادر على كل شيء الكائن والذي كان (والذي سيأتي)(٢)
لأنك أخذت قدرتك **وبدأت تملك (*)**
+ الأمم غضبوا فأتى غضبك
وزمان الأموات ليُدانوا ،
ولتعطي الأجرة لعبيدك **والأنبياء والقديسين (*)**
والخائفين إسمك الصغار والكبار ،
ولهلاك الذين كانوا يُهلِكون الأرض . »

٩ ــ ترنيمة الخروف : (رؤ١٥ : ٣، ٤) يترنمها بالقيثارة الغالبون على الوحش وصورته وهم واقفون على البحر الزجاجي ومعهم قيثارات الله قائلين :
+ « عظيمة وعجيبة هي أعمالك ،

(١) التصحيح هنا ضرورة لأن الترجمة العربية البيروتية غير مستقيمة المعنى ، إذ تنسب للأربعة حيوانات والأربعة والعشرين قسيساً الكلام مع أنه منسوب للناس .
(٢) تصحيح : تحذف (والذي سيأتي) لأنه فعلاً أتى هنا لأنها زمان الدينونة .
(*) هذا تصحيح في النص مهم وأساسي .

أيها الرب القادر على كل شيء !
+ عادلة وحقٌ هي طرقك ،
يا ملك الدهور(*)
+ من لا يخافك يارب ويمجد إسمك ؟
لأنك وحدك قدوس !
لأن كل الأمم سيأتون و يسجدون أمامك ،
لأن أحكامك **قد أُعلنت** (*) » .

١٠ ــ تسبحة ملاك الماء : (رؤ١٦ : ٥-٧)

« وسمعت ملاك المياه يقول :
+ عادل أنت في دينونتك هذه ، (*)
أنت الكائن والذي كان **أيها القدوس (*)**
+ لأنهم سفكوا دم قديسين وأنبياء ،
فأعطيتهم دماً ليشربوا ، هذا إستحقاقهم (*)
+ وسمعت المذبح يصرخ (*) :
نعم أيها الرب الإله القادر على كل شيء ،
عادلة وحق هي أحكامك . »

١١ ــ تسبحة الأربعة والعشرين قسيساً مع الأربعة حيوانات بعد دينونة الزانية التي أفسدت الأرض (رؤ١٩ : ٤) :

« آمين هلليلويا » (وهي أقصر تسبحة)

والملاحظ أنها أُخذت لتكون قراراً لصلوات القسمة في أعياد الملائكة والقديسين ، بإعتبار أن الإفخارستيا تسبق وتعلن مجيء المسيح وتكميل الدينونة والخلاص .

١٢ ــ تسبحة الجموع الكثيرة مع صوت المياه والرعود (رؤ١٩ : ٦-٨) :

+ « هلليلويا فإنه قد ملك الرب الإله القادر على كل شيء .
+ فلنفرح ونتهلل ولنعطه المجد ،

(*) هذا تصحيح في النص مهم وأساسي .

لأن عرش الخروف قد جاء ،
وعروسه هيأت نفسها (*) ،
وأُعطيت أن تلبس كتاناً (٢) ناعماً بهياً ونقياً . »

وجميع هذه التسبحات التي وردت في أسفار العهد الجديد مكتوبة بلغة عالية ولهجة رصينة ، وهي وإن كانت لا تعتبر شعراً لأنها خالية من أصول الوزن الشعري ولكنها تعتبر نثراً فنياً ذا توازي معنوي أكثر منه لفظي . وقد تخللت هذه المعاني كل الخدمات الكنسية .

ولكن لم تكتف الكنيسة في تسابيحها وألحانها بما جاء في الأسفار المقدسة ، فقد بدأ تأليف التسابيح علَى الأصول المسلَّمة قديماً من المزامير والتسابيح في الهيكل والمجامع منذ العصر الرسولي . ويخبرنا المؤرخ الكنسي يوسابيوس القيصري ، عرَضاً ، عن هذا الموضوع :

[لأنه من ذا الذي لا يعرف مؤلفات إيرينيئوس وميليتو وغيرهما ، التي تثبت أن المسيح إله وإنسان . وكم من المزامير والترانيم كتبها الإخوة المؤمنون من البدء تتحدث عن المسيح كلمة الله وتصرِّح بأنه إله] (*)

ولكن تيقظت الكنيسة مبكراً جداً على التأليف غير الموحى به ، فحرمت كل ترتيلة وكل لحن يؤلَّف خارج الكنيسة وفي غير حدود الأنجيل التي أسمتها (الألحان الخصوصية) وذلك في مجمع لاوديكية (اللاذقية) ٣٦٠م- القانون رقم ٥٩ .



(*) هذا تصحيح في النص مهم وأساسي .

(٢) البز هو نص حرفي لكلمة « بوص مبروم » وهو كتان مصري .

(*) *Eusebius, E. H., 5, 28.*

٤ ــ نصوص كنسية

أول تسبحة وصلت إلينا من التراث الكنسي ذات وزن شعري محكم من وضع القديس كليمندس الإسكندري ، وقد ألَّف كثيراً من الترانيم الكنسية للدفاع عن الإيمان ضد الغنوسطيين وأشهرها : « **تسبحة المسيح المخلِّص** » . وقد جاءت في نهاية كتاب البيداجوجوس أي « المربِّي » وترجمتها كالآتي :

+ ١ . يا لجام المُهر غير المروَّضة ، ــ
وجناحيّ الطيور غير الشاردة ، ــ
دفة السفنِ الأمينــة ، ــ
راعي الخراف الملكيــة .

+ ٢ . اجمع أطفالك الأطهار، ــ
ليسبحوك بالقداسة ، ــ
و يرنموا بصوت جميل ، ــ
المسيح قائد الأطفال .

+ ٣ . يا ملك القديسين ، ــ
كلمة الآب ، المقتدر والمتعالي جداً ، ــ
ضابط الحكمة ، ــ
دعامة الأعمال الأزلية ، ــ
فرح الدهور، ــ
مخلص البشر، ــ
الراعي وصاحب الحقل ، ــ
الدفة واللجام ، ــ
والجناح السماوي لسرب الطيور المقدسة .

+ ٤. يا صياد الناس ومخلصهم ،—
هؤلاء السمكات التي كانت في بحر الخطيئة ،—
أنت ، بحياة وديعة ،—
إنتشلتهم من الأمواج العاتية .
+ ٥. قُدْ ، أيها الراعي غنماتك الناطقة ،—
واَهْدِ أطفالك الأطهار أيها الملك القدوس .
+ ٦. آثار أقدام المسيح ،—
تصنع الطريق إلى السماء .
+ ٧. أيها الكلمة الأزلي ، الدهر الذي بلا قياس ،—
النور الخالد ، ينبوع الرحمة ،—
صانع الحق ، والحياة المجيدة ،—
للذين يسبحون الله ،—
أيها المسيح يسوع .
+ ٨. أيها اللبن الإلهي الحلو ،—
المنسكب من ثدي الحكمة عروس النعمة .
نحن ، الأطفال الذين بأفواهنا الصغيرة ،—
نغتذي على الندى الجديد ،—
المتساقط لنا من حضن الكلمة .
+ ٩. هيا ننشد معاً تسابيح شكر جلية ،—
بألحان مخلصة للمسيح الملك ،—
كتقدمة ثمينة ،—
عِوض ما أعطانا من تعاليم الحياة .
+ ١٠. هيا نرنم معاً بصفاء ،—
للمسيح الطفل القوي ، يا خورس السلام أولاد المسيح ،—
أيها الشعب الطاهر ،—
هيا نسبح معاً ،—
إله السلام .

وواضح من هذه التسبحة أن القديس كليمندس ينتحي الناحية الخفية Mystical فبالرغم من أنها تظهر كتسبحة للأطفال ، إلا أنها في واقعها تحوي تعاليم عالية روحانية ، فالروح البسيطة والنغمة الطفولية فيها قصَدها كمعلم ليجذب بها كافة الناس ، ثم بالتعاليم العميقة يعطي فرصة لمحبي الحكمة والمعرفة أن يغذوا منتهى تأملاتهم العالية في المسيح .

فهو يشير إلى المسيح كلجام للخطاة العنيدين ، وكجناح نعمة للأتقياء الذين أحبوا كنيستهم ولم يشردوا في طريق الشر ، وكمدبِّر لسفينة حياة كل إنسان ، وكراعي النفوس التي طلبت وأحبت ملكوت الله قبل كل شيء ، وكقائد خورس الشاكرين على الأرض .

ثم يوجِّه المؤمنين أنه ليس لهم ملك حقيقي يتبعونه و يعبدونه إلا المسيح ، لأنه قادر على كل شيء ، كذلك يلهمهم ألا يميلوا إلى حكمة الوثنيين أوالغنوسيين لأن المسيح هو ضابط الحكمة ، وليس الحكمة الفلسفية الخالية من الأعمال ، بل هو أساس كل الأعمال الأزلية .

و يوجِّه أنظار المنشغلين بجمال الطبيعة أن المسيح هو فرح الدهور وبهجتها ! ... إلخ

كذلك واضح من الفقرة (٨) أن القديس كليمندس كان يصوِّب تعاليمه نحو الغنوسيين قاصداً أن يوجه للمؤمنين تعاليم عن الحكمة ، إنما في حدود الإيمان المسيحي المستقيم .

ومن هذه التسبحة السحيقة في القدم (القرن الثاني) يتضح لنا مقدار إعتماد الكنيسة منذ البدء على الألحان والتسابيح في إعلان الإيمان الصحيح وممارسته كصلاة بالترنيم .

ومن التسابيح الثمينة أيضاً التي ورثتها الكنيسة تسبحة للشهيد بوليكاربوس أسقف سميرنا ، نطقها بالروح سنة ١٥٦م قبيل نواله إكليل الشهادة مباشرة .

ومن صلوات القرن الثاني التي بلغتنا أيضاً ، ولا زالت الكنيسة اليونانية تسبِّح بها

في خدمة المساء والقداس حتى اليوم : « تسبحة النور البهي » وتسمى φω̄ϲ ἱλάρον « يا نوراً بهياً » وتتلى وقت إشعال المصابيح وترجمتها الحرفية بتقسيمها حسب اللحن :

يا نوراً بهياً لمقدس مجد الآب ... الذي لا يموت
السماوي القدوس المغبوط ... يا يسوع المسيح
إذ قد بلغنا إلى غروب الشمس ... ونظرنا نوراً مسائياً
نسبح الآب والإبن ... والروح القدس
الإله المستحَق في جميع الأوقات ... أن يُسبح بأصوات بارة
يا إبن الله المعطي الحياة ... لذلك العالم إياك يمجد (*)

٥ ـ نشأة الألحان والأوزان في الكنيسة الأولى عموماً

أ ـ ألحان القديس غريغوريوس وسينوسيوس :

المعروف أن التسابيح الأولى في الكنيسة لم تتبع وزناً شعرياً خاصاً ، لأنها كانت مقتبَسة من المزامير المترجمة و بعض مقتطفات مجددة من قانون الإيمان في ذلك الوقت .

وبمجيء عصر قسطنطين الملك توقفت المنافسة المُرة التي كان يقوم بها الفلاسفة الوثنيون مستخدمين الترانيم الموجهة والناقدة في هذا المضمار .

فبانتهاء هذه المنافسة إنتهى عصر التسابيح الموجَّهة نحو الوثنية ، ثم دخلت الكنيسة

(*) إن صلاة الشكر المسائية تُنسب إلى القديس أثينوجينس ، كما ذكر ذلك القديس باسيليوس الكبير في الرأس ٢٩ من ميمره عن الروح القدس كما نصه :
[قد رأى آباؤنا أن لا يتقبّلوا موهبة النور المسائي بصمت ، بل أن يقدموا شكراً في حال ظهوره ولا يمكننا أن نعرف ونقول مَن بين الآباء هو منشيء كلمات صلاة الشكر المسائية ، إلا أن الشعب من زمن قديم يتلوها . ولم يرَ أحداً قط أن من يقول « نسبّح الآب والإبن والروح القدس الإله » يجدّف . ومن رأيي أن هذه التسبحة لأثينوجينس وأنه تركها للذين كانوا معه حرزاً ، وهو مقود إلى الإستشهاد بالنار ، ومن هذا نعلم أي اعتقاد كان للشهداء عن الروح القدس .]

في المصارعة العقيدية ضد آريوس وخلافه مستخدمة أيضاً مجال الأشعار والألحان . ولكن كانت الكنيسة قد أدركت في نفس الوقت أهمية وضرورة الألحان والتسابيح في بناء العقيدة السليمة ، فبدأ منذ ذلك الحين بناء آخر للتسابيح والألحان في كافة كنائس العالم بروح العبادة الصافية .

ومن الأعمال الخالدة التي أخصبت الكنيسة بالأشعار أعمال غريغوريوس النينيزي الذي ألّف أكثر من أربعمائة قصيدة شعرية موزونة ، بعضها مهيأ للتسبيح ، ولكن معظمها لم يأخذ طريقه للإستعمال في الكنيسة وذلك بسبب عمقها وصعوبة أوزانها .

ومن قبله جاء سينوسيوس القيرواني الذي ولد في مدينة القيروان (مسقط رأس القديس مرقس الرسول) في ليبيا سنة ٣٧٠م ، ثم رحل إلى الإسكندرية وتتلمذ لهيباشيا الفيلسوفة الوثنية ، ثم رحل إلى أثينا وحزن عليها لأنه وجد أن الفلسفة قد غربت عنها ، وبعد ذلك عيَّنه مواطنوه الذين من الخمس مدن سفيراً عنهم لدى البلاط في القسطنطينية ، ثم غادر وظيفته ورحل إلى الإسكندرية وتزوج هناك من زوجة مسيحية على يد البطريرك ثاوفيلس الثالث والعشرين ، ثم أُختير أسقفاً على الخمس مدن ونجح في رعاية بلده وألّف أشعاراً وألحاناً موهوبة .

وقد احتفظ لنا التاريخ بعشرة ألحان له : **الأول** عن الثالوث ، **والثاني** عن **تسبحة الصباح** مقدّمة للآب والإبن والروح القدس ، **والثالث والرابع** عن التوحيد والتثليث ، **والخامس** و يعتبر أعظم ألحانه ؛ عن إبن الله المولود من عذراء ، **والسادس** في نفس المعنى ، **والسابع** عن زيارة المجوس وشرح هداياهم التي فيها **يذكر بإفتخار أنه أول من وضع لحناً عن المسيح يُنشَد على القيثارة** ــ وهذا هو بيت القصيد بخصوص إسهابنا في عرض حياة هذا الأسقف الليبي **كتاريخ لبدء اللحن الموزون على الموسيق .**

أما اللحن **الثامن** فعبارة عن صلاة « لإبن العذراء » واللحن **التاسع** عن نزول المسيح إلى الهاوية وهو أقوى أشعاره .

أما **العاشر** فشكوك في صحة نسبته إليه .

ومن أهم مميزات غر يغور يوس النيز ينزي وسينوسيوس الليبي أمانتهم للوزن الشعري القديم ، غير أن ألحان غر يغور يوس تمتاز بتمسُّكها بالتقليد ، كما يظهر فيها نوع جديد من الوزن المعتمِد على الضغط اللفظي لبعض الكلمات ، وهذا يشابه التسابيح القبطية القديمة الواردة في التسبحة .

ب ــ ألحان القديس أفرآم السر ياني :

و بظهور القديس أفرآم السر ياني المُسمّى بقيثارة الروح القدس ، دخلت الألحان الكنسية في جميع الشرق عصراً جديداً من الخصب الروحي ، فبقدر ما كان القديس أفرآم متعمقاً في الروح هكذا كان في الألحان لأنه كان يعيش في ألحانه . و بذلك نستطيع أن نقول أنه لا يزال يعيش في العالم كله حتى الآن لأن كافة الكنائس الشرقية ، بل والغر بية أيضاً ، أخذت عنه الشيء الكثير. فالقديس أغسطينوس يخبرنا في إعترافاته (١) أن كنائس ميلانو كانت أول من استخدمت الألحان على طر يقة الكنيسة الشرقية في أيام الملكة يوستينا التي إضطهدت القديس أمبروسيوس (٣٨٦م) .

جـ ــ الألحان اللا تينية وتأثرها بالشرق :

على أن الألحان اللا تينية لم تكن أكثر قِدماً ، فمن المحقق أن القديس إيلاري الذي من بواتيه الذي تنيّح سنة ٣٨٦م ، كان أول مؤلِّف رسمي للألحان اللا تينية وواضع أسسها في الكنيسة اللا تينية بحسب رواية چيروم ، ولا تزال بعض الألحان المشهورة تُنسب إليه(٢) ولا تزال الكنيسة اللا تينية تذكره عندما تسبِّح « تسبحة الصباح الجماعية Lucis Largitor Splendide التي مطلعها :

(1) *Conf. of St. Aug. IX 7.*
(2) *Isidore of Seville : De off. eccl.*

[يا أبا المجد والنور
المشرق بالبهاء والسرور
لقد ولّت ساعات الظلام
وحلّت أنوار الفجر بسلام ...]

وكذلك تسبحة العنصرة " Beata nobis guadia "

ومن بعده أمبروسيوس الذي أخصب اللحن اللا تيني ، بمثابة أفرآم في الشرق . فالقديس أمبروسيوس أمير اللحن اللا تيني . وألحان أمبروسيوس كثيرة ، فعددها يربو على المائة ولكن المعتقَد أن الألحان الموثوق بها أنها من تأليفه إثنا عشر فقط . ومن أجمل مقطوعاته لحن « تعالَ أيها المسيح الفادي » " Veni Redemptor " ومطلعها كالآتي :

[تعالَ يافادي الأرض كلها
تعالَ حقق ميلادك العذري لها
تعالَ فالأوطان والأزمان جميعاً تكرمك
والكل يشهد لميلادك وألوهيتك ...]

ومن بعد أمبروسيوس جاء أغسطينوس وأخصب اللحن بتأليفه ، فقد ألّف لحن « القيامة » المشهور " Cum rex gloriae christus " ولحن « الفردوس » وغيرها مما ملأ بها صفحات كتبه . وغيرهم من آباء اللا تين الذين برعوا في الألحان... وظل اللحن في الكنيسة اللا تينية خصباً نامياً من القرن الرابع حتى السادس عشر وكان أكثر واقعية وروحانية من الشعر اليوناني ، وكان بسبب تعلقه بشخص المسيح و بالخلاص أكثر حرارة ، وهو الذي فتح الباب للتراتيل البروتستانتية ولاهوت ولسلي الشعري .

د ــ الألحان السر يانية :

أما الكنائس التي لا تزال العبادة فيها باللغة السر يانية ، سواء في سور يا أو العراق والهند ، فكل التسابيح والخدم مصبوبة صباً في روح القديس أفرآم . فكل مسيحي

سور ياني تلازمه روح القديس أفرآم منذ صلوات المعمودية التي تنفتح أذنه عليها حتى ألحان القبر.

و بسبب خصب معانيها الروحانية وسموّها أخذت منها الكنيسة السر يانية بلا شبع في كل مناسباتها ، حتى صارت الألحان في خدمة الأسرار و بقية الخدم الإلهية تغطي الجزء الأعظم من الوقت والصلاة والإنتباه .

هـ ــ الألحان البيزنطية :

أما الكنيسة اليونانية فقد اقتبست في ألحانها وفي طقوسها الشيء الكثير من روح الترتيبات والمناسبات السر يانية وألفاظها ، ولكن تعذّر عليها إقتباس الأوزان لإتساع الفوارق اللغوية . ولم تدخل الكنيسة اليونانية عصر اللحن الحقيقي إلا في نهاية القرن السادس على يد أناتوليوس أسقف القسطنطينية (٤٥٨م) ، ثم أندراوس الكر يتي (٦٦٠ــ٧٣٢م) ، ثم جرمانوس الشماس الرائع (٦٣٤ــ٧٣٤م) ، و يوحنا الدمشقي (٧٨٠م) ، وقزماس الأورشليمي المسمَّى بالمغنّي (٧٨٠م) ، وثيوفانس (٧٥٩ــ٨١٨م) ، وتيئودور من ستوديوم (٨٢٦م) ، وميتوديوس (٨٤٦م) ، و يوسف من ستوديوم (٨٣٠م) ، ومتروفانوس من سميرنا (٩٠٠م) ، و يوثيوس (٩٢٠م) .

و ــ علاقة الأوزان السر يانية والقبطية بالأوزان العبرية:

والملاحَظ في الألحان والتسابيح الشعرية في السر يانية أنها متأثرة بالطر يقة اليهودية القائمة على التوازي المعنوي ، التي فيها ترد الفكرة على الفكرة في فقرات ذات وزن مكرر أو مطابق . وهذا ما نراه واضحاً في أنواع التسابيح القبطية في الأبصلمودية المقدسة السنوية .

ولكن يختلف التسبيح الشعري في السر يانية عن اليهودية من حيث كون الفقرات أكثر ضبطاً لتكون نهاية المقاطع الهجائية متقابلة في الوزن . وهي بذلك تقترب قليلاً من الشعر الغربي إلا أنها تعوزها القافية . ولكن يظل الشعر في غالبية اللحن السر ياني يمتاز

بأن جوهر الوزن فيه هو « الوزن الفكري » ، وهنا يتقارب قليلاً مع كثير من الألحان القبطية القديمة ، و بالأخص في الثيئوتوكيات التي على الأيام .

غير أننا نجد في اللحن السر ياني أن السطر الذي يقع فيه الوزن في نهاية الفقرة كلها ، يلتزم فيه تحديد عدد المقاطع لتساوي وتطابق ما قبلها . وهذا في النادر ما نجد له مثيلاً في اللحن القبطي . والسطر الشعري في التسبيح السر ياني قصير لا يز يد عن إثني عشر مقطعاً صوتياً وقد يُختزَل إلى أر بعة .

و يُعتبر القديس أفرآم أول من أدخل التنوع وضبطه ، وأهم أوزانه الشعر ية يقع على وزن الخمسة والسبعة مقاطع . وأشهر ألحانه « لحن نصيبين » و يقع وزنه على السبعة مقاطع ، وهو نشيد أكثر منه لحناً . وجميع ألحانه الكنسية قصيرة المقاطع محددة الأوزان يسهل حفظها ...

ولكن ألحان أفرآم أقرب إلى الحزن والندم وتذكر العذاب الآتي أكثر منها إلى بهجة الخلاص والعزاء ورجاء المجد الآتي ...

وقد إقتبس أفرآم السر ياني كثيراً من أوزان المقطوعات التي أشاعها المبتدع بارديسانس لترو يج مبادئه المنحرفة هو وإبنه هارمونيوس من بعده ، حتى يلهي الشعب عن المعاني المضللة كتناسخ الأرواح وخلافها إلى معاني أرثوذكسية صحيحة .

وقد خلف القديس أفرآم في تأليف الألحان الشعر ية إسحق الأنطاكي في منتصف القرن الخامس وكذلك يعقوب الرومي فيما بين النهر ين (٥٢١م) .

ز ــ الكنيسة القبطية نقطة وصل هامة في تاريخ اللحن الكنسي في العالم كله :

منذ القدم ومن المصادر التاريخية التي خلفها المؤرخ اليوناني هيرودوت [1] (٤٨٤-٤٢٥ق.م) عن موسيقى قدماء المصر يين مثل « مراثي لينوس » ، و« تسابيح

---

(1) Hist. II, 60, 79 & Plautarch de Iside 17 Cited by Interp. Dict.

النساء في موكب أوزوريس » ، تحقق العلماء أن الأوزان الموسيقية للتسابيح المصرية القديمة مماثلة للأوزان الموسيقية في التسابيح العبرية وخصوصاً في التسابيح الشعبية العامة .

أما في العصر المسيحي فظل هذا التشابه قائماً ولكن غير ملتفت إليه ، حتى تيقظ العلماء فجأة على غرابة التشابه بين الألحان الكنسية في الغرب (الغريغورية وغيرها) وفي الشرق أيضاً ، وبين التسابيح العبرية .

وأول من لفت نظر العالم إلى ذلك هو القديس أمبروسيوس مؤكداً أن الألحان الكنسية بجملتها من ألحان الهيكل (١) ، ولكن كان أمبروسيوس في هذا التأكيد مبالغاً والسبب في ذلك أنه كان يجهل نقطة الوصل أو نقطة الإنتقال بين موسيقى الهيكل وموسيقى الكنيسة .

وقد ظل العلماء منذ أيام القديس أمبروسيوس يبحثون في هذا التشابه الهائل بين ألحان الكنيسة والألحان العبرية ، وقد تبارى في مضمار هذا البحث علماء مسيحيون كثيرون مثل :

Padre Martini معلم موزار ، Amedee Gastoua الفرنسي ، ثم Peter Wagner ثم Egon Wellesz زعيم اللحن البيزنطي ؛ ومن علماء اليهود : Manuello of Rome المعاصر لدانته الذي قال عن الألحان المسيحية بلهجة يهودية ناقدة حاقدة لاذعة :

[ماذا يقول علم الموسيقى للمسيحيين (بخصوص ألحانهم) ؟ يقول : أنا مسروقة نعم أنا مسروقة من هناك من بلاد العبرانيين !!]

وجاء من بعده العالم اليهودي : (1815 - 1880) Samueel Naumbourg الذي ألف كتاباً عن « ألحان إسرائيل » حقق فيه التشابه الكبير بين ألحان الكنيسة وألحان إسرائيل ، وكذلك أيضاً جاء العالم اليهودي A. Z. Idelsohn أشهر موسيقي يهودي في جيله ، وحقق بالمثل التشابه القوي بين ألحان العبرانيين القديمة وألحان الكنيسة المعاصرة .

---

(1) Interp. Dict. p. 464.

ولكن لم يستطع ولا واحد من هؤلاء جميعاً أن يكتشف سر هذا التشابه .

إلى أن توصل العلماء المعاصرون لحركات الإصلاح والنهضات الدينية الأخيرة في أوروبا إلى إكتشاف هذه الصلة السرية مبدئياً في كنائس الشرق .

أما بطل هذا الإكتشاف — على حد تعبير المؤرخين (١) — وهو G. A. Villoteau (١٧٥٩-١٨٣٩) العالم الموسيقي الذي إشترك في البعثة العلمية المرافقة لحملة نابليون على مصر ، حيث أجرى بحوثه على الموسيقى السريانية لأول مرة ، وخلص بنتائج لا يتصورها العقل . وقد أفرد في كتابه فصلاً خاصاً عن الموسيقى التقليدية العبرية في مصر أي المستخدمة لدى اليهود المستوطنين في مصر وفلسطين أيضاً . وصار كتابه بذلك حجة في دراسة الموسيقى المقارنة في هذا الميدان ، كما أبرز في بحوثه ، بتدقيق ، العوامل الأصيلة المتوطنة للموسيقى المصرية والسامية .

ولكن للأسف الشديد ظلت هذه البحوث حتى الآن سجينة أوراقها ... ولم يتقدم أحد من العلماء في مصر أو في غيرها خطوة واحدة لدراسة هذه الأبحاث وتطبيقها على الألحان الكنسية .

ولكن من العوامل التي نبهت العلماء ، والتي لا تزال تلح على المزيد من العناية بهذا الموضوع ، إكتشاف بردية حديثة في منطقة البهنسا بصعيد مصر (٢) معروفة باسم « بردية أو لحن أكسورينكس » أي « لحن البهنسا » وهي من القرن الثاني وقد وجدوا فيها لحناً كنسياً موقعاً على إشارات موسيقية ، وقد أُعتبر هذا اللحن أقدم لحن مسيحي في العالم مدون على نوتة !!

وقد نقلها على النوتة الحديثة العالم الموسيقي P. Wagner (انظر ص٩٤) . أما ترجمتها العربية فهي كالآتي :

---

(1) Interp. Dict. p. 464.

(2) Interp. Dict. Vol.3 p. 467.



[كل خلائق الله العظيمة ، لا يمكن أن تقف صامتة ، ولا النجوم الحاملة للأنوار يمكن أيضاً أن تتوارى ، كل الأمواج التي تعج بها الأنهار تسبح الآب والإبن والروح القدس (١) ، وكافة القوات تشترك معها آمين آمين . . ، (٢) الحكم والسبح والتمجيد للواحد الواهب كل صلاح آمين آمين (٢)]

وقد نشرنا صورة للنص الموسيقي الصوتي لهذا اللحن أنظر أعلاه

(١) يقول العلماء أن الذكصا أي تمجيد الآب والإبن والروح القدس لم تعرف في كنائس الغرب والشرق قبل القرن الرابع ولكن من هذه البردية يتضح عدم صحة هذا القول .

(٢) يلاحظ هنا تكرار آمين مرتين وهي الطريقة العبرية القديمة في إنهاء مزامير البركة والمجد إنظر مز ٤١ ، ٧٢ ، ٨٩ ، ١٠٦ .

وواضح أن هذا اللحن مأخوذ من مز ٩٣ : ٣ ، ٤ ؛ مز ١٤٨ : ٤ الذي فيه يذكر أن المياه تسبح الله ، ومن مز ١٩ : ١ ، ٢ الذي فيه يذكر أن السماء والنجوم تسبح الله .

كما يلاحظ أن الذكصولوجية الأخيرة أرثوذكسية بكل معنى الكلمة ، أما تكرار « آمين آمين » مرتين فقط فهو طقس ذكصولوجية المزامير الأصلي (انظر نهايات الخمسة كتب في سفر المزامير ٤١ : ١٣ إلخ)

وللأسف فقد حاول العلماء تجريد هذا اللحن من صفته القبطية ونسبوه إلى الألحان اليونانية زوراً ، ربما بسبب أنه مدون باللغة اليونانية . ولكن معروف أن آباء مصر العلماء كتبوا وألّفوا منذ القرن الثاني حتى القرن الخامس باللغة اليونانية (١) . ولكن الذي ينفي يونانية هذا اللحن نفياً قاطعاً هو توقيعه على النوتة ، إذ يظهر منها بمنتهى الوضوح خروجه عن الأصول الموسيقية اليونانية الأولى في توقيع الألحان ، فبينما توقيع الصوت في الأصول اليونانية يلتزم بنغمة واحدة One tone ، أي بُعد موسيقي واحد لكل مقطع لفظي ، نجد أن هذه القاعدة مكسورة نهائياً في « لحن البهنسا » وبالأخص في « آمين آمين » الأخيرة ، ومن هنا نرى أن هذا اللحن ليس يونانياً موطناً فالعنصر القبطي متأصل فيه بالرغم من اللغة اليونانية المدون بها .

وهكذا نستخلص حقيقة غاية في الأهمية ، وهي أن توقيع الألحان الكنسية على النوتة كان أسبق الكنائس إليه هم الأقباط ، وبالتالي فالألحان القبطية ألحان فنية دقيقة مما يثبت رسوخها في الكنيسة منذ هذا العصر السحيق أي القرن الثاني !!

• • •

(١) ورد في تاريخ بالليديوس عن الرهبان في سيرة أغريس البنطي ، أنه كان يجيد النساخة على طريقة « أكسور ينكس » ومعروف أن أغريس كان بنطياً يتكلم و يكتب اليونانية فقط ، ومنها نستدل أن البهنسا كانت مركزاً ثقافياً وهذا ما تشير إليه كافة الأبحاث الأثرية .

أما بداية الإلتحام بين التراث المصري الفرعوني القديم للموسيقى مع التراث العبري الهيكلي للتسبيح وإنشاد المزامير، فقد تم منذ بشارة مارمرقس الإنجيلي عندما تقابل اليهود الأسكندريون المتنسكون والعابدون المتخصصون في التسبيح والإنشاد مع الأقباط الفراعنة المتخصصين في موسيقى الآلهة بأسرارها الفرعونية ، وذلك في كنيسة واحدة ليتقبَّلوا جنباً إلى جنب البشارة المفرحة بالمسيح الواحد « نوراً للأمم ومجداً لإسرائيل » !!

ولكن لم يكن هذا الإلتحام بين الموسيقى الفرعونية (الصوتية) والموسيقى العبرية (الصوتية أيضاً) غريباً في شيء ، بل كان إلتحام المثيل بالمثيل عمقاً وأصالة ، فالتقارب بين الإثنين شديد ومنسجم . لذلك يستحيل بأي حال من الأحوال أن يقال أن اللحن القبطي مأخوذ من العبري أو ناقل عنه ولا في هزة واحدة من هزاته المبدعة ، ولكن كل ما يمكن أن يقال هو أن اللحن القبطي توقَّع على الطرق المستتبة في إنشاد المزامير بالعبرية ، ولكن ظل محتفظاً بروحه وأوزانه القبطية الأصيلة ...

ولكن بينما بقيت الكنيسة القبطية حافظة ومتحفظة على ما تسلمته من الآباء الموهوبين الذين اضطلعوا بتطبيق الألحان القبطية على المزامير والصلوات الأولى في أضيق نطاق دون أي تخريج أو تأليف جديد لا في الأوزان ولا في الطرائق ، إذ بالكنيسة الغربية التي أخذت عنا تنطلق في هذا الميدان تطبق وتؤلف وتستخرج من الأصول الأولى أوزاناً وطرائق بلا عدد ...

ملاحظة لابد منها : في نهاية حديثنا عن الألحان القبطية من جهة أصولها الأولى وأنواعها وتوقيعها الموسيقي الصوتي ، نستطيع أن نقول بكل ثقة أن هذا الموضوع يفوق قامتنا بلا قياس ويحتاج إلى عمل أكاديمي وبحوث واعية وإخلاص وموهبة ، حتى يمكن كشف أعماق هذا السر الكبير (المكنوز داخل الكنيسة القبطية) وتقديمه للعالم كله وللشعب ، واضح المعالم بأصوله الفنية حتى يغتني به الإنسان المسيحي في كل مكان .

٦ ــ التسابيح والألحان القبطية

أ ــ بداية تأليف الألحان الكنسية وضبط نغماتها وأوزانها :

يندهش الإنسان إذ يعلم أن الألحان القبطية نشأت مع الكنيسة نفسها ، وتاريخ اللحن الكنسي يبدأ مع مارمرقس في الأسكندرية وأثناء حياته ، بل ومما يزيد الإنسان إندهاشاً وفرحاً أيضاً أن يعلم أن الألحان القبطية ألحان أصيلة ، وقد ضُبطت أنغامها وأوزانها مرة واحدة تقريباً في عصر من أزهى العصور الروحية للكنيسة وهو عصرها الرسولي الأول ، عصر إنسكاب المواهب بلا حدود .

وقصة الألحان والتسابيح القبطية يشير إليها أربعة مصادر :

ــ المصدر الأول : مصدر تاريخي موثوق به عن تسجيلات شاهد عيان ؛
ــ المصدر الثاني : مصدر روحي ينقل القصة بالتواتر على أيدي أصحابها وورثتها ؛
ــ المصدر الثالث : عالم ومؤرخ كنسي وناسك زار مصر وشاهد بنفسه حياة أبناء كنيستها ؛
ــ المصدر الرابع : مخطوطات بردية من القرون الأولى .

المصدر الأول :

يقص علينا المؤرخ الكنسي المشهور الأسقف يوسابيوس القيصري ــ نقلاً عن العلاّمة فيلو المؤرخ اليهودي المعاصر للرسل ، فالمعروف أن فيلو قابل بطرس الرسول في روما عن رواية يوسابيوس ــ صورة واقعية عن بداية إنتشار المسيحية في مصر في الأربعينات من القرن الأول ، ويركِّز بالذات على الجماعات التي قبلت الإنجيل بحرارة روحية وإحساس نسكي ، وإنطلقت للعبادة خارج مدينة الأسكندرية حول بحيرة مريوط . وقد حاول بعض العلماء أن يلقي ظلاً من الشك في إمكانية قيام هذه

الجماعات المسيحية بهذه السرعة ، فأرجعوا القصة إلى جماعة يهودية كانت تقطن هذه المناطق .

ولكن فوق أن يوسابيوس نفسه يعود و يؤكد أنهم كانوا جماعات مسيحية ، فهناك شهادة من نفس هذه الجماعات تثبت صحة رواية يوسابيوس وتشهد لتأكيداته ، وصلت بالتواتر على أيدي الرهبان المتسلسلين من هذه الجماعات ، ونقلها القديس كاسيان في تسجيلاته عن تاريخ بداية وضع نظام الصلوات . كما و يؤكد المؤرخ سوزومين أن الجماعات التي كانت تتعبد بنسك رهباني في الأديرة التي كانت حول بحيرة مريوط ، كانت هي الجماعات المسيحية الأولى التي من أصل يهودي وتنصرت وعاشت بمعظم طقوسها اليهودية الأولى التي لا تتنافى مع المسيحية (*)

وسنسرد هنا وصف فيلو اليهودي لهذه الجماعات كما جاءت في تاريخ يوسابيوس ، وعلى القارىء أن ينتبه إلى أن الوصف يستحيل قطعاً أن ينطبق على جماعة يهودية وخصوصاً أن فيلو رجل يهودي متعمق في اليهودية ، ولم يُشِر قط أي إشارة تفيد أنهم كانوا يهوداً بل بالعكس يلمّح في أماكن كثيرة أنهم غير يهود ، وأنهم هرعوا للوحدة والعبادة والنسك خارج كل مدينة وليس الأسكندرية فقط ، وهذا يتنافى قطعاً مع إمكانيات اليهود وتوزعهم السكاني ، وفي مقدمة كلامه يوضح أنه كان يحترم طريقة معيشتهم لأنهم كانوا يراعون كثيراً من عوايد العبادة اليهودية و يفسرون الناموس ، ولكن عندما أشار إلى آبائهم الخصوصيين لم يعتبرهم آباء اليهود مشيراً بذلك إلى الرسل . وعند ذكر كتبهم المقدسة الخاصة لم يعتبرها أسفاراً يهودية ، بل إعتبرها آثاراً من آبائهم مشيراً إلى الأناجيل و بعض الرسائل .

إذن فما لاشك فيه أن بداية المسيحية في مصر دخلها العنصر اليهودي ، لأن المعروف أن اليهود الأتقياء المنتظرين خلاص الرب هم أول من قَبِل المسيحية في كل بلاد العالم ، وكان ، عن طريق هؤلاء اليهود المتنصرين ، أن بدأت العبادة تأخذ شكلها البدائي الذي كان مستقراً في الجامع من قراءة أسفار وشرحها وتفسيرها وصلوات السواعي وتسابيح المزامير.

(*) Sozom. E. H. I. 13

يقول يوسابيوس نقلاً عن فيلو:

نص رقم ٥ :

[إنهم عندما يبدأون طريقة حياة الفلسفة (الفلسفة كانت تطلَق على الحياة النسكية) (١) يتنازلون عن كل ممتلكاتهم لأقاربهم ، و بعد أن ينبذوا كل هموم الحياة يخرجون من المدن و يقطنون الحقول الموحشة والحدائق ... تحت تأثير إيمان ملتهب مقتدين بسير الأنبياء ...]

نص رقم ٧ :

و يشهد فيلو بحقائق تشبه تماماً تلك المدوّنة في سفر الأعمال (عن الذين آمنوا أولاً و باعوا ممتلكاتهم ووضعوا أثمانها عند أرجل الرسل) . و بعد ذلك يضيف الوصف الآتي :

[وفي كل مكان في العالم يوجد هذا الجنس(٢) لأنه كان لائقاً أن يشترك اليونانيون والبرابرة فيما هو خير محض ، على أن هذا الجنس يكثر في مصر بنوع خاص في كل من مديرياتها(٣) ، لاسيّما نواحي الأسكندرية(٤)]

نص رقم ٨ :

وأصبح **أفاضل الناس** يهاجرون إليها من كل ناحية كما إلى مستعمرة أطباء في الموقع المشرف على بحيرة مريوط ، فوق تل منخفض ممتاز الموقع بسبب توفر الأمن فيه وجودة مناخه .

---

(1) Sozom., E. H., 1, 4, n.

(٢) أي المسيحيون المدعوون أطباء ـ للروح والنفس (ثيرابيوتا) .

(٣) وكان عددها في ذلك الوقت ٣٦ مديرية .

(٤) لا تزال توجد آثار هذه الأديرة في منطقة برج العرب وما بعدها التي انتشرت منذ القرن الأول حتى صار عددها ٣٠ ديراً تقريباً بين كل دير والآخر خمسة أميال ، وكل دير يدعى بالرقم الذي يحدد موقعه : الأول ، الخامس ، العاشر ، الخامس عشر ، وهكذا . وهذه المنطقة كلها ذات مياه قريبة من سطح الأرض صافية وعذبة جداً .

نص رقم ٩ :

وفي كل بيت من بيوتهم (بيت صلاة) ، يوجد مكان مقدس يُدعى قدساً (هيكلاً) حيث يؤدون أسرار الحياة الدينية في عزلة تامة ، ولا يُدخلون إليه أي شيء من الطعام أو الشراب أو حاجات الجسد ، بل الشرائع فقط وأقوال الأنبياء الحية والترانيم وغيرها مما يساعد على كمال معرفتهم وتقواهم .

نص رقم ١٠ :

وكل الفترة من الصباح إلى المساء هي وقت رياضة لهم لأنهم يقرأون الكتب المقدسة و يفسِّرون فلسفة آبائهم بطريقة رمزية .

نص رقم ١١ :

ولديهم أيضاً كتابات من القدماء مؤسسي جماعاتهم الذين تركوا آثاراً كبيرة رمزية وهؤلاء يتخذونهم قدوة لهم و يقلدون مبادئهم .

نص رقم ١٢ :

يقول يوسابيوس أن هذه الكتابات هي الأناجيل وكتابات الرسل وربما تفسير بعض النبوات القديمة ورسالة العبرانيين ورسائل بولس الرسول .

نص رقم ١٣ :

وهكذا لا يقضون وقتهم في تأملات فحسب بل أيضاً **يؤلفون الأغاني والترانيم لله بكل أنواع الأوزان والألحان و يقسِّمونها بطبيعة الحال إلى مقاييس مختلفة .**

نص رقم ١٦ :

وإذا وضعوا « الضبط » كأساس للنفس ، فإنهم يبنون الفضائل الأخرى فوقه فلا يتناول أحدهم طعاماً أو شراباً قبل غروب الشمس .

نص رقم ١٧ :

على أنه يوجد بعض ــ ممن تتقد فيهم رغبة نحو المعرفة ــ ينسون أن يأخذوا طعاماً مدة ثلاثة إيام .

نص رقم ١٩ :

و يقولون أنه كانت توجد أيضاً نساء ، أغلبهن عذارى متقدمات في السن حفظن عفافهن ، لا عن إضطرار كبعض الكاهنات بين اليونانيين ، بل بالحري باختيارهن مدفوعات بالغيرة والرغبة في الحكمة ، و بسبب تمسكهن بالحكمة لم يوجهن أي اهتمام لملذات الجسد طالبات بذلك ، لا النسل الفاني ، بل غير الفاني الذي تستطيع النفس النقية وحدها حمله من تلقاء ذاتها .

نص رقم ٢٠ :

و يضيف فيلو بتشديد أكثر « وهم يفسِّرون الكتب المقدسة رمزياً بواسطة إستعارات ، لأن كل الناموس يبدو لهؤلاء الناس (يلاحَظ أن فيلو لا يصفهم أنهم يهود مع أنه يتكلم على الناموس !!!) كأنه مجموعة أعضاء حية **تكوِّن الجسم فيها الكلمات المقولة ، أما المعنى المختبيء والمكتنز في الكلمات فإنه يكوِّن النفس ،** وهذا المعنى المختبيء قد درّسته أولاً بصفة خاصة هذه الطائفة التي ترى جمال الأفكار الفائق كما في مرآة من الأسماء » .

نص رقم ٢٢ :

ودوَّن فيلو بصفة خاصة سهرات الليل التي كانوا يمارسونها بمناسبة العيد العظيم ، والرياضة التي كانوا يمارسونها خلال تلك السهرات والترانيم التي اعتادوا تلاوتها ، مبيناً كيف أنه **عندما كان الواحد يرنم في الوقت المحدد كان الآخرون يصغون في صمت ولا يشتركون في الترانيم إلا في آخرها** ــ وكيف كانوا ينامون على الأرض على فراش من القش ، ولا يذوقون على الإطلاق الخمر ولا اللحم ، بل الماء كان شرابهم الوحيد ، ومع الخبز كانت أطيابهم هي الملح والخضروات .

نص رقم ٢٣ :

وعلاوة على هذا يذكر فيلو رتب الشرف للذين كانوا يمارسون خدمات الكنيسة ، ذاكراً رتبة الشماسية ورتبة الأسقفية التي كانت تتقدم على كل ما عداها .

نص رقم ٢٤ :

أما أنَّ فيلو عندما كتب هذه الأمور كان واضعاً نصب عينيه سفراء الأنجيل الأوائل والعوائد المسلَّمة منذ البدء من الرسل ، فهذا أمر واضح لكل واحد .

و يعلق يوسابيوس نفسه على هذه الحقائق في النصين ١٧ ، ١٨ هكذا :

[ونحن نعتبر أن هذه الحقائق التي يرويها فيلو تشير بوضوح و بلا نزاع إلى أبناء شركتنا ولا يمكن أن توجد إلا في ديانة المسيحيين الأنجيلية .

فهذه العادات كلها لا نزال نراعيها إلى اليوم سيا تلك التي نجريها في عيد آلام المخلِّص مع الصوم وسهر الليل ودرس الكلمة الإلهية .]

كل هذا كان يجري في مصر في الوقت الذي بدأ يبشر فيه بولس الرسول من أورشليم وما حواليها إلى الليريكون (رو١٥ : ١٩) ، وذلك في أيام كلوديوس قيصر الذي طرد اليهود من روما (ومعهم أكيلا و بريسكيلا اللذين انحدرا إلى آسيا وأقاما مع بولس هناك)

والواقع أن هذا التسجيل الذي يسجله يوسابيوس المؤرخ (٢٦٤-٣٤٠م) عن فيلو اليهودي ، الذي عاش في زمن مارمرقس وشاهد بعينيه المسيحيين الأوائل ، يعتبر من أهم الوثائق التي تحت أيدينا عن بداية نشأة الكنيسة القبطية بهذه القوة الهائلة وندرس فيها :

+ روح الكنيسة الأولى النسكية العالية التي نتبين فيها هذه الملامح .
+ محبة العزلة للعبادة ودراسة الكلمة والتسبيح .
+ روح التجرد والفقر والتبتل لله .
+ تفرغ للصلاة والسهر ودراسة الكتاب المقدس وتفسير الأسفار روحياً .
+ ولكن أهم ما يعنينا الآن في هذه الرواية كلها هو اضطلاع هؤلاء الآباء بوضع خطوط **الليتورجيا الأولى كلها ، أي الخدمات الإلهية بتسابيحها وألحانها وأوزانها وأوقاتها الليلية والنهارية والتي للأعياد والمواسم** ... لأنه معروف أن مصر من بعد

قبولها الإيمان على يد مرقس الرسول عاشت مدة قرنين كاملين في غاية الهدوء والسلام ، وذلك كان بتدبير الله الحكيم والرحيم في كل شيء ، حتى تتفرغ الكنيسة لغرس تقاليدها الأولى التي تسلمتها من الرسل في التربة المصرية .

ولكن ، كان بسبب تنصر هذه الجماعات اليهودية المتنسكة والمتمسكة بروح العبادة والصلوات أثر كبير على نوع البداية التي بدأتها المسيحية في مصر ، لأن دخول هؤلاء اليهود المتنسكين إلى المسيحية مَهَّد لتقبُّل أعمق معاني العبادة وإستلام التقليد الرسولي بتدقيق ، وقبول تفسيرات العهد القديم بإستنارة والتمسك بصلوات الساعات التي كانت جارية في الطقس القديم ، مع بعض الطقوس التي انفردت بها كنيسة الأسكندرية منذ القرن الأول مثل إقامة صلوات عشية و باكر .

و يرجح جداً أن استخدام البخور و بقية الطقوس الكنسية بدأت منذ القرن الأول عندنا . كما يرجح كثير من العلماء أن الدسقولية موطنها الأسكندرية وأنها هي بعينها تعاليم الرسل مع بعض توسعات أخرى ، يؤكد العلماء أنها كُتبت بواسطة يهود متنصرين من الأسكندرية .

المصدر الثاني :

وهو الرواية التي يرويها كاسيان عن بدء الحياة النسكية والرهبانية كتسليم من مارمرقس نفسه :

[لأنه في **الأيام الأولى للإيمان حينما كان لا يدعى راهباً إلا القلائل الذين يكونون من أفضل الناس ، هؤلاء لأنهم كانوا قد آستلموا منهج هذه الحياة من الإنجيلي مرقس** ـــ صاحب الذكرى المطوَّبة أول من رأس كنيسة الأسكندرية كأسقف ـــ **ليس فقط من حيث الصفات العظيمة التي نقرأها في سفر أعمال الرسل** « وكان لجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً... لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها و يأتون

بأثمان المبيعات و يضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزع على كل أحد كما يكون له إحتياج » (أع ٤ : ٣٢-٣٥) ، بل أضافوا إلى هذه الصفات شيئاً آخر لا يزال أكثر سمواً لأنهم إنسحبوا إلى أماكن أكثر إنفراداً خارج المدن ومارسوا حياة ذات طابع شديد في الزهد والتقوى . في ذلك الزمان حينما كانت الكنيسة كاملة بدون تصدع ، نشيطة يحتفظ أتباعها بفكر أسلافهم ، والإيمان الحار لم يكن يعاني الفتور بسبب التشتت ، إهتم الآباء الأتقياء بعناية كثيرة بأمر الجيل الآتي بعدهم فاجتمعوا معاً ليبحثوا النظام الذي ينبغي أن يُختار للعبادة اليومية عند كافة الأخوة لكي يسلموه إلى من سيأتي بعدهم كميراث للتقوى والسلام .]

وكاسيان إستقى هذه المعلومات من الآباء الكبار القدامى مثل الآب الراهب بيامون القس(١) Piammon وذلك في حواره معه في الكتاب الثامن الفصل الخامس ، وقد جاء ذكر بيامون أيضاً في تاريخ سوزومين (٦ــ٢٩) .

ومن رواية كاسيان يتبين أن النظام الكنسي إستقر أساسه وتدبيره وتحديده منذ الأيام الأولى للإيمان ، وهكذا يتفق كاسيان مع يوسابيوس في تحديد الزمان الذي بدأ فيه التنظيم الكنسي بخصوص العبادة اليومية من إعداد المزامير وطرق خدمتها وألحانها وأوزانها .

المصدر الثالث :

هو القديس چيروم (٣٤٢ - ٤٢٠م) المشهور بأنه عالم ومؤرخ كنسي لا يُضارَع ، الذي ترجم الكتاب المقدس إلى اللاتينية وزار مصر وتنسك فيها وعاش في بيت لحم ناسكاً كل أيام حياته ، يقول چيروم :

[وحمل مرقس إنجيله الذي كتبه وانحدر إلى مصر (في حوالي منتصف القرن

(١) وهو رئيس أحد الأديرة التي كانت على مصب أحد الفروع السبعة للنيل في شمال الدلتا بالقرب من مكان الأسكندرية شرقاً ، في مدينة تدعى « ديوكلوس » ، وهؤلاء الرهبان يمثلون تسلسلاً قديماً قبل آمون رئيس نتريا ومكاريوس رئيس شيهيت .

الأول) وكرز بالمسيح أولاً في الأسكندرية . وكوَّن كنيسة غاية في الإعجاب ، في منهجها التعليمي وطريقة معيشتها النسكية إذ جذب كل المسيحيين إلى إحتذاء مثاله .

وفيلو أعظم اليهود معرفة وعلماً عندما رأى الكنيسة الأولى في الأسكندرية وكانت لا تزال لها صبغة يهودية بدرجة ما ، كتب كتاباً يشرح فيه طريقة حياتهم بصفتها شيئاً يمكن أن تُمتدح به أمته مشيراً كيف أن ما قاله لوقا الرسول (في سفر الأعمال) عن حياة المؤمنين المشتركة ، رآه هو بنفسه في الأسكندرية تحت قيادة مرقس المتعلم] (١)

[وفيلو اليهودي وهو أسكندري المولد (٢٠ق م-٥٥م) من رتبة الكهنوت اليهودي نضعه نحن في مصاف الكُتّاب الكنسيين على أساس أنه وضع كتاباً بخصوص الكنيسة الأولى التي أسسها مرقس الأنجيلي في الأسكندرية ، فكل ما كتبه فيه كتبه لمدحنا ، وذكر فيه أن (المسيحيين) لم يكونوا في ذلك الوقت في الأسكندرية فقط بل في كل المقاطعات ، وقد أطلق على أمكنة سكناهم الجماعية كلمة « أديرة » ، ومن هذا يتبين لنا أن كنيسة المؤمنين بالمسيح في البداية كانت في الصورة التي يحاول الرهبان الآن أن يقتدوا بها ، بمعنى أن لا يكون لأحد شيء خاص به وأن لا يكون أحد ذا أموال أو في حاجة إلى مال ، فكل معيشة الحياة موزعة على المحتاجين لكي توجد فرصة للصلاة وتسبيح المزامير وللتعلم أيضاً وممارسة النسك ...

وقد رحل فيلو إلى روما في أيام الإمبراطور غايس كاليجولا على رأس وفد عن أمته اليهودية ، وفي روما قابل بطرس في المرة الثانية وتحدث إليه وعاش معه في ألفة الصداقة ، لهذا نجده يضفي على أتباع مرقس الرسول في

(1) St. Jerome, Lives of Illustr. men, VIII.

الأسكندرية كل أنواع المديح] (1)

[وبنتينوس الفيلسوف الذي من الرواقيين ـ (إبتدأ يعلّم في الأسكندرية سنة ١٧٩م ومات سنة ٢١٦م) كان ذا بصيرة وذكاء حاد وعلم ، وذلك حسب التقليد القديم الذي كان منذ أيام القديس مرقس الإنجيلي أن الرجال الكنسيين يلزم أن يكونوا دائماً من العلماء] (2)

ومن تسجيلات چيروم نستخلص الآتي :

١ ـ أن الكنيسة منذ نشأتها الأولى وفي عصر القديس مرقس ، أي حوالي منتصف القرن الأول ، كانت كنيسة عجيبة على حد تفسير چيروم ، ذات منهج تعليمي قوي ، وذات منهج نسكي عالٍ ، على مستوى معيشة الرسل أنفسهم .

٢ ـ كانت الكنيسة الأولى تحمل الصبغة اليهودية من حيث التنظيم الطقسي .

٣ ـ أن مرقس الأنجيلي كان على درجة عالية من التعليم ومن الحياة النسكية .

٤ ـ كان التنظيم الكنسي في داخل الكنيسة وطريقة الحياة في الخارج ذات صلة شديدة ، مما استرعى إنتباه فيلو العالم اليهودي .

٥ ـ أن تنظيم الصلوات والتسابيح والتعليم إستقر في مناهج ثابتة منذ أول الكرازة .

٦ ـ فيلو اليهودي كان ذا صداقة ببطرس الرسول وكان معاصراً لمرقس الأنجيلي ، فديحه للكنيسة الأسكندرية يعتبر شهادة لقوة واتساع الروح المسيحية الأولى .

٧ ـ وكان قد استقرَّ منذ أيام مرقس الإنجيلي وصار تقليداً دائماً في كنيسة الأسكندرية ، أن لا يضطلع بالمسئوليات الكنسية إلا المتعمّقون في المعرفة الروحية والإنجيلية على أعلى مستوى ، **مما يثبت أن التنظيم الكنسي بكافة مناهجه بدأ ناضجاً وكاملاً على يديّ مرقس الإنجيلي .**

(1),(2) *St. Jerome, Lives of Illustr. men, XI, XXXVI.*

المصدر الرابع :

إكتشاف برديات قبطية حديثة تلقي ضوءاً على قِدم النظام الكنسي في مصر.

يشير إلى ذلك المؤرخ العالمي الدكتورعزيز سوريال عطية في مقاله عن نشأة الرهبنة القبطية (1) بقوله :

[إتفق عامة الكُتّاب في تاريخ الرهبنة **أن أصول النظام الرهباني المسيحي ظهرت لأول مرة في تاريخ مصر المسيحية خلال القرون الأولى من إنتشار المسيحية** . كما أنهم اتفقوا على أن مؤسس الرهبنة هو القديس أنطونيوس في القرن الثالث المسيحي ، ومع ذيوع تلك النظرية بين جمهور المؤلفين وأخذهم بها لا نرى مندوحة من التحفظ بعض الشيء في معالجة هذا الرأي . لأن إستعراض **محتويات الكتب القديمة في حياة الرهبان في مصر المسيحية تدل دلالة واضحة على أن بذور التعاليم الرهبانية غُرست على ضفاف النيل منذ ظهور الديانة المسيحية بين المصريين .**

وأن انتشار المسيحية في مصر **وانتظام كنيستها على أسس ثابتة الدعائم ، كان أقدم مما تصور مؤرخو المدرسة القديمة** ، فقد ظهر من **الكشوف البردية القبطية الحديثة** وغيرها أن الناس أخذوا بقواعد المسيحية في أواخر القرن الأول ...]

ب ـ روح الألحان القبطية :

حينما حضر إلى مصر الموسيقي العالمي الأستاذ نيولاند سميث بدعوة من الأستاذ

(1) رسالة مارمينا عن الرهبنة القبطية .

الأرخن راغب مفتاح (*) وذلك في مستهل القرن العشرين ، واستمع للألحان القبطية وسجلها على النوتة ، إندهش من عمق الألحان وتعبيرها وأبدى ملاحظات غاية في الأهمية والدقة بخصوص « هارموني » الصوت ، وتميُّزه عن جميع ألحان الكنائس الأخرى في العالم وعدم خضوعه للضبط الموسيقي الآلي . وهذا بالطبع يشير إلى أن مصدر التأليف للحن القبطي ليس موسيقياً آلياً ، و بالتالي ليس مركباً تركيبياً ميكانيكياً ، ولكنه نابع من مصدر إحساسي .

فالملحن في تأليفه كان لا يرتبط بأصول وأوزان وقواعد موسيقية ، بل كان مرتبطاً بمعنى اللحن الروحي يصوره بإحساسه ، وما على الهزات الصوتية إلا أن تخضع للإحساس الروحي لتعبِّر فقط عن المعنى كما تعبِّر كلمات الصلاة عن مشاعر القلب .

وفي الواقع يعتبر التبكير في تأليف الألحان القبطية منذ العصر الرسولي كما تحدده لنا الوثائق السابقة في كاسيان و يوسابيوس ، تفسيراً لعمق الألحان وتعدد أوزانها الهائل المذهل للعقل .

فالكنيسة فيها الآن ما يقرب من مائة وخمسين لحناً هاماً ، عدا ألحاناً أخرى صغيرة بلا عدد وكلها ذات أوزان صوتية دقيقة وعميقة ، وكل لحن يصور معناه تصو يراً يفوق المقدرة العادية ، بحيث يصعب بل و يستحيل تأليف شيء مماثل الآن حتى ومن أعاظم المعلمين .

ومما يلفت النظر أن التأليف المبكر للألحان القبطية كان يعتمد فوق كل شيء و بالرغم من كل شيء ، على الإلهام الذي كان من طابع العصر الرسولي ...

قد يقال أن اللحن القبطي فرعوني الأصل ، ولكن إذ لا نستطيع أن نوافق على هذا القول لا نستطيع أيضاً أن ننفيه ، ولكن الذي نتيقن منه ونجزم به هو أن اللحن القبطي هبة ومعجزة ...

(*) الآن رئيس قسم الألحان بالمعهد العالي للدراسات القبطية ، وقد عاش هذا العالم القبطي كل حياته لخدمة الألحان القبطية وأنفق فيها أموالاً طائلة منذ فجر شبابه ولولاه ما كانت الألحان القبطية أخذت مكانها وسط بحوث ودراسات المعهد العالي .

جـ ــ التسبيح باللحن يتخلل العبادة كلها :

الترنيم كما نراه في عبادة الكنائس غير التقليدية يختص بالمُصلِّي ، إذ ينعش روحه و يعده للصلاة و يفتح ذهنه لقبول كلمة الوعظ ...

ولكن اللحن في الكنائس التقليدية ــ و بوجه خاص في الكنيسة القبطية ــ هو بحد ذاته عبادة ، سواء كان الشخص يقول اللحن بفمه أو يسمعه و يشترك فيه بقلبه ، لذلك لا يوجد وقت مُخصص للتراتيل في العبادة داخل الكنيسة القبطية ، فالكاهن يصلي باللحن ، والشماس ينادي و ينذرو يساعد باللحن ، والشعب يستجيب و يشترك و يرد باللحن ، من أول الخدمة إلى آخرها . فالرسائل يُقدَّم لها باللحن ، والمزمور يُقرأ باللحن ، وحتى الإنجيل يُقرأ باللحن . فاللحن هو الجزء المخصص للروح في الطقس لتخدم به الله بكل مشاعرها وعواطفها .

وقد تسجل اللحن في الطقس الكنسي بكل هزاته وأوزانه وطبقاته ، لذلك يعتبر من المواهب الحية التي قبلتها الكنيسة بالإلهام في العصر الأول ثم تُسُلِّم إلينا حياً كما هو من جيل إلى جيل ، في أمانة التقليد .

و بذلك يُحسب اللحن أنه جزء من أسرار الكنيسة ، وموهبة حية يمكن قبولها بالتعليم ... والذي يتعلم اللحن يصبح عموداً في الكنيسة و يُحسب خادماً موهو باً للأقداس ، وحاملاً لسر من أعزِّ أسرارها وهو سر التسبيح لله . كما أنه يستحيل أن يُقدَّم الكاهن لرتبة الكهنوت ولا الشماس لرتبة الشموسية إذا لم يكن متقناً للحن في كل ما يخصه من الخدمة . أما الشعب فيوجد له دائماً ، وفي كل زمان ومكان ، من يقود له اللحن ليشترك في الخدمة ...

وهكذا نرى اللحن عاملاً كنسياً سر ياً لتوحيد الكنيسة كلها وجعلها جسماً واحداً متجاوب الحركة والإنفعال ...

ء ــ ترتيل المزامير في الكنيسة :

النظام المتَّبع في الكنيسة الآن من حيث صلاة باكر (رفع بخور) بألحانها ، وصلاة

عشية (رفع بخور) بألحانها كل يوم هو نظام أصيل وقديم جداً ، نجد نصه في تعاليم الدسقولية :

[وعلّم يا أسقف الشعب وأمرهم بملازمة البيعة كل يوم باكراً وعشية لكي لا يتخلفوا عنها البتة ، بل يجتمعون إليها في الوقت المعين فلا تنقص الكنيسة بتخلفهم ولا تدع جسد المسيح ناقصاً من أعضائه ... بل اجتمعوا كل يوم باكراً وعشية إلى البيعة **لتصلّوا وترتلوا المزمور (الثاني والتسعين)** (يا الله إلهي إليك أبكّر...) **في باكر، والمزمور المائة والأربعين** (ليكن رفع يديّ كذبيحة مسائية ...) **في عشية ، لاسيا يوم السبت و يوم القيامة الذي هو يوم الأحد ، فإنه يجب عليكم أن تجتمعوا فيه في البيعة كثيراً جداً لترسلوا إلى فوق تمجيداً لله]**

الدسقولية ــ الباب العاشر

أما كرامة التسبيح والترتيل في الكنيسة فكانت عظيمة وكرامتها بدرجة الأسرار لأنها ذبيحة قلبية ، لذلك تحذر الدسقولية الأسقف نفسه من محاولة التشاغل عنها أو إهمالها :

[وإذا جلست يا أسقف ودخل واحد في شكل حسن مملوء مجداً في سيرته غريب أو بلدي فاستمر أنت يا أسقف تتكلم بكلام الله ، **أو تسمع المرتل** والقارىء ، ولا تدع عنك خدمة الكلام لأجل مراءاة ذلك الإنسان أو تدعوه إلى أول المجلس . بل كن ثابتاً في هدوء ، ولا تقطع كلامك ، ولا تدع عنك **سماع كلام الفصل أو الأبصلمودية** ، بل ليقبله الإخوة إليهم بأمر الشمامسة]

الدسقولية ــ الباب العاشر

أما مواعيد خدمة الصلاة والتسبيح في باكر وعشية عموماً ، فيتكلم عنها القديس كليمندس (٣٠-١٠٠م) ــ صديق بطرس الرسول ورفيق بولس الرسول ــ في رسالته الأولى بإعتبار أنها مسلّمة من الرب :

[هذه الأمور التي استعلنت لنا بمعرفة إلهية ينبغي **أن نتممها في طقسها المرسوم التي أوصانا بها الرب أن نكملها في أوقاتها المعينة ، فإن الرب جعل تقدمة القرابين والخدمة لتُكمَّلا معاً أمام الله ليس بإهمال أو بدون نظام ولكن في الأوقات والساعات المحددة** ، أما أين تقدم هذه ؟ وعلى يد مَنْ ؟ فالرب رغب بنفسه وحددها بإرادته العليا حتى أن كل شيء يكون بتقوى حسب مسرته الصالحة لكي يكون مقبولاً أمامه .] [1]

أما عن الترتيل والألحان في وقت إقامة القداس ورفع القرابين فنقرأ عنها أيضاً في الدسقولية :

[و يبدأ الأسقف بخدمة القداس هكذا يقول أولاً صلاة الشكر و بعد ذلك يجلس الشعب و يقول لهم تأويل كلام الكتب المقدسة و يعلمهم إياه كما يصلح لثبات سيرتهم و يعرّفهم مذهب الصلاح . **ثم يرتل الأبصلمودية (المزامير باللحن) التي هي التراتيل من كتاب المزامير مع قوم ممتلئين من الفهم والحكمة والموهبة** (أي عندهم موهبة الألحان و يكونون قد تسلموها بفهم وحكمة حسب التقليد) ، و يكون الشعب كله جالسين **سامعين لهم بفهم وخوف و يتبعونهم بجزع** . ويحمل القس الخبز وكأس الإفخارستيا ويحمل الأسقف البخور و يدور به حول المذبح ثلاث دفعات تمجيداً للثالوث المقدس ، ثم يدفع مجمرة البخور للقس ، فيدور بها على الشعب كله ، **فإذا أكملوا الأبصلمودية** يقرأ الشماس فصولاً من الكلام الرسولي وفصلاً من المزامير ثم فصلاً من كلام الإنجيل ... إلخ]

الدسقولية ــ الباب الثامن والثلاثون

و يلاحظ من ترتيب الدسقولية أن ترتيل المزامير باللحن المسمى « بالأبصلمودية » ، يجيء قبل رفع الحمل ، وهذا يقابله الآن صلوات السواعي بالمزامير سراً[2] ، وهي الثالثة والسادسة إن كان اليوم إفطاراً بالإضافة إلى التاسعة إن كان اليوم صوماً .

(1) St. Clement. , 1st Ep., I A.N.F.

(٢) يقرر كاسيان أن الكنيسة الأولى كانت تكتفي بألحان المزامير التي تسبق القداس عوض صلوات الساعات المقررة في هذه الفترة الزمنية .

هـ ــ صلاة السهر ليلة السبت وتسابيحها طقسٌ قديم جداً :

وفي العصور الأولى بالنسبة للطقس القبطي كان القداس يقام في يومي السبت والأحد ، حيث كان المؤمنون يتناولون في غروب السبت ، وذلك على الطقس اليهودي بسبب أن المسيحيين الأولين كان معظمهم يهود متنصرين ، بإعتبار أنه بعد الغروب مباشرة يُعتبر بداية يوم الأحد عند اليهود ، ولأن العشاء السري كان طقساً مسائياً في التقليد القديم الأول ، لأن المسيح هو ذبيحة المساء . **وكان يظل المؤمنون ساهرين طول الليل في التسابيح والصلوات حتى فجر الأحد** ، ثم يبدأون في خدمة الليتورجيا لإقامة قداس الأحد الذي كان يبدأ الساعة الثالثة و ينتهي في السادسة .

ونورد هنا بعض الأقوال التي تشير إلى هذا الترتيب :

أولاً : من الدسقولية :

[وليُصعَد القربان المقدس في يومي السبت والأحد وكذلك في أيام الأعياد التي تتفق في وسط الأسبوع]

الباب الثامن والثلاثون

ثانياً : المؤرخ سقراط :

[وكان الوقت مساءاً وكان الشعب مستعداً لصلاة السهر هناك وكانت الخدمة على وشك الإبتداء ، وعندئذ وصل القائد ومعه خمسة آلاف جندي (للقبض على أثناسيوس) ورابط حول الكنيسة من كل جهة في إنتظار المعركة . وإذ لَمَح أثناسيوس ما كان يدور خارجاً عزم في نفسه أن يجنِّب الشعب أي خطر بكل وسيلة ، فأعطى إشارة للشماس أن يعلن الصلاة **وأمر أن يسبِّح المزمور** (وكانت الكنيسة تسبح المزمور ١٣٥ الذي يقال في التسبحة « الهوس الثاني » **وفيه يرد الشعب « أشكروا الرب فإنه صالح وإلى الأبد رحمته »** بحسب ما جاء في ثيئودوريت المؤرخ الكنسي) **فعندما بدأ الخورس**

في ترنيم المزمور أمر أن يخرج الشعب كله من باب واحد بينما وقفت العساكر تتفرج ، وخرج أثناسيوس وسط الشعب متخفياً وسط المرنمين بالمزمور وأسرع نحو روما] (١)

ثالثاً : وأيضاً سقراط :

[أما المصريون في منطقة الأسكندرية وطيبة (الصعيد) فيجتمعون للصلاة يوم السبت ، وفي المساء يقدمون القرابين و يتناولون من الأسرار] (٢)

رابعاً : مار إسحق أسقف نينوى :

[لأننا نعلم من الكتاب الذي وضعه القديس مقاريوس أن الأخ المبتدىء لا يخرج كلية من قلايته وسط الأسبوع ، ولا يزور أحد أخاه أيضاً بل في يوم السبت يخرجون من قلاليهم وقت العشاء و يأتون إلى المجمع وهم صائمون ، **لأنهم طوال السنة صيفاً وشتاء كانوا يتقربون عشية السبت ومن بعد أن يتقربوا يدخلون إلى المائدة ، ومن بعد الأكل يقفون للصلاة ليلة الأحد ساهرين بلا نوم من العشية إلى باكر بخدمة المزامير والتسابيح** وقراءة الكتب وتفسيرها ومسائل الإخوة وأجوبة المشايخ و يترتبون منهم بالوعظ ...
(على أن يقام قداس الأحد في ميعاده أي الساعة الثالثة من النهار)]
(الجزء الأول ــ الباب الأول)

ولكن يظهر أن قداس المساء يوم السبت تعدّل ميعاده بعد حياة القديس مقاريوس وصار يقام في الساعة الثالثة من نهار السبت مثل قداس الأحد تماماً ، وهذا نقرأه في كاسيان الذي سجل حياة الرهبان بعد نياحة القديس مقاريوس مباشرة .

[ولا يجتمع الإخوة معاً في الكنيسة إلا في صلاة الغروب ونصف الليل من كل يوم ، إذ لا توجد خدمات عامة أخرى بينهم إلا يومي السبت والأحد **عندما يجتمعون الساعة الثالثة من النهار من أجل الشركة المقدسة للتناول**] (٣)

(1) *Socrate, E. H., II, XI.*

(2) *Socrate. È.H. V XXII-*

(3) *John Cass. Instit. III; 2.*

ومن هذا يتبين لنا أن سهرة ليلة السبت في التسابيح بالمزامير حتى صباح الأحد ، كانت أصلاً طقساً مستديماً على مدار السنة في كنائس مصر كلها ، بإعتبار أنها ليلة قيامة أسبوعية تنتهي بقداس الأحد . وكان يوم الأحد محسوباً أنه عيد حقيقي وقيامة حقيقية ذات بهجة وفرح وتجديد وهذا يسجله المؤرخ سقراط بكل وضوح :

[كما كان جارياً التعييد في اليومين أي السبت والأحد في كل أسبوع] (٤)

وهو يتفق في ذلك مع الدسقولية :

[ولاسيما يوم السبت ويوم **القيامة الذي هو يوم الأحد**]

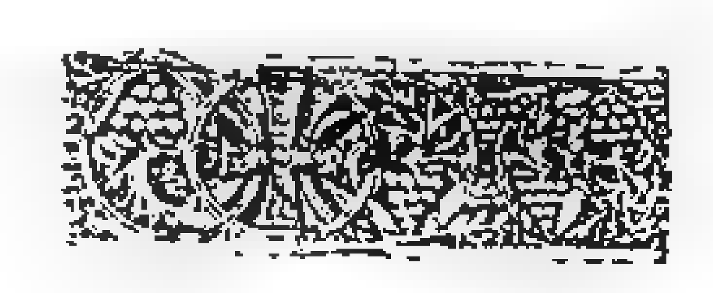
الدسقولية ــ الباب العاشر

أما باقي أيام الأسبوع ، فكانت صلاة نصف الليل تُعتبر طقساً قائماً بذاته عن الليتورجيا التي تنتهي بالقداس . فكانت الكنائس لا تقيمها إلاَّ إذا كان هناك خدمة للقداس في هذا اليوم .

أما في كنائس الأديرة فكانت صلاة نصف الليل تعتبر بداية اليوم الجديد ، وكانت تُحسب ــ في حد ذاتها ــ كخدمة وذبيحة تسبيح وميعاد كريم لإستقبال العريس كوعده ...

وقد انحصرت صلاة سهر السبت الآن على شهر كيهك فقط ، وبصورة ناقصة ...

أما صلاة نصف الليل للأيام العادية فتوقفت تقريباً ، إلا في بعض الأديرة وبصورة ناقصة ...



(4) Socrate. E.H. VII, VIII.

٧ ــ التسبحة اليومية وما تشير إليه من أعماق روحية

تبدأ الكنيسة خدمة عبادتها اليومية في هذه الساعة من الليل لكي تبرز المناسبة الإيمانية العظمى التي نحياها وهي الإيمان بمجيء الرب الثاني ، إذ أن الكنيسة استلمت من الرب أنه سوف يأتي في منتصف الليل كالمثل الذي أعطاه : « ولما انتصف الليل صار صراخ : هوذا العريس قد أقبل » ، لذلك تريد الكنيسة أن تكون ساهرة ومستعدة في هذه الساعة على الدوام مثل الخمس عذارى الحكيمات ، حتى تعاين مجيء الرب وتحياه كل يوم ...

ترتيب خدمة صلاة نصف الليل :

ــ ولهذا نجد أن الخدمة الأولى من تسبحة نصف الليل تدور حول « **إنجيل العشر عذارى** » (متى ٢٥ : ١-١٣) حيث يتكلل الإنتظار بالرجاء ...

ــ ثم يعقبها الخدمة الثانية التي تدور حول « **إنجيل الخاطئة الباكية** » (لو٧ : ٣٦-٥٠) التي غفر لها الرب خطاياها الكثيرة ، لأنها بنشاط عظيم لم تكُف عن تقبيل قدميّ الرب معلنة عن محبتها الكثيرة . وهنا تحيا الكنيسة حالة **المقابلة الواقعية مع الرب** التي فيها تكشف كل نفس عن خطيتها على نفس الصورة ، مُظهرة حبها الكثير بنشاط التسبيح والحمد كحالة تقبيل سري لقدميّ الرب ، وتنهدات قلبها عوض الدموع ، والسجود المتواتر عوض مسح رجليه برجاء الغفران ، « لكي أسمع أنا أيضاً ذلك الصوت الممتلىء فرحاً أن إيمانك خلصك !!! »

ــ ثم يعقبها الخدمة الثالثة التي تدور حول « **إنجيل القطيع الصغير** » (لو١٢ : ٣٢-٤٨) الذي صار له وعد الرب أن يعطيه الملكوت فلا يخاف . وهنا تحيا الكنيسة مطمئنة حسب وعد الله أنه وهبها فعلاً الملكوت ، وهي بهذه الثقة تعيش يومها في مسرة الآب .

ــ ثم تُختتم الخدمة الثالثة بإنجيل « **إطلق عبدك يارب بسلام لأن عينيّ قد أبصرتا خلاصك** » (لو٢ : ٢٩) . وهنا تعبّر الكنيسة عن حالة تجلي تعيشها وكأنها أختُطِفت إلى الملكوت وصارت في الحضرة الإلهية ...

ــ وهنا يبدأ في الحال خورس الكنيسة باللحن الرائع الكبير « **تين ثينو** » ، **أي** « قوموا يابني النور لنسبّح ربَّ القوات » !! ، وهو لحن طويل من أروع ألحان الكنيسة ، و يستغرق نحو نصف ساعة ، وكأن الرب قد ظهر والكنيسة تصرخ : « هوذا الرب أقبل ، قوموا يابني النور » ؛ فيستعد بنو النور ذوو المصابيح الموقدة بهتاف التسابيح ...

ــ ثم يبدأ بنو النور فعلاً بتسبحة « **الهوس الأول** » ، وهي تسبحة موسى كما هي تماماً بدون تعديل التي قالها الشعب مع مريم بالدفوف والرقص ، وبهذه التسبحة تعلن الكنيسة أنها أُعطيت سر التسبحة الخالدة المذكورة في سفر الرؤيا « ترنيمة موسى عبد الله وترنيمة الخروف » (رؤ١٥ : ٣) ، وترتلها بإحساس التجلي كمن هو واقف « أمام العرش على البحر الزجاجي ، ومعها قيثارات الله »

وواضح أنه بهذه التسبحة تعلن الكنيسة أنها تحيا منذ الآن في إيمان خلاصها الكامل ونصرتها على العالم ، كمن عبرت الموت فعلاً وهي تسبّح وتحمد وتشكر على نصيبها في المجد .

ــ و يتلو ذلك **الهوس الثاني** وهو المزمور ١٣٥ الذي قراره : « أشكروا الرب لأنه صالح وأن إلى الأبد رحمته » ، وهو عبارة عن تسبحة شكر تقدمها الكنيسة لله من أجل خيره وصلاحه ورحمته الكائنة إلى الأبد ، وهي تقدمها بفم شعب إسرائيل ــ حسب المزمور ــ ذاكرة بالشكر كيف أخرجهم من أرض مصر وأعالهم في البرية وحارب عنهم وأراحهم ثم أدخلهم ميراثه حسب وعده ، وكأنما الكنيسة ترى نفسها بالإيمان قد جازت هذا كله من جهة العالم ، والرب حارب عنها ، ثم استراحت ودخلت ميراثها ، وهي تقدم تسبحة الشكر على خيره وصلاحه ورحمته عليها الكائنة إلى الأبد . ولكن في راحتها تذكر ضيقتها العظيمة التي أتت منها وكيف أعالها الرب في الطريق الضيق

وأخيراً دخلت الأقداس حيث « دخل يسوع كسابق من أجلنا » (عب٦ : ٢٠) .

الهوس الثالث : وهي تسبحة الخليقة كلها تقودها الكنيسة كمنظر في الأبدية حيث نهاية كل شيء !! وهي في الأصل تسبحة الثلاث فتية القديسين التي رتّلوها وهم في أتون النار .

فحينما ترتلها الكنيسة ، تجمع في منظر واحد وجودها في الحاضر الزمني المؤلم ووجودها في الأبدية السعيدة . فهي بالرغم من وجودها في وسط أتون نار العالم المهلكة ، إلا أنها محفوظة بواسطة إبن الله ، وليس لقوة النار سلطان عليها ولا لأبواب الجحيم قدرة أن تدخل فيها . فبالرغم من نار التجارب المسلّطة عليها تسعة وأربعين ذراعاً ، إلا أن لهيبها جازته كالندى اللطيف . وهكذا تعيش الكنيسة وفق رموز هذه التسبحة ، معلنة سرَّ إمكانية تجلّيها فوق الألم ، وسرَّ الملكوت الذي تعيشه على الأرض ...

وإذ تؤمن أن العالم قد أُخضع تحت رجليها بقوة الصليب ــ كما أُخضعت النار تحت أرجل الفتية الثلاثة بسرِّ قوة الرابع بينهم ، فهي تبدأ تسبّح ، وتهتف بالخليقة كلها التي تئن وتتمخض معاً منتظرة التبني فداء أجسادنا ، وكأنما قد أُعطي للكنيسة مجد آدم الأول وسلطانه على الخليقة في شخص يسوع المسيح الذي دُفع له كل سلطان مما في السموات وما على الأرض ، وحينئذ تهتف بالمخلوقات جميعها واحدةً فواحدةً ــ ليشترك الكل معها : « سبّحوه ، مجّدوه ، زيدوه علوًّا إلى الأبد » ، كاستعلان مسبّق للخليقة الجديدة بسمائها الجديدة وأرضها الجديدة ...

ـ **المجمع** : هنا تعيش الكنيسة عقيدة وحدة الشركة بين الكنيسة المنظورة والكنيسة غير المنظورة[١] . فعندما تكون الكنيسة قد بلغت ، في تسبيحها للثلاث

---

(١) إصطلاح « كنيسة منتصرة وكنيسة مجاهدة » ليس إصطلاحاً أرثوذكسياً أصيلاً ، فهو من تقليد الكنيسة الكاثوليكية . أما الإصطلاح الأرثوذكسي فهو « كنيسة منظورة وكنيسة غير منظورة » ، وهذا التعبير أكثر واقعية وهو يعبّر عن الوحدة الكائنة بين الإثنين التي لا يحجبها إلا مجرد الرؤية كما أنه يزيد الكنيسة المنظورة قوة ورجاءً ...

ولكن الكنيسة الآن تستخدم الإصطلاحين ولا بأس من ذلك .

هوسات السابقة، منتهى تجلِّيها؛ تحس أنها أصبحت في مواجهة الكنيسة غير المنظورة التي في السماء، لا يعوقها عن رؤيتهم إلا كثافة هذا الزمن، وحينئذ تهتف بهم من خلال هذا الحجاب الرقيق متوسلة شفاعتهم وطلباتهم. وهكذا لا تنسى الكنيسة، وهي في كمال تجلِّيها، أن تحيا حقيقة اتضاعها وعوزها... لأنها تدرك أنها مهما تجلَّت ومهما تذوقت شيئاً من نصيبها في المجد في اقتدار الإيمان والرجاء، إلا أنها لم تكمُل بعد...

غير أن الكنيسة تفرِّق بين من لهم حق الشفاعة من القديسين كالعذراء والملائكة و يوحنا المعمدان، ومن لهم فقط حق السؤال والطلبة عنا كباقي القديسين.

تكملة التسبحة:

تُعتبر الثلاث هوسات الأولى مع المجمع بألحانها الهادئة التي تناسب نصف الليل، هي صُلب تسبحة صلاة نصف الليل، التي تنتهي حسب الترتيب الأصيل والقديم في التقليد، بذكصولوجيات، أي التمجيدات الخاصة بالقديسين؛ وتبدأ بذكصولوجية العذراء أولاً، ثم ذكصولوجيات القديسين الخاصة باليوم والمناسبة الموسمية.

وهنا في الأصل كانت تُختتم تسبحة نصف الليل وتبتدىء تسبحة السحر، أي صلاة قبل النور، وهي أيضاً ثلاثة مزامير: المزمور الأول ١٤٨، والثاني ١٤٩، والثالث ١٥٠، وتسمَّى في التسبحة بالهوس الرابع، الذي به ينتهي كتاب المزامير كله. وكانت تسبحة السحر تبتدىء كصلاة قائمة بذاتها (إبشويس ناي نان، خين إفران، ذكصا... إلخ)، وذلك كما وجدنا في نسخ قبطية قديمة.

والذي يثبت حالياً أنها كانت صلاة قائمة بذاتها هو وجود المجمع، معترَضاً بين الهوس الثالث والرابع، كما أن استعارتنا لها في تسبحة عشية مقتطعَة عن بقية صلوات نصف الليل، يوضِّح أنها صلاة منفردة. كما أنه بالبحث في أصول التسبحة الأولى، وجدنا أن صلاة السحر كانت محسوبة لدى الآباء من السبع صلوات التي على مدى النهار والليل، ثم بعد انضمامها لصلاة نصف الليل حلَّت مكانها صلاة باكر لتكميل السبع صلوات.

— الهوس الرابع: مز ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠ (صلاة السحر):

وهو يبتدىء بتسبيح الله مع النور «سبحيه أيتها الشمس» مز ١٤٨، إشارة إلى قرب بزوغ الفجر وإشراق النور ليتم قول المزمور الذي نصلِّي به في هذا الميعاد: «سبقَتْ عيناي وقتَ السحر لألهج في جميع أقوالك». وهنا تظهر الكنيسة كسابقة ومتقدمة ومفتخرة على كافة أنواع الخلائق، في النهوض وقت السحر للتسبيح والشكر؛ وسابقة أيضاً على النهار والنور، كما يقول المزمور ١٤٨ «إنشدوا للرب نشيداً جديداً لأن تسبحته في بيعة القديسين»...

أما المزمور ١٥٠ فهو مزمور ختام الخدمات الليلية كلها المسمَّى مزمور الشركة أو مزمور الإجتماعات، σ υ ν α ξ ι ς : «سبِّحوا الله في جميع قديسيه (أي في مجمع قديسيه).»...

وهنا تنتهي خدمة سهر الليل تقريباً المسمَّاه **Vigilae** حيث يكون النور قد أشرق فعلاً... فتبتدىء الكنيسة تخدم إبصالية اليوم وتذاكية اليوم.

— إبصالية اليوم:

الإبصالية معناها: ترتيلة موزونة ومُقفَّاه صوتياً كالشعر، وهي بخلاف الهوسات لأن الهوس هو المزمور بنفس كلماته وترتيله بدون أي تعديل شعري أو وزن لفظي، إنما تطبَّق عليه طريقة الإلقاء فقط. وغالباً تكون أوائل الأرباع (أي كل أربع شطرات) مرتَّبة على الحروف الهجائية.

وطريقة ترتيل الإبصالية تختلف عن طريقة ترتيل الهوسات، فالهوسات طريقتها ثابتة سنوية، أما الإبصالية فنغمتها تختلف مرتين كل أسبوع: فيوم الأحد والإثنين والثلاثاء لها نغمة قصيرة وتسمى إصطلاحاً «بالآدام»، و يوم الأربعاء والخميس والجمعة والسبت لها نغمة مطوَّلة وتسمى إصطلاحاً «واطس». وكذلك تختلف أيضاً نغمة الإبصالية بحسب الموسم الكنسي، فتوجد للإبصالية نغمة أثناء الصيام ونغمة

أثناء العيد .

تركيب الإبصالية من الوجهة الروحية :

والإبصاليات مرتَّبة على الأيام السبعة ، فلكل يوم إبصالية خاصة ، وهي عموماً تعتبر توسلاً وصلاة بطريقة خاصة ، كانت تحياها الكنيسة منذ فجرها الأول وكان يمارسها الرهبان ، وهي معروفة عندهم باسم الصلاة القلبية ، وهي مخاطبة مباشرة للرب يسوع لطلب رحمته ومعونته وتسبيحه في جمل قصيرة تكرَّر على مدى اليوم آلاف المرات بلا ملل : « ياربي يسوع المسيح إرحمني ، ياربي يسوع المسيح أعنِّي . أنا أسبِّحك ياربي يسوع المسيح » ، ثم تطورت قليلاً إلى جملة واحدة « ياربي يسوع المسيح إبن الله إرحمني أنا الخاطىء » على نمط صلاة العشار (لو١٨ : ١٣) ، ثم اشتُق منها التوسل بإسم يسوع المسيح ، بإعتبار أن إسم يسوع المسيح نفسه قوة شافية وحافظة ومعينة ، وهذه هي روح الإبصاليات عموماً .

والتحول من صلاة المخاطبة المباشرة للمسيح إلى التمسك بإسمه واضح في لحن ختام إبصاليات الآدام ، أي إبصاليات الأحد والإثنين والثلاثاء ، حيث تجمع الإبصالية بين المخاطبة والتمسك بالإسم :

« وأيضاً إذا إجتمعنا للصلاة **فلنبارك إسم ربي يسوع ، لأننا نباركك ياربي يسوع ، نجنا باسمك** لأننا توكلنا عليك » .

وهذه الإبصاليات ذات الروح التصوفية كان لها تأثير هائل في العبادة في جميع أنحاء العالم ، فقد خرجت من الإسقيط ومن الكنيسة القبطية وانتشرت في كافة الشرق . وعُرفت فيما بعد بصلاة الهزكيا : ἡσύχος وهي كلمة يونانية معناها الهدوء ، لأنها تمارَس في هدوء وسمنح أيضاً الهدوء ، وصار لها خارج مصر فن أدائي خاص وأصول للممارسة ، خصوصاً في جبل سيناء وجبل آثوس في القرن الرابع عشر ، وحدث بسببها خلافات كثيرة من الوجهة التصوفية اللاهوتية .

ولكنها ظلت تمارَس في الكنيسة القبطية ، وبالأخص لدى الرهبان ، ببساطة متناهية بدون أي شروط أو أوضاع ميكانيكية أو تحديد أعداد ، فتقال باستمرار وفي كل لحظة من قلب مخلص كصلاة وتوسل فقط ، دون أن يضع الإنسان في ذهنه أي نتائج لها أو ينتظر منها أي مواهب ، وكانت هذه الصلاة البسيطة تُفرض على الرهبان الأمِّيين بدل المزامير وخصوصاً الذين لا يتيسر لهم القراءة أو الحفظ . وكانت هذه الصلاة أو الإبصالية البسيطة ، سبب تعزية عظيمة للرهبان على مدى العصور حتى أن كثيرين من الآباء إكتفوا بها عوض كل صلاة أخرى ، كما هو مذكور في بستان الرهبان .

ولا تزال الكنيسة تحياها إلى الآن بالتسبيح حينما تتلو إبصالية اليوم ، فتعيش حالة التبرير التي نالها العشار كقول الرب : « فنزل مبرَّراً » ...

الإبصاليات الأخرى :

وهي الترانيم المرتَّبة للأعياد السيدية (٢) وأعياد العذراء (٣) والرسل وبقية المناسبات الكنسية . .

ولكن للأسف توجد إبصاليات حديثة مؤلَّفة بواسطة أشخاص غير مؤسَّسين على التقليد الآبائي الأصيل ، ولا توجد فيها مميزات الإبصالية القبطية الأولى ذات الروح التصوفية التي تقوم على مبدأ التوسل والصلاة والترديد . ولكن من السهل التمييز بين

---

(٢) الأعياد التي للسيد المسيح سبعة كبار وسبعة صغار:
الأعياد السيدية الكبيرة : ١. عيد البشارة ٢٩ برمهات ، ٢. عيد الميلاد ٢٩ كيهك ، ٣. عيد الغطاس ١١ طوبة ، ٤. أحد الشعانين ، ٥. عيد القيامة ، ٦. عيد الصعود ، ٧. عيد العنصرة .
الأعياد السيدية الصغيرة : ١.عيد الختان ٦ طوبة ، ٢. عيد دخول المسيح الهيكل ٨ أمشير ، ٣. عيد تحويل الماء إلى خمر في عرس قانا الجليل ١٣ طوبة ، ٤. خميس العهد ، ٥. أحد توما ، ٦. عيد دخول المسيح أرض مصر ٢٤ بشنس ، ٧. عيد التجلي ١٣ مسرى .

(٣) الأعياد التي للسيدة العذراء خمسة وهي : ١. عيد ميلادها أول بشنس ، ٢. عيد دخولها الهيكل ٣ كيهك ، ٣. عيد نياحتها ٢١ طوبة ، ٤. عيد ظهور جسدها ١٦ مسرى ، ٥. عيد بناء أول كنيسة على إسمها ٢١ بؤونة .

الإبصالية القديمة الأصيلة والإبصالية الحديثة المدسوسة بغير معرفة و بغير قيمة بتاتاً .

فالإبصالية القديمة تمتاز بأنها تبرز نوع الموضوع الذي وُضعت من أجله وتردِّد ذكر هذا الموضوع في كل ربع تقريباً بدون ملل مهما كان عدد الأرباع ، فمثلاً إبصالية القيامة نجد فيها ذكر القيامة في كل ربع بلا إستثناء « المسيح قام » أو « المسيح قام من الأموات » ، وإبصالية الصوم تذكر الصوم أيضاً في كل ربع ؛ وهكذا في كافة إبصاليات المناسبات . والسبب الفني والروحي لذلك ، هو أن التكرار يُحدث تركيزاً في الذهن و يُنشيء في الذاكرة خطاً عميقاً وفي القلب ديمومة وعادة ، وقد صار هذا طابع الإبصالية ، وذلك لجمع فكر المؤمنين وربطهم بالموضوع وتهيئة القلب والذاكرة لاستيعاب المناسبة التي تريد الكنيسة أن تزرعها في نفوس الشعب .

هكذا نجد أن الإبصاليات السبعة التي على الأيام تخدم الصلاة القلبية ، بالتركيز على إسم يسوع المسيح ... أما إبصاليات المناسبات فهي تخدم تأسيس المعرفة والإيمان فيما يختص بالمناسبات الإلهية والتقوية والإيمانية التي تعيِّد لها الكنيسة ، وذلك عن طريق التكرار والترديد المتواصل ؛ لأن أرباع الترديد أو الجمل المكرّرة في الأرباع هي دائماً من نصيب الشعب إذ يجاوب بها على الخورس الذي يرنِّم الإبصالية .

وهكذا نجد أن الكنيسة تستخدم التسبيح لكي تعيش بواسطته إيمانها وعقيدتها ، وحتى الطريقة والوزن والنغمة تختارها دائماً لتناسب العيد أو الموضوع الذي ترتل له ، وبهذا يدخل النغم نفسه ضمن منهج الكنيسة في حياة عقيدتها .

ولكن الذي يؤسف له حقاً أن تكون هذه الأصول التقليدية في التسبحة مجهولة ومُهمَلة ، مع أنها تحمل أعزَّ ما في الكنيسة القبطية من مناهج العبادة والممارسات ذات الطابع القبطي في النسك والتصوف .

الثيئوتوكيات :

و بعد الإبصالية الخاصة باليوم والعيد تقال الثيئوتوكية وهي لحن ممتاز لمديح السيدة العذراء . والثيئوتوكيات عموماً ، بُديء في تأليفها بعد مجمع أفسس ٤٣١ م ، وقد

استوفينا شرحها في كتاب « العذراء القديسة مريم » فنرجو الرجوع إليه . وفي نهاية الثيئوتوكية تُختم بلحن خاص . ثم تتوسل الكنيسة لدى الملاك المنوط بحراستها أن يرفع هذه التسبحة إلى العلو:

« ياملاك هذا اليوم الطائر إلى العلو بهذه التسبحة
أذكرنا لدى الرب ليغفر لنا خطايانا . »

وترتل الكنيسة طلبة ختام التسبحة . و بذلك تنتهي خدمة سهر الليل .

خدمة السهر في شهر كيهك :

وهو المدعو بتسابيح « ٧ ، ٤ » ، أي سبع ثيئوتوكيات التي للعذراء التي لسبعة أيام الأسبوع ، والأربعة هوسات التي لسهر الليل . وهذا قد سبق شرحه بالتفصيل .

والأصل في شهر كيهك هو سهرة السبت الأسبوعية التي كانت تُقام على مدار السنة ، باعتبار أن يوم الأحد هو يوم القيامة الذي تعيِّد له الكنيسة على الدوام وتسهر فيه حتى مطلع الفجر الذي هو ميعاد القيامة ...

وقد أضيفت على الهوسات تسابيح فرعية على نفس المعاني الأولى ، كما أضيفت على الثيئوتوكيات تسابيح فرعية على نفس المعنى أيضاً[٤] .

هذه السهرات تمثل بالحقيقة روح الكنيسة الأولى التصوفي المبدع التي لا زالت متشبثة به ، بالرغم من طغيان روح العالم .

ونحن نؤمن أنه سيقوم في هذا الجيل من سيعيد لهذه الروح أصالتها الأولى .

ولنا رجعة لتسابيح شهر كيهك في مقال خاص إن يشاء الله .

(٤) ولكن نحن نتوسل إلى الله أن يلهم النفوس الموهوبة لمراجعة تسابيح كيهك الفرعية ، وخصوصاً تلك التي باللغة العربية ، لأنها لا تناسب عقيدة الكنيسة ولا إيمانها ولا روحها .

في أنواع الطرائق المستخدمة في التسبيح بالأبصلمودية :

توجد طرائق كثيرة حسب الظاهر في التسبيح بالمزامير أثناء الخدمات الكنسية ، ولكن بصفة عامة يمكن حصرها في أربع طرائق رئيسية :

الطريقة الأولى :

وهي التسبيح المنفرد ، حيث يُرتّل المزمور شخص واحد — وكان فيما مضى يتعين أن يكون كاهناً(٥) — والباقي يسمع دون أن يرد ، لا أثناء التسبيح بالمزمور ولا في نهاية المزمور بل المرتل نفسه يتولى البداية والنهاية ، ولا يتدخل الشعب في التسبيح وإنما يكتفي برد « الذوكصا » عند الوقفات أو صلاة القطع عند الكاتسمات (في الوقت الحاضر صارت « الذوكصا » تُقال بعد القطع) . وفي نهاية التسبيح كله يهلل الشعب بصوت واحد « هالليلويا ذكصاباتري ... » كختام للصلاة قبل البركة الأخيرة . وتسمَّى بالطريقة القيادية(٦) **Tractus**

الطريقة الثانية :

طريقة التسبيح بالمرابعة ، أي نظام الخورسين بحري وقبلي ، يتبادلان فيه تسبيح المزمور، كل واحد أربعة أبيات (إستيخونات) وتسمَّى بالأنتيفونا **Antiphona** (٧) ، والذي يؤدي الأنتيفونا إما فرد واحد أمام فرد واحد ، وإما خورس من عدة أشخاص أمام خورس آخر مماثل له في العدد والطبقة الصوتية . وهذه الطريقة هي السائدة الآن تقريباً في معظم التسبيح بالمزامير، ولكن على وجه الخصوص يتعين لها في الأبصلمودية الهوس الأول والثيئوتوكيات والذكصولوجيات .

(5) Cassian, B. II, ch. X
(6) Cassian, B. II, XI, 8 note.
(7) Cassian, B. II, ch. II, VII.

الطريقة الثالثة :

طريقة المردات **Response** وفيها يقود الكنيسة كلها مرنم واحد يبدأ الربع و يكمله الشعب :

(١) والجزء المعيَّن للشعب غالباً ما يكون ثابتاً في كلماته وذلك مثل الهوس الثاني حيث مرد الشعب أو قراره « لأن إلى الأبد رحمته » ، أو مثل إبصاليات « ياربي يسوع » ليوميّ السبت والأحد ، « ياربي يسوع المسيح أعِنّي » ، « ياربي يسوع المسيح مخلّصي الصالح » .

(٢) وإما أن يكون مرد الشعب متغيراً قليلاً مثل الهوس الثالث الذي له مردان : « متزايد بركة ومتزايد علوًّا إلى الأبد » ، « سبّحوه وزيدوه علوًّا إلى الأبد »

(٣) أو يكون المرد كلمة واحدة مثل « هلليلويا » التي في الهوس الكبير في الأعياد .

(٤) أو يكون المرد صلاة أو توسلاً . وهذا النوع يتخلل خدمة القداس بكثرة مثل « الميستنيات » التي يردُّ فيها الشعب : « يارب أنعم لنا بغفران خطايانا » أو « كيرياليسون يارب أرحم » ، و يسمَّى هذا التسبيح **Litany** ، وهو مأخوذ أصلاً من تسبيح المزامير، مثل مزمور (٨٠) الذي مرده : « ياالله أرجعنا وأنِرْ بوجهك علينا فنخلص » ، حيث يكرَّر هذا التوسل على مدى المزمور.

الطريقة الرابعة :

الطريقة الجماعية في التسبيح حيث يأتلف صوت الشعب كله في التسبيح ، و يتدخل القائد في ضبط النغم بالناقوس .

علاقة طرائق التسبيح بالأوزان الموسيقية للمزامير:

وهذه الطرائق الأربعة ليس للإنسان حرية في اختيار إحداها للتسبيح ، بل إن التركيب الشعري والموسيقي للمزمور هو الذي يحتّم إستخدام الطريقة المناسبة .

وأصل هذا التقسيم قائم في صميم المزمور حيث أن البيت الشعري في كل مزمور أصيل ينقسم إلى شطرين ، ويمتاز التركيب الشعري العبري في المزامير أن الشطرين يحملان تقابلاً أو توازناً ، ليس لفظياً أو صوتياً فقط ، بل ومعنوياً أيضاً ، وهذا هو المهم جداً والذي جعل المزامير أشعاراً للعبادة .

فكل بيت شعري في المزامير ينقسم إلى نصفين يحملان معاً توازياً فكرياً وروحياً إما توافقياً أو تضادياً ، وكأمثلة لذلك :

١ ـ البيت الشعري التوافقي : لاحِظ تقابل المعنى في كل شطرين للبيت الواحد .

إما توافق داخلي :

[للرب الأرض وملؤها   المسكونة وكل الساكنين فيها]
(مز٢٤)

أو توافق تشابهي :

[باركي يا نفسي الرب   وكل ما في باطني يبارك إسمه القدوس
باركي يا نفسي الرب   ولا تنسي كل حسناته
الذي يغفر جميع ذنوبك   الذي يشفي كل أمراضك]
(مز١٠٣)

أو توافق شرحي :

قال الجاهل في قلبه   ليس يوجد إله
فسدوا ورجسوا بأفعالهم   ليس من يعمل صلاحاً
الرب من السماء تطلّع   أشرف على بني البشر]
(مز ١٤)

٢ ـ البيت الشعري التضادي :

[لأن الرب يعرف طريق الأبرار   أما طريق المنافقين فتُباد]
المزمور الأول

هذا التوازي المعنوي في الأشعار بالأضافة إلى بقية التركيب الشعري للمزمور وُضع ليكون متناسباً مع الموسيقى الصوتية ، لذلك هو الذي يحدد نوع الطريقة المناسبة للتسبيح ، فهناك مزامير معيَّنة للتسبيح الفردي لايوجد فيها مقاطع ولا مردات .

كما توجد مزامير معيَّنة للأنتيفونا بغاية الوضوح مثل مزمور (١٥٠) « سبِّحوا الله » .

كما توجد مزامير مهيأة لمرد الشعب مثل :

[أشكروا الرب لأنه صالح   **لأن إلى الأبد رحمته**
أشكروا إله الآلهة   **لأن إلى الأبد رحمته**
أشكروا رب الأرباب   **لأن إلى الأبد رحمته]**

مز١٣٦

كما توجد مزامير مهيأة لهتاف كل جمهور الشعب معاً مثل :
[حينئذ سبَّح موسى وبنو إسرائيل بهذه التسبحة للرب وقالوا :
فلنسبِّح للرب لأنه بالمجد قد تمجَّد]

خر١٥ : ١

إختيار طريقة التسبيح لكل خدمة :

وكان الآباء الأُول في اختيارهم للمزامير في كل خدمة ، يراعون بالإضافة إلى معناها ، وزنها الموسيقي الصوتي وطريقتها ، حتى يتخلل الخدمة الطرائق المناسبة لها . فمثلاً في خدمة الغروب ـ وهي قصيرة ـ كان معيَّناً فيها للتسبيح الطريقة الفردية ، حيث يقف الكاهن ويرتِّل الإثني عشر مزموراً بطريقة القيادة المسمَّاه Tractus [٨]

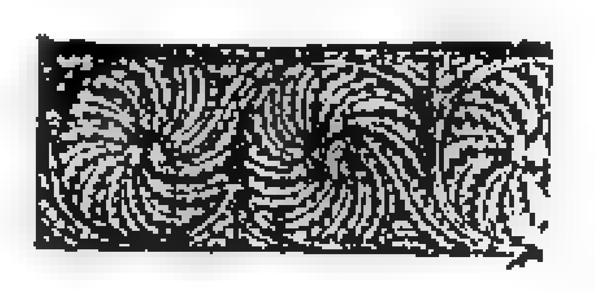
(8) Cassian, B. II, ch. XI.

أما في سهر الليل حيث تطول الخدمة ، فقد عيَّن لها الآباء الطريقتين المناسبتين أي الأنتيفونا والجاوبة :

[لأن خدمة السهر يلزم أن تُرتَّب لأجل المسرة قبل كل شيء لأنها تطول حتى الفجر، فلكي لا تصير مكروهة قسَّمها الآباء إلى ثلاث خدم ، حتى بهذا التنوع والراحة المتخلِّلة يتوزع الجهد فلا يثقِّل على الجسد . لذلك يبدأون ــ وهم وقوف ــ تسبيح ثلاثة مزامير بطريقة الأنتيفونا ، وبعد ذلك يجلسون على مقاعدهم (شِلَتْ من القش) ، ويبدأون بتسبيح ثلاثة مزامير أخرى ، كل مزمور يرنِّمه واحد وباقي الشعب يجاوب ، وهكذا يتناوب الثلاثة بالدور، ويضيفون بعد ذلك ثلاثة فصول (ربما عظات تعليمية) ، بينما الكل جلوسٌ في هدوء ؛ وهكذا بمقدار ما يقللون الجهد المبذول بالجسد يفلحون في تتميم السهر بانتباه فكري عظيم .](٩)

وهكذا نرى أن اختيار المزامير لكل خدمة أمر ليس هيناً ولا جزافاً ، بل يتبع أصولاً طقسية وكنسية دقيقة ، كما أن تسبيح كل مزمور من مزامير الخدمة يلتزم بإختيار الطريقة المناسبة له .

كما يتبين من هذا ، الضرورة الحتمية التي تتطلبها ترجمة المزامير ترجمة شعرية دقيقة موزونة صوتياً ، ويُوضع أمام كل مزمور وزنه وطريقته ، وبذلك يمكن بسهولة إعادة طقس تسبيح مزامير خدمة السواعي داخل الكنيسة(١٠) حسب طقس الآباء الأُول تماماً .



---

(9) *Cassian, B. III, ch. VIII.*

(١٠) الكنيسة الأسكتلندية قامت بهذا العمل فترجمت المزامير ترجمة شعرية للخدمة سنة ١٩٢٩ حسب التقليد الكنسي لقديم ولا تزال تخدم به كل صلواتها .

الباب الرابع
ترتيب طقس صلاة السواعي وتحديدها في الكنيسة القبطية

كانت الكنيسة في الشرق والغرب على وجه العموم حتى زمان قسطنطينوس الملك تتمتع بوحدة الإيمان والعقيدة ، فكانت الكنائس ــ كما يقول المؤرّخ الأرشمندريت جبتي (١) ــ تؤلّف وحدة متناسقة يسبّحون الله نفس التسابيح الواحدة إنما بلغات مختلفة ... ولقد عرضنا في الفصول السابقة لمحة عن هذا التراث المشترك .

ولكن بظهور الحياة النسكية في مصر منذ بداية القرن الثالث دخلت الصلوات والتسابيح والألحان في الكنيسة مرحلة جديدة تتسم بثلاثة مظاهر:

ــ النظام والتدقيق في المواعيد المحددة لها .
ــ إستطالة التسابيح وتحديد كمياتها والسهر طول الليل يوم السبت .
ــ الروح الجماعية وما يتبعها من تنظيم الخوارس .

وسنتتبع الظروف التي مرت بها هذه المرحلة الحاسمة في مصر، التي تم أثناءها تثبيت هذا النظام الكنسي في التسابيح والألحان والصلوات ، واعتباره منذ ذلك الحين جزءاً لا يتجزأ من التراث التقليدي للكنيسة القبطية . والفضل في معرفتنا لمنشأ وتاريخ هذا النظام النسكي الكنسي والظروف التي عبرعليها في الكنيسة القبطية ، هو الأب الناسك الراهب كاسيان ، الذي سجّل كل ما رآه وسمعه ومارسه في مصر على يدي الآباء النسّاك العظام فإحتفظه لنا على حقيقته وبصورته الأولى الأصيلة .

١ ــ شخصية كاسيان : كاسيان سفير الأقباط في فرنسا والغرب كله

القديس يوحنا كاسيان وُلد ما بين سنة ٣٥٠ــ ٣٦٠م ، وعمَّر طويلاً جداً . والمرجَّح أنه مات ما بين سنة ٤٤٠ــ ٤٥٠م ، وجاء إلى مصر عام ٣٨٥م ، ومكث في مصر سبعة أعوام ، و يعتبر ربيباً لآباء مصر العظام .

(1) Vol II, pp. 292- 6.

وقد قام بزيارتين طويلتين لمصر تتلمذ فيهما تلمذة نسكية حقيقية ، رحل بعدها إلى فرنسا وأسَّس فيها بالقرب من مرسيليا الديرين العظيمين : دير القديس بقطر « سان ڤيكتور» ودير « الليران » المشهور. وبهذا نقل كاسيان كل التراث القبطي من تعاليم وصلوات وتسابيح إلى الغرب ، وخاصة أنه سلَّمها من بعده إلى القديس بنِدِكتوس الذي جعلها أساس نظام الرهبنة في ديره .

ونحن نهتم هنا بهذا القديس إهتماماً حبيباً ، بإعتباره عموداً حياً من أعمدة التقليد الكنسي فيما يختص بالعبادة والنسك والصلاة والتسبيح وطقس المعيشة الرهبانية ، بكافة نواحيها الداخلية والخارجية .

واهتمامنا بهذا الأب من جهة التقليد الكنسي يزداد جداً ، باعتباره ناقلاً لكل التراث الأبوي الرهباني القبطي إلى الغرب ، لسنا نقول إنه كان مقلّداً ، وإنما نستطيع أن نقول إنه كان سفيراً أو رسولاً مؤمناً بالتراث القبطي الذي نقله إلى الغرب ، بل وعائشاً بمقتضى أصوله ، بل وأكثر من ذلك كله كان مُلماً بدقائقه إذ صار رئيساً لديرين وأباً لجماعة رهبانية كبيرة سقاها وأطعمها من التقليد الروحي والكنسي الذي اغتذى عليه في مصر سنين طويلة ...

وحينما غادر كاسيان مصر مع رفيقه جرمانوس كان ذلك حوالي سنة ٤٠٠م ، توجَّها بعدها إلى القسطنطينية حيث رسمه القديس يوحنا ذهبي الفم شماساً ، ورسم صديقه جرمانوس كاهناً ، وحدث في ذلك الوقت كل الأحداث المحزنة التي مرت باضطهاد ذهبي الفم وطرده ونفيه ، تلك الأحداث التي مزَّقت سكون الشرق وسلامه . فأختير كاسيان مع صديقه ليحمل رسالة من إكليروس القسطنطينية إلى البابا إنوسنت الأول تصف هذه الأحداث ، وفي روما رُسم كاسيان كاهناً ثم توجَّه إلى « غالا » أي فرنسا وطنه على وجه الترجيح .

وحينما عاد كاسيان إلى فرنسا وجد بعض أديرة قد شُيِّدت في إقليم اللوار بواسطة القديس مارتن والقديس إيلاري الذي من بواتييه ؛ وفي إقليم بروفنس كان القديس أونراتوس على وشك إقامة دير في جزيرة ليران الذي تولاَّه كاسيان ، وظل يحمل إسمه

حتى اليوم . ومن نفس كلمات رهبان الغرب الكاثوليك المؤرِّخين ، نستطيع أن نرسم صورة واضحة لإنتقال كل التقليد النسكي والرهباني بما فيه من أصول العبادة والصلاة والتسبيح وكل العادات المتَّبعة في الكنيسة القبطية آنذاك إلى صميم فرنسا ومنها إلى إيطاليا و بقية شعوب الغرب :

[وفي الليران : « فتح (كاسيان) ذراعيّ المحبة إلى **أبناء كل الشعوب** الذين رغبوا في حب المسيح . فإنضمَّ إليه جمعٌ من التلاميذ من كافة الشعوب ، **فلم يعُدْ الغرب يحسد الشرق** ، و بالإختصار **تمخضت هذه العزلة ــ كقصد منشئها ــ عن تجديد صرامة طيبا (صعيد مصر) الأخلاقية على شواطيء إقليم بروفنس ، وسرعان ما صار هذا الدير مدرسة للإلهيات والفلسفة المسيحية وقلعة منيعة ضد أمواج البربرية وملجأ للعلوم والآداب عندما غزا الغوطيون إيطاليا** ــ و بالإختصار صار هذا الدير مربّياً للأساقفة والقديسين الذين تعيَّنوا أن ينشروا معرفة الإنجيل ومجد الليران »] (٢)

ولقد تخرَّج من هذا الدير باكورة قديسي وعلماء وآباء رهبنة فرنسا أمثال :

١ ــ إيلاري ؛ أسقف آرل ــ فرنسي — **1. Hilary of Arles**

٢ ــ ڤانسنت ؛ كاهن وكاتب كنسي ممتاز ــ فرنسي — **2. Vincent of Lérins**

٣ ــ سالڤيان ؛ كاهن وكاتب كنسي ممتاز ــ فرنسي — **3. Salvian**

٤ ــ أوكير يوس ؛ أسقف ليون ــ فرنسي — **4. Eucherius of Lyon**

٥ ــ لو يوس ؛ أسقف وناسك من الطراز الأول — **5. Lupus of Troyes**

٦ ــ سيزار يوس ؛ أسقف آرل الفرنسي الذي أنهى النزاع في موضوع « النعمة والإرادة » الذي احتدم بين أوغسطينوس وكاسيان في مجمع « أوراسيو » **Council of Auracis (orange) 529** — **6. Caesarius of Arles**

(2) *Montalembert's: Monks of the west*

٧ ــ أونوراتوس ؛ أسقف آرل ــ فرنسي وقد زار مصر سنة ٤٢٦م وترأس على دير الليران وهو الذي خلفه على الدير والأسقفية تلميذه إيلاري الذي من آرل أيضاً . — **7. Honoratus of Arles**

و بسبب إقامة كاسيان في مصر وتضلُّعه في النظام الرهباني المنتشر في مصر ، صار كاسيان في أعين المسئولين حجة يُعتمد عليها ورأساً للحركة الرهبانية في فرنسا . وهذا على حد قول « إدجار جبسون » عميد كلية اللاهوت بسمرست ــ في تقديمه لحياة كاسيان ــ مدعِّماً قوله بالشواهد :

« إن القديس بنِدِكت منشيء أعظم رهبانيات الغرب والذي يفوق كاسيان شهرة ، هو مدين أصلاً لكاسيان . فعظم القوانين في النظام الرهباني البندكتي مأخوذة عن كاسيان رأساً » .

والمعروف أن القديس مارتن الذي سبق كاسيان ، إستلم هو الآخر هاتف الرهبنة الأول من القديس أثناسيوس الرسولي وهو في منفاه (٣٣٥ــ٣٣٨م) ، ومن كتابه لسيرة القديس أنطونيوس الذي أرسله لهم بعد عودته . وقد أسس القديس مارتن أول دير له في فرنسا(٣) على مقربة من بواتييه ٣٦٢م ، وآخر في تور بعد أن صار أسقفاً عليها سنة ٣٧٢م ، وكانت قوانينه الرهبانية وحياة جماعته الرهبانية طبق الأصل من النظام الرهباني في مصر . فالرهبان كانوا يسكنون الكهوف ولا يجتمعون إلا للصلاة في الكنيسة وللطعام .

ومن المسلَّم به أن القديس بندكت (٤٨٠ــ٥٧٣م) مدين لكاسيان ولكتاباته .

(٣) إيلاري أسقف بواتييه سبق مارتن في الحياة الرهبانية وتدبيرها . ومارتن إلتجأ بعد معموديته وهو في سن ٢٢ سنة إلى الأسقف إيلاري . ثم رُسم أسقفاً على تور وعمَّر ديراً خارج المدينة ، على بعد ميلين للنسك والعبادة وكان معه ٨٠ راهباً في مغاير :

+ بدون عمل ولا صنعة إلا الصلاة فقط .

+ لا يخرج أحد من مغارته إلا للصلاة والأكل

+ بملابس خشنة ونسك شديد .

فهو الذي وضع أن يقرأ كافة الرهبان، الخاضعين لنظامه، يومياً كتاب كاسيان الذي سجّل فيه أقوال آباء مصر المسمّى «محادثات كاسيان». وكذلك كاسيودورس في نظامه الرهباني إعتبر كتب كاسيان المنهج الأساسي. وظل كاسيان يقود الحياة الرهبانية في فرنسا حتى آخر أيام حياته.

وقد ناله في آخر أيامه متاعب جمّة إذ قد فُسِّرت تعاليمه بخصوص مسئولية الإنسان في جهاده إنحرافاً، فقد إنتقدها القديس أغسطينوس، معتبراً أن هذا يُحسب تجاهلاً للنعمة التي ينبغي أن يعطى لها كل الفضل، ولأغسطينوس كثير من الحق، ولكن أغسطينوس كان ذا إتجاه سلبي محض لمسئولية الإنسان، مما ورطه هو أيضاً في الخروج عن جادة الحق؛ وكاسيان محسوب «مطوَّباً» فقط في كنيسة الغرب ولكنه محسوب «قديساً» في الشرق.

٢ ـ كاسيان يسجّل فجر العبادة في مصر وبداية قانون الإثني عشر مزموراً:

سنسرد هنا هذه القصة التاريخية المبدعة بكل ظروفها نقلاً عن «كاسيان»:

[جندي المسيح عليه أن يتعلم قانون الصلاة ونظام المزامير **التي رتّبها الآباء الشرقيون** منذ زمان بعيد، أما عن طبيعة الصلوات وطريقة الصلاة فسوف نعالجها كما يعطينا الرب في المكان المناسب عندما نبتدىء بسرد حوار لنا مع الآباء الشيوخ (في مصر)...

لقد رأينا الكثيرين في بلدان متعددة قد عملوا لأنفسهم قوانين مختلفة وأنظمة حسب أوهام عقولهم إذ «لهم غيرة في الرب ولكن ليس حسب المعرفة» (رو١٠: ٢)، فبعضهم حدد أنه في كل ليلة يلزم أن يُتلى عشرون أو ثلاثون مزموراً على أن تمتد بلحن الأنتيفونا **Antiphona** (أي نظام مرد بحري ومرد قبلي التي يسميها المرتلون في الكنيسة نظام المرابعة، أي أن جماعة تسبّح ربعاً يقابلها جماعة تسبّح الربع الآخر) مع الضوابط الصوتية.

ولكن آخرون أيضاً تمادوا عن هذا العدد، وآخرون استخدموا ثمانية عشر مزموراً. وهكذا صارت عدة أنظمة محددة في مختلف الأماكن، وصارت الطرق والترتيبات التي رأيناها من الكثرة بعدد الأديرة والقلالي التي زرناها.

وآخرون أيضاً إرتأوا أنه من الأفضل أنه في سواعي صلاة الخدم النهارية ـ أي الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة ـ (يلاحَظ أن تحديد الصلوات النهارية بسواعيها الثلاثة قديم جداً في الكنيسة وهو يرجع إلى نظام الصلاة في الهيكل قديماً وقد ذكرها ترتليانوس وهيبوليتس وكليمندس الإسكندري وكتاب تعاليم الرسل)، إرتأوا أن يجعلوا عدد المزامير مطابقاً لعدد الساعات التي تقع فيها خدمة الصلاة الإلهية (أي ثلاثة مزامير في الثالثة وستة مزامير في السادسة وتسعة مزامير في التاسعة وهكذا)

وآخرون فكّروا أنه من الأوفق أن يثبتوا ستة مزامير على كل خدمة من خدمات النهار.

لذلك رأيت أن الأفضل أن أتّبع أقدم نظام للآباء الذي لا يزال معمولاً به لدى خدام الله في كل مصر، حتى يكون ديركم الجديد الذي لا يزال بعد في مرونة الطفولة في المسيح متعلماً على أقدم الأنظمة التي للآباء الأوائل.

فصل ٣: وفي كل مصر والصعيد حيث أُقيمت الأديرة، لا حسب هوى كل من يترك العالم وإنما بتعاقب الآباء الذين لا تزال تقاليدهم باقية حتى اليوم لأنها وُضعت لتدوم، في هذه الأديرة **شاهدنا نظاماً موضوعاً للصلوات يراعى في إجتماعاتهم المسائية وفي سهراتهم الليلية.**

فصل ٤: فعدد المزامير محدد بإثني عشر مزموراً، سواء كان في صلوات الغروب

أو خدمة الليل (٤) ، وفي ختام الصلاة يُتلى فصلان من الكتاب المقدس ، واحدٌ من العهد القديم والآخر من العهد الجديد (٥) . **وهذا النظام تحدد من زمان سحيق في القدم وقد ظل معمولاً به دون أي إنحراف حتى هذا اليوم عبر الأجيال الكثيرة في كل أديرة تلك النواحي ، لأنه يُقال أنه لم يكن من إختراع إنسان ولكنه أُحدر من السماء للآباء بواسطة خدمة ملاك .**

فصل ٥ : لأنه في الأيام الأولى للإيمان حينما كان لا يُدعى راهباً إلا القلائل الذين يكونون من أفضل الناس ، هؤلاء لأنهم كانوا قد إستلموا منهج هذه الحياة من الإنجيلي مرقس صاحب الذكرى المطوّبة أول من رأس كنيسة الإسكندرية كأسقف ، ليس فقط من حيث الصفات العظيمة التي نقرأها في سفر أعمال الرسل « وكان لجمهور المؤمنين الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول إن شيئاً من أمواله له بل كان عندهم كل شيء مشتركاً ، ... لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها و يأتون بأثمان المبيعات و يضعونها عند أرجل الرسل فكان يوزّع على كل أحد كما يكون له إحتياج » (أع ٤ : ٣٢) بل أضافوا إلى هذه الصفات شيئاً آخر لا يزال أكثر سمواً . **لأنهم إنسحبوا إلى أماكن أكثر إنعزالاً خارج المدن ومارسوا حياة ذات طابع شديد في الزهد والتقوى (٦)**

في ذلك الزمان حينما كانت الكنيسة كاملة بدون تصدع نشيطة يحتفظ أتباعها بفكر أسلافهم ، والإيمان الحار لم يكن يعاني الفتور بسبب التشتت (٧) ؛ إهتم الآباء الأتقياء بعناية كثيرة بأمر الجيل الآتي بعدهم ، فاجتمعوا معاً ليبحثوا النظام الذي ينبغي أن يُختار للعبادة اليومية عند كافة الإخوة ، لكي يسلّموه إلى من سيأتي بعدهم كميراث للتقوى والسلام ليجنبوهم النزاع والإنشقاق . لأنهم كانوا يخشون لئلا تسبب الإختلافات في الخدمات اليومية نزاعاً بين الذين يجتمعون معاً للعبادة الواحدة ، فيحدث في وقت من الأوقات أن يمتد ليخرج جذر سام من الحسد أو الإنشقاق بين الذين سيأتون بعد ذلك .

ولكن كل واحد بمقدار حرارته وغيرته بدأ يضع عدداً من المزامير غير ملتفت إلى ضعف الآخرين ولا إلى إمكانيات جماعة الإخوة بوجه عام ، فاجتهد كل واحد لكي يحدد عدداً هائلاً من المزامير ، فبعضهم قرر خمسين مزموراً والآخر ستين ، و بعضهم لم يقتنع بهذه الأعداد بل طلبوا المزيد .

فكان هناك اختلاف شامل في مناقشتهم التقوية بخصوص حدود قانون العبادة إلى أن حل وقت خدمة صلاة الغروب قبل أن يتفقوا على حل نهائي للموضوع ، و بينما هم ذاهبون لإقامة طقس هذه الخدمة والصلاة قام واحد في الوسط (ملاك) وابتدأ يسبح مرنماً بالمزامير للرب و بينما هم جلوس (كما هي القاعدة إلى الآن في مصر) وعقولهم ناصتة بإنتباه ومثبتة إلى كلمات المرنم ، وقد انتهى من ترنيم أحد عشر مزموراً بما يتخللهم من الصلوات ، وهو يتلوها سطراً سطراً بانسجام - إذ به يُنهي الصلاة بعد المزمور الثاني عشر بـ « الألليلو يا » (٨) ثم يختفي فجأة من أمام عيون الجميع واضعاً بذلك حداً نهائياً للمناقشة والخدمة

(٤) لا يزال هذا النظام معمولاً به في النظام البندكتي في الصباح . ومذكور أيضاً في كتاب خدمة الصلوات للكنيسة الرومانية .

(٥) لقد ضاع هذا التقليد وأصبحت القراءة من العهد الجديد فقط وأضيفت مزامير على الأصل ، و ياحبذا لو انتبهت الكنيسة لتصحيح هذا وإعادة التقليد إلى أصله ، فالكنيسة اليونانية ــ الطقس البيزنطي لا تزال محتفظة بهذا الترتيب .

(٦) يوسابيوس ، الكتاب الثاني ، فصل ١٥ و١٦ ؛ سوزومين ، الكتاب الأول ، فصل ١٢ ، ١٣ .

(٧) يشير كاسيان إلى القرنين الأول والثاني في تاريخ الكنيسة القبطية اللذين كانا عصر هدوء وسلام وراحة في الكنيسة ، استغلها الآباء في ترتيب الكنيسة وصلواتها . قصة الكنيسة القبطية للآنسة العالمة المؤرخة إيريس حبيب المصري ص ٣١ .

(٨) لا تزال عادة إنهاء الصلاة بـ « الألليلو يا » جارية في القانون البندكتي في صلاة باكر وفي كنيستنا .

معاً (٩) .

فصل ٦ :

ومن ذلك تيقن مجمع الآباء كله أنه بعناية إلهية قد تحدد هذا الأمر قانوناً عاماً لكافة الإخوة بتوجيه الملاك ، **وهكذا سنُّوا أن هذا العدد يلزم أن يتّبع سواء في صلاة العشية أو صلاة الخدمات الليلية (صلاة السهر أو نصف الليل)** . ثم أضافوا إلى هذا العدد فصلين : فصل من العهد القديم وآخر من العهد الجديد ، إنما هذا باختيارهم للذين يرغبون في ذلك ، وللذين يشتاقون أن يحتفظوا في عقلهم بمخزون وافر من أقوال الأسفار المقدسة (١٠) . ولكن في يومي السبت والأحد يقصرون القراءتين على العهد الجديد : واحدة من الرسائل أو أعمال الرسل وواحدة من الإنجيل ، وهذا أيضاً يعملونه ابتداء من يوم عيد القيامة حتى يوم الخمسين .

وهكذا صار في كل مصر وطيبة تحديد عدد المزامير بإثني عشر مزموراً في (إجتماع) صلاة الغروب وصلوات السهر الليلي ، على أن يكون ختام كل صلاة فصلاً من العهد القديم وفصلاً من العهد الجديد . وتثبّت هذا الترتيب منذ ذلك الزمان البعيد ، وظل مستمراً دون أن ينكسر حتى هذا اليوم عبر هذه الأجيال الكثيرة !! في كافة أديرة تلك النواحي ، لأنه قيل أنه لم يكن من اختراع بشر إنما صار من السماء للآباء بواسطة ملاك]

---

(٩) هذه القصة رجع إليها في مجمع تور الثاني ٥٦٧م وأُثبتت في المادة الثامنة عشرة كقانون وجاء نصه كالآتي :

[إن سنن الآباء قد نصَّت أن يُتلى إثنا عشر مزموراً في صلاة الغروب الثانية عشر التي تنتهي بالألليلويا التي فوق ذلك كانوا قد تسلّموها بتعليم ملاك] .

(١٠) لا تزال قراءة العهد الجديد سارية في صلاة المساء (العشية) ولكن سقط من التقليد للأسف الشديد قراءات العهد القديم .

٣ ـ تاريخ صلاة عشية (الغروب)

من هذا السرد الشيّق للقديس كاسيان ، نفهم أن صلاة الغروب ـ وهي المضافة طقسياً بعد ذلك لصلاة عشية ـ قد تحدّد لها منذ القرن الأول ، أي منذ زمان بعيد جداً ، عدد مزاميرها ـ كطقس كنسي عام بإلهام الملاك ـ بإثني عشر مزموراً ، تُرتَّل بطرق خاصة إما للتسبيح الفردي في قلاية ، أو كتسبيح يشترك فيه الجميع يسبق خدمة رفع بخور عشية .

وهذه الصلاة ، أي صلاة الغروب ، أول ما نسمع عنها نسمعه في رفع بخور عشية في سفر اللاويين ، ثم نسمع عنها كما هي في أول إنجيل لوقا في قصة خدمة زكريا الكاهن لهذا الطقس وظهور الملاك له . ثم نسمع عنها أيضاً بوصفها كما هي في آخر يوم في خدمة المسيح على الأرض عندما « سبحوا (في الغروب) ثم خرجوا إلى جبل الزيتون » (مرقس ١٤ : ٢٦) . ثم نجد أول طقس يحددها في الديداسكاليا ، أي كتاب تعاليم الرسل ، في البابين الثامن والعاشر ، حيث نجد أمراً صادراً للأساقفة بالتدقيق في جمع المؤمنين في الكنيسة في وقت العشية كل يوم من أيام الأسبوع للصلاة والترتيل ، ومنها يظهر أن طقس التسبيح بها كان يقوم أولاً على مزمور واحد ، المزمور ١٤٠ .

ثم نسمع عنها في بواكير الحياة النسكية في سيرة القديس أنطونيوس ضمن قصة بولا البسيط تلميذه على لسان بالليديوس ، إذ يقول إن القديس أنطونيوس بعد أن كسر صيامه في الغروب ، ورتَّل مزموراً واحداً على الأكل ، قام مباشرة وأدى تسبحة الغروب :

[فقام أنطونيوس وصلى إثنتي عشر صلاة ، ورنَّم إثني عشر مزموراً ، وذهب ليستريح ، ثم في نصف الليل قام وابتدأ يسبِّح بالمزامير حتى طلوع النهار]

ومن هذه القصة يبدو بمنتهى الوضوح أن قانون الإثني عشر مزموراً كان معمولاً به في كل الكنيسة في زمن القديس أنطونيوس . ولكن فلنلاحظ أيضاً أنه لم يكن هناك صلاة

أخرى تخللت بين صلاة تسبحة الغروب وتسبحة نصف الليل .

كذلك نجد هذا الترتيب متَّبعاً في نظام القديس باخوميوس (٣٤٦م) ، الذي تسلَّمه حسب التقليد من الملاك أيضاً . وقد جاء في أقوال بالليديوس أن القديس باخوميوس استلم من الملاك أن يصلي على مدى النهار إثنتي عشرة صلاة (ومع كل صلاة مزمور) ، أما في وقت الغروب وحده فيصلي إثنتي عشرة صلاة ، وعلى مدى الليل يصلي اثنتي عشرة صلاة ، على أن يصلي في التاسعة من النهار ثلاث صلوات (عند اجتماع الإخوة) على أن تكون كل صلاة مقترنة بمزمور واحد .

[فإذا إلتأمت الجماعة للأكل يُرتِّل مزمور واحد (مز١١٨) فلما سأل القديس باخوميوس الملاك مقترحاً أن هذه الصلوات قليلة جداً ، أجابه الملاك : قد رتبت هذا حتى يستطيع الضعاف أن يحفظوا القانون ولا يحزنوا . أما الكاملون فلا يحتاجون إلى قانون للحياة لأنهم يقدمون أنفسهم بجملتهم للصلاة داخل القلاية]

يلاحظ هنا أن قانون باخوميوس مبسط للغاية ، وهو يتبع نظام الثلاث مزامير لكل صلاة من صلوات النهار : باكر والثالثة والسادسة والتاسعة ، وهذا النظام هو الذي أخذ عنه القانون البندكتي (٧٣) الخاص بالمبتدئين .

كما يلاحظ أن صلوات الراهب في المجمع الباخومي تختلف عن صلوات الراهب في نتريا وشيهيت تماماً . ففي مجمع باخوميوس يجتمعون مرة باكر بالنهار ، ومرة في الساعة التاسعة (للأكل) ، ومرة في الغروب ، ومرة نصف الليل [11] .

ولكن هذه الصورة المبسَّطة لصلاة عشية نَمَت بعد ذلك في عصر الآباء واشتملت على تسابيح كثيرة ووعظ وشرح من الكتب حسب الوصف الذي ذكره القديس چيروم في رسالته رقم ٢٢ إلى إيستوخيوم حوالي سنة ٣٩٥م :

(١١) أنظر بالليديوس .

[وبعد الساعة التاسعة (حيث ينكسر قانون الصوم ـ أي بعد الأكل) يجتمعون معاً ليرتلوا المزامير و يقرأوا ما يجب قراءته من الكتب المقدسة ، وعندما تنتهي الصلوات ويجلس الجميع يقف في الوسط واحد يدعونه الأب و يتكلم و يلاحَظ الصمت التام أثناء كلمته]

وغالباً هذا الوصف ينطبق بالأكثر على يوم السبت حيث يستمر الآباء إلى فجر الأحد يصلُّون و يرنمون و يشرحون الكتب ثم يتناولون معاً و يعتكفون بقية الأسبوع .

ولكن هذا لا يمنع أن يقوم كل راهب بتأدية خدمة صلاة الغروب بتسبحتها كاملة أي تسبحة العشية (مبكرة نوعاً ما من أجل إستخدام نور النهار في القراءة) .

هذا نفهمه من قول بالليديوس :

[حوالي الساعة التاسعة كان الواقف يسمع تراتيل المزامير تخرج من كل قلاية حتى ليخيَّل للإنسان أنه واقف في الفردوس]

وهذا يتضح أكثر بالرجوع إلى أقوال الآباء . فنقرأ في قصة ألكسندر تلميذ أرسانيوس أنه بعد أن يعمل طول النهار في قطع سعف النخيل ، كان يذهب إلى قلاية معلمه أرسانيوس حيث يطلب منه أن يتناول طعامه بسرعة لأجل أن يتلو تسبحة الغروب .

٤ ـ تاريخ صلاة سهر الليل Vigilae

(وتشمل صلاة نصف الليل والسحر) [12]

وكذلك نرى أنه قد تحدد أيضاً بنفس الظروف السابقة ، وفي نفس الزمن ،

(١٢) ونجد هذا الترتيب مقرراً منذ القرن الثاني كما هو مسجل في وثيقة « قوانين كنيسة الإسكندرية » المنسوبة خطأ لهيبوليتس ، في القانون رقم ٢٧ هكذا باختصار : [وعن صلاة نصف الليل وصياح الديك (الصياح الأخير أي الفجر)] *ANF., V, p. 258.*

أي منذ القرن الأول حسب رواية كاسيان ، إثنا عشر مزموراً لصلاة الليل المسماه في الطقس الرهباني وفي التقليد الكنسي في الشرق والغرب أيضاً ، بصلاة السهر Vigilae .

هذه الصلاة أول ما نسمع عنها نسمع في مزامير داود النبي « نهضتُ في نصف الليل لأشكرك على أحكامك العادلة » (مز١١٨: ٦٢) . ثم بعد ذلك نسمع عنها في سفر الأعمال في قصة بولس وسيلا وهما في السجن « ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا يصليان و يسبحان الله » (أع١٦: ٢٥) .

وقد تحدد عدد مزاميرها بإثني عشر مزموراً أيضاً . غير أن الآباء أضافوا في زمن مبكر جداً صلاة « السحر » Laudes (أنظر تعاليم الرسل) ، إلى صلاة نصف الليل ، حتى يمكن أن يمتد السهر إلى قرب الفجر. فكانت صلاة السحر صلاة قائمة بمفردها سابقاً ؛ وهي عبارة عن تسبحة مكونة من ثلاثة مزامير هي المزامير ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ؛ المعروفة والمدّونة في كتاب الأبصلمودية تحت إسم الهوس الرابع .

وفي الأصل ، كما سنفهم من وصف القديس كاسيان ، أن صلاة السهر أي نصف الليل ، كانت تنقسم إلى ثلاثة أقسام يتخللها صلوات وقراءة من الإنجيل والعهد القديم . وهذه الثلاثة أقسام هي التي تشير إليها الخدمات الثلاث التي نصلي بها نصف الليل في الأجبية الآن ، وهي مأخوذة أصلاً من صلاة المسيح في جِتسيماني ليلاً ، التي كررها ثلاث مرات مع السجود ، لذلك يحرص الأقباط وخاصة الرهبان على تأدية المطانيات وعددها القانوني ثلاثمائة مطانية أثناء صلاة نصف الليل حيث تُجزأ المطانيات مائة على كل خدمة .

ومن الأدلة التي تشير إلى أن الشعب كان يسهر داخل الكنيسة في الصلاة ، ما حكاه القديس أثناسيوس الرسولي بنفسه وذكره المؤرخ ثيؤدوريت :
(هنا أثناسيوس يحكي قصة محاولة الإمبراطور القبض عليه بإيعاز من الآريوسيين) :

[وكان الوقت مساءاً وكان الشعب في صلاة السهر ينتظرون خدمة

القداس (الإفخارستيا) ، وإذا بفرقة من العساكر تداهم الكنيسة ، نحو خمسة آلاف جندي مع قائدهم ، المدعو سيريانوس ، وكلهم شاهرون السيوف والرماح . وأحاطوا بالكنيسة بإحكام حتى لا يستطيع الذين داخل الكنيسة من الإفلات . في هذا الوقت قررت أن لا يتعرض أحد من الشعب للسوء ، فعزمت أن أواجه الخطر بنفسي فجلست على الكرسي المخصص لي (إثرونوس) **وأومأت إلى الشماس أن يبدأ المزمور، وهو المزمور الذي يجاوب فيه الشعب « لأنه صالح وإلى الأبد رحمته » (يلاحظ أن هذا هو الهوس الثاني من تسبحة السهر- نصف الليل)** . وفي تلك الأثناء اقتحم القائد الكنيسة مع عساكره وأحاطوا بالهيكل بُغية القبض عليَّ ، وقد ألح عليَّ الإكليروس ومن بقي من الشعب أن أهرب ، ولكنني أبيت ذلك بشدة حتى يخرج الجميع ، ووقفت أصلي . ولكن جاء جماعة من الرهبان وسحبوني إلى الخارج ، فخرجت معهم و يشهد عليَّ الحق أنني عبرت وسط العساكر وحُفظتُ بعناية الله] (١٣)

وهنا نلاحظ :

١ ــ **سهر الشعب** داخل الكنيسة في إنتظار القداس .
٢ ــ **إقامة التسبحة قبل القداس .**
٣ ــ **طريقة التسبيح الجماعي بمرد واحد متكرر للشعب .**
٤ ــ **مسئولية الرئيس الموجود عن التسبحة** أي الخدمة العامة .

٥ ــ تاريخ تحديد السبع صلوات النهارية والليلية

ومما سنعرفه من وصف كاسيان لنظام الصلوات عند الآباء في نهاية القرن الرابع ، **نجد أن الآباء لم يحددوا عدداً من المزامير ولا ساعات لصلوات النهار، بإعتبار أن المفروض والجاري أيضاً أن كافة الآباء كان يصلّون طول النهار بالمزامير،**

---

(13) Theodoret, E. H., II, ch. X.
Athanas., Ap. Defug., 24.

كتسبيح مستمر، أثناء صومهم وشُغْل أيديهم، بما يفوق أي رقم يمكن تحديده (١). أي أنه لم يحدَّد عدد المزامير إلا في الصلوات الجماعية داخل الكنيسة فقط كطقس خدمة، حيث أن التسبيح يستلزم وقتاً كبيراً جداً بالنسبة للتلاوة، ولم يكن في الكنيسة تلاوة للمزامير لا فردية ولا جماعية، إنما تسبيح فقط. ولكن هذا المستوى العالي جداً في العبادة لم يتمكن عامة الشعب من اللحاق به، بل وحتى الرهبان أنفسهم لم تَدُمْ فيهم هذه الحرارة المتأججة التي كانت في الأجيال الأولى التي جعلتهم يرتفعون فوق التحديد والأرقام. فلما فترت الحياة الرهبانية، **رجعوا إلى القوانين الأخرى التي كان معمولاً بها لدى الرهبان الضعفاء (قانون الرهبان المبتدئين)، فابتدأت تتحدد الصلوات وتنحصر في ساعات معينة من النهار والليل، وابتدأت تتحدد أعداد من المزامير لكل صلاة بعد أن كان الآباء يتلون كتاب المزامير كله أثناء النهار والليل** بدون عناء.

والتأرجح بين تحديد سواعي وأعداد للمزامير وبين الصلاة الدائمة بكتاب المزامير كله، يتضح من القصة الواردة في كتاب «أقوال الآباء» تحت رقم ١١٨:

[أنْفَذَ رئيس أحد أديرة فلسطين إلى الأب إبيفانيوس قائلاً: منذ أن تركتنا ونحن غير مستهينين بالصلاة. فنحن نؤدي خدمة الصلوات في الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة، وتسبحة الغروب أيضاً. فما كان من الأب إبيفانيوس إلا أن وبخ الرسول قائلاً: يلزم أن تعلموا أنكم أهملتم خدم الصلوات التي لباقي الساعات الثمانية التي لباقي اليوم. لأنه يليق بالراهب الذي ابتعد عن العالم أن يعطي نفسه للصلاة أمام الله بلا إنقطاع سواء في قلبه أو في الخدمات المعينة أو التي يعملها من نفسه]

(١) يلاحظ أيضاً أنه قد جرى منذ البدء تحديد عدد الصلوات والمزامير العامة للرهبان المبتدئين والضعاف عند باخوميوس بواسطة ملاك أيضاً (ولكن المؤرخ جناديوس يقول أن باخوميوس وضعها تحت إرشاد ملاك). كما يلاحظ في سيرة القديس أنطونيوس أنه كان يصلي الساعة التاسعة قبل كسر الصوم (الفصل ٦٤ من كتاب حياة أنطونيوس) بعدد معين من المزامير.

وكاسيان يذكر بصفة قاطعة أن الكنيسة في الشرق كله أخذت بقانون الثلاثة مزامير في كل صلاة من صلوات النهار، ما عدا الغروب والليل، لأنها كانت مقررة منذ زمن بعيد بإثني عشر مزموراً في الخدمة الطقسية.

وقد تسرَّب التقليد القبطي عن طريق كاسيان إلى الغرب وبالأخص في أديرة البندكتين وغيرها، إذ نجدهم يسنُّون الإثني عشر مزموراً لبعض ساعات النهار، كما أن القانون الرهباني البندكتي جعل صلاة نصف الليل إثني عشر مزموراً بالإضافة إلى ما كان موضوعاً لها. وكذلك قانون سيزار يوس أسقف آرلز، الذي جعل قانون الإثني عشر مزموراً مخصصاً ليومي السبت والأحد والأعياد، ولعل هذا أقرب إلى الروح القبطية، لأنه إلتزم بالقانون داخل الكنيسة فقط حيث تكون الصلاة في هذه الأيام طقسية أي داخل الكنيسة. كما نجد أن هذا القانون عينه يسري على كل أيام الأسبوع، في كتاب صلوات الكنيسة الرومانية.

وبينما نجد أن ساعات النهار منذ البداية كانت في مصر حتى القرن الرابع (أيام كاسيان) مطابقة لمفهوم السبع صلوات الجاري الآن (٢)، وهو الواضح من شرح كاسيان عن نظام الصلاة في مصر، إلا أن هذا النظام لا نراه واضحاً في كتابات القديس باسيليوس لرهبانه:

[ولكن كما يقول داود «سبع مرات في النهار سبَّحتك بسبب أحكامك العادلة»، **فبما أن عدد الساعات التي ذكرناها لا توفي السبع ساعات التي للصلوات**، فيلزمنا إذن أن نقسِّم صلاة الظهر (السادسة) ونقول بعضاً منها قبل تناول الطعام، والبعض الآخر بعد الغذاء، حتى نستطيع في بحر النهار أن نكمِّل بالضبط السبع تسبيحات المفروضة لله] (٣)

(٢) كانت الكنيسة القبطية ولا زالت تعتبر السبعة صلوات هي لليل والنهار معاً: أربعة صلوات ليلية: الغروب، والنوم، ونصف الليل، والسحر؛ وثلاثة نهارية: الثالثة والسادسة والتاسعة. ولكن لإندماج صلاة السحر (الفجر) مع صلاة نصف الليل، حلَّت صلاة باكر موضعها في القرون المتأخرة.

(3) An Ascetic discourse p. 133 klarke.

ومن هذا يتبين عدم إستقرار نظام الصلوات في الشرق حتى أيام القديس باسيليوس .

أما الساعات المحددة في قانون القديس باسيليوس فكانت : باكر ، الثالثة ، السادسة ، التاسعة ، الغروب ، (إشعال المصابيح) والنوم . حيث صلاة باكر مستحدثة عند القديس باسيليوس) .

ولكن لكي تكون سبع صلوات نهارية ، لذلك إقترح القديس باسيليوس (وكان محباً للتغيير والتجديد) أن يقسّم السادسة أيضاً إلى صلاتين حتى يوفي سبع صلوات النهار ، كقول داود النبي . أما الليل فكان في نظامه المأخوذ عن الأقباط عبارة عن صلاة نصف الليل وصلاة السحر التي تسبق نور الفجر . وذلك لكي يوفي قول داود النبي :

أولاً : « نهضتُ في نصف الليل لأسبّحك »

ثانياً : « سَبَقَتْ عيناي وقت السحر (أي إستيقظت قبل الفجر) لألهج في جميع أقوالك » (مز١١٨ : ١٤٨)

وهذا التقليد لصلوات السواعي بدأ يظهر في كنيسة شمال أفريقيا بعد مصر بمدة طويلة ونقرأ عنه في كتابات القديس كبريانوس الشهيد أسقف قرطاجنة ، في مقالة عن الصلاة كتبها حوالي سنة ٢٥٠م

[لأنه في الساعة **الثالثة** حلّ الروح القدس على التلاميذ فتحقق الإنعام بوعد الرب . وأيضاً في الساعة **السادسة** كان بطرس يصلي على سطح البيت فأُعلم بواسطة علامة وبكلام من الله موبّخاً ، لكي يقبل الجميع إلى نعمة الخلاص ، لأنه كان في شك من قبول الأمم في المعمودية . ومن الساعة السادسة حتى **التاسعة** صُلب الرب وغسل خطايانا بدمه لكي يفدينا ويحيينا وأكمل نصرته بآلامه .

ولكن بخصوصنا نحن أيها الإخوة الأحباء ، **فبجوار ساعات الصلاة التي كانت متّبعة قديماً قد إزدادت لنا بالحري الأوقات والأسرار معاً ، لذلك**

ينبغي أن نصلي أيضاً في الصباح (٤) حتى ندعّم تذكار قيامة الرب من الأموات ، **وكذلك عند غروب الشمس وانتهاء النهار نصلي أيضاً** ، لأن المسيح هو الشمس الحقيقي والنهار الدائم . وعندما نصلي لكي يعود لنا النور ، فنحن في الواقع نصلي للمجيء الثاني للمسيح الذي سيعطينا نعمة النور الأبدي] (٥)

وهنا نجد أن في أيام القديس كبريانوس كانت الصلوات في كنيسة شمال أفريقيا ثلاثة فقط أما صلاتيّ باكر وعشية فلم تكن تُمَارس — وبعد هذا التاريخ بأكثر من مائة سنة نقرأ للقديس چيروم (٣٩٥م) عن دخول صلاتيّ باكر والمساء في خطابه رقم ٢٢ للراهبة يستوخيوم :

[وبالإضافة إلى هذا ، فعلى الرغم من أن الرسول يأمرنا أن نصلي بلا إنقطاع ، إلا أنه يجب أن نعيِّن أوقاتاً للصلاة ، حتى إذا ما حدث وانشغلنا بأي عمل فإن الوقت نفسه يذكّرنا بواجبنا . وكل واحد يعرف أن الأوقات المعيَّنة هي الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة ، **وفي الفجر وعند المساء**]

ويلزمنا هنا أن نقدم شرح القديس باسيليوس لأنواع الصلوات وعددها حيث يظهر بدء نمو عدد الصلوات بمنتهى الوضوح في قانونه النسكي رقم ٣٨ حيث يقول :

[وهذه الأوقات هي :

(٤) أول ذكر لصلاة باكر ، في الحقيقة ، هو إنجيل مرقس « وفي الصبح باكراً جداً قام وخرج ومضى إلى موضع خلاء وكان يصلي هناك » (مر١ : ٣٥) . وأول ذكر لتحديد مزامير لصلاة باكر ، كصلاة خاصة منفردة عن التسبحة ، كان من وضع آباء فلسطين ، وسنقرأ عنه في كتابات كاسيان . ولكن المعروف أن القديس باسيليوس أول من فرض صلاة باكر كقانون ديري (أنظر *Quasten III* صـ ٢٢٦) .
أما أول ذكر لصلاة الغروب كقانون يتلى في البيوت خارج الكنيسة ، أي خلاف طقس العشية ، فهو قديم جداً يبدأ من الأيام الأولى للكنيسة . فتسبحة « النور البهي » التي تتلى في البيوت عند إشعال النور قديمة منذ أيام الرسل الأولى .

(5) *De Orat. Dominica.*

+ نبدأ بصلاة « **الفجر** »(٦) ، حتى يكون بدء نشاط النفس والعقل مكرَّساً لله . ولا نهتم بشيء قبل أن نفرح بالتفكر في الله كما هو مكتوب « إنصت يارب لكلماتي ، واسمع صراخي إصغ إلى صوت طلبتي ياملكي وإلهي ، لأني إليك أصلي يا رب . باكراً تسمع صوتي بالغداة أقف أمامك وتراني ... » (مز ٥) (٧)

+ وأيضاً في **الساعة الثالثة** يلزم أن نقوم للصلاة ونجمع الإخوة (في دير) ... ، متذكرين عطية الروح القدس التي أُعطيت للرسل في الساعة الثالثة ، فيلزم أن نصلي معاً ، مجتمعين ، حتى نصير نحن أيضاً مستحقين أن نقبل التقديس في نفس الميعاد ، سائلين (الروح القدس) أن يقودنا و يعلّمنا ما هو نافع ، مثل الذي قال : « قلباً نقياً أخلق فيَّ يا الله وروحاً مستقيماً جدده في أحشائي ، لا تطرحني من قدام وجهك وروحك القدوس لا تنزعه مني . إمنحني (رد لي) بهجة خلاصك وعضّدني بروح قيادة » (مز ٥٠)

+ في **الساعة السادسة** نستأنف الصلاة كالقول : « عشية و باكر ووقت الظهر أقول فيسمع صوتي » (مز٥٥ : ١٧) ، كي ننجو من شيطان الظهيرة (مز٩٠) . لذلك ينبغي أن نقول هذا المزمور .

+ **الساعة التاسعة** تُسلّمت لنا كضرورة للصلاة ، بواسطة الرسل أنفسهم ، وذلك في سفر الأعمال ، كيف أن بطرس و يوحنا صعدا إلى الهيكل في الساعة التاسعة للصلاة .

+ **وحينما ينتهي النهار** (تسميها الدسقولية الساعة الثانية عشرة آخر النهار) ، ننهض لنشكر من أجل ما قد أُعطي لنا ، ومن أجل ما أكملناه من الصلاح ، ونعترف بما عجزنا عن عمله ، وعن كل خطية إرادية ، أو غير إرادية ، أو حتى

(٦) هذه الصلاة هي المسماه « باكر» وهي غير صلاة السحر الأصيلة في نظام مصر وهي من ترتيب الآباء الأوائل جداً في فلسطين ولعل واضعها هو الأب القديس هيلار يون مؤسس الرهبنة هناك تلميذ الأب أنطونيوس . ونقرأ عن هذه الصلاة في قوانين هيبوليتس القديس والشهيد (كواستن 2 صـ ١٦٢) أنه رتب صلواتها . وهذه الصلاة يسميها كاسيان خطأً *Mattins* ولكن على وجه الأصح هي *Prime* عند اللاتين . وهي تسمى أيضاً « صلاة الليل الثانية » .

(٧) أنظر قانون هيبوليتس ٣٨ .

التي لم نفطن لها ، سواء بالقول أو العمل ، أو حتى في القلب ، متضرعين إلى الله أن نجد العفو عنها جميعاً بالصلاة ، لأن مراجعة أعمال اليوم يؤمّن لنا عدم العودة إلى أخطائنا مرة أخرى كالمكتوب : « ما تقولونه في قلوبكم إندموا عليه في مضاجعكم » (مز٤ : ٤)

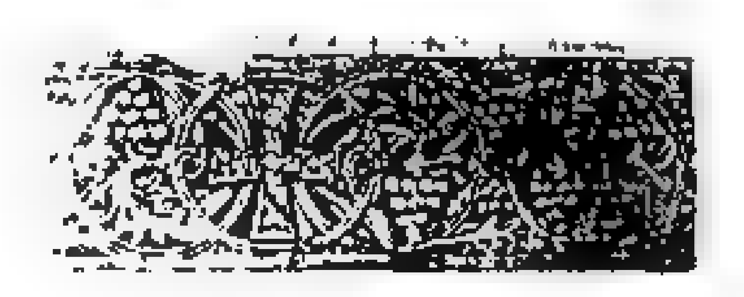
+ وأيضاً في **بدء الليل** (تسميها الدسقولية « أول الليل » عند **النوم**) . نسأل حتى تكون راحتنا بلا إنزعاج ولا خيالات . و يلزم أن نرتل المزمور ٩٠ .

+ ثم **نصف الليل** ، نجد بولس وسيلا سلّما إلينا الصلاة فيها كضرورة : « ونحو نصف الليل كان بولس وسيلا يصليان و يسبّحان الله » (أع١٦ : ٢٥) . وكذلك المرنم داود يقول : « في نصف الليل نهضت لأشكرك على أحكامك العادلة » (مز١١٨)

+ وأيضاً يلزم أن ننهض للصلاة **قبل الفجر**(٨) ، حتى لا يفاجئنا النهار ونحن نيام في الفراش ، كالقول القائل : « سَبَقَتْ عيناي وقت السحر لأتلو في أقوالك » (مز١١٨) .

وواحدة من هذه الصلوات لا ينبغي أن تسقط أو تُهمّل عند الذين اختاروا أن يعيشوا حياتهم ساهرين لمجد الله ومسيحه .

ولكني **أظن** أنه من النافع أن يكون هناك تنوع واختيار في الصلوات والمزامير، في الساعات المحددة ، لأن الصلاة على وتيرة واحدة تسبب الإعياء للنفس والتشتت ، ولكن إذا كانت المزامير والقراءات المحدّدة للساعة تتغير وتتنوع فإن شوق النفس للصلاة يتجدد و يُحفظ الإنتباه]



(٨) وهي المسماه صلاة السحر وهي أصيلة جداً في الطقس القبطي وتبتدىء والليل باقي وتنتهي عند إشراق نور النهار وتسمى في الطقس اللاتيني *Laudes* أي التسبحة لأن مزاميرها ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ كلها تسبيح .

٦ ــ ظهور صلاة النوم في الطقس الغربي

ومن ترتيب القديس باسيليوس تظهر صلاة النوم بوضوح داخل القانون ، أما أول ذكر لصلاة النوم المسمَّاه **Compline** (أي ختام صلاة النهار) في الطقس الغربي ، فنجده في القانون البندكتي رقم ١٦ ، حيث تحدَّد ميعادها في الشتاء بالساعة السادسة بعد الظهر على أن تكون صلاة الغروب الساعة الرابعة والنصف (٩) . والملاحَظ أن هذه الصلاة لم يذكرها كاسيان لأنها لم تكن دخلت (١٠) لا في نظام صلوات الكنيسة الشرقية ولا في صلوات الكنيسة الغربية . و يقول العالم **Edgar Gibson** الذي ترجم مؤلفات كاسيان في الپاترولوجيا ، أن صلاة النوم أُدْمجت في قانون القديس بندكت بعد كاسيان بقرن من الزمان ، أي أوائل القرن السادس ، حيث يقول العلاَّمة **Duchesne** (١١) : « إنه لا يوجد إثبات لوجود هذه الصلاة قبل ظهورها في القانون البندكتي ، مع أننا نراها مستقرة في قانون القديس باسيليوس قبل هذا الزمن بكثير. فالمحقق أن القديس باسيليوس كتب نسكياته حوالى سنة ٣٦٥م ، وذكرها بوضوح في القانون النسكي الكبير رقم ٣٨ ، فلو رجعنا لكتابات القديس باسيليوس نفسها في فصول سابقة زمنياً على القوانين النسكية ، و بالتحديد في أول حديث نسكي له ، نستطيع أن نحدد الزمن الذي دخلت فيه صلاة النوم في الطقس الكنسي عند القديس باسيليوس !

[إن الحياة كلها ينبغي أن تكون زمن صلاة ، ولكن من الضرورة القصوى أن يتوقف التسبيح و يتوقف السجود إلى فترات . لذلك فالمفروض أن يتبع الإنسان ساعات الصلوات التي أوصى بها القديسون .

---

(9) Butler, Benedectine Monasticism.

(١٠) موجودة في قصة أنطونيوس مع بولا الساذج .

(11) Hist. of Relig. p. 281.

داود النبي يقول : « في نصف الليل نهضتُ لأشكرك على أحكامك العادلة » .

ونجد بولس وسيلا يسيران بمقتضى هذا القانون حينما سبَّحا الله في السجن في منتصف الليل . كذلك فداوود يقول : « عشية و باكر و وقت الظهر أقول فيسمع صوتي » .

و بالأكثر فإن حلول الروح القدس حدث وقت الساعة الثالثة كما تعلمنا من سفر الأعمال ،

ثم الساعة التاسعة تجلِّل بذكرى آلام الرب التي لأجل حياتنا .

ولكن لأن داوود قال : « سبع مرات في النهار سبَّحتك على أحكامك العادلة » ، ولأن أوقات الصلاة التي ذكرناها لا تكمِّل السبع ساعات المفروضة للصلاة ، لذلك يلزم أن نقسم صلاة نصف النهار (أي السادسة) ، فنتلو جزءً منها قبل تناول الطعام ، والجزء الآخر بعده ، حتى نكون في بحر اليوم قد أكملنا بالضبط السبع تسبيحات اليومية لله]

فالملاحظ من هذا العرض لساعات الصلاة ، أن القديس باسيليوس يذكر تقليد القديسين الذي استلمه ويحدد ساعاته ، وضمناً لا نجد فيه أي ذكر لصلاة النوم ، مما يفيد أن القديس باسيليوس هو نفسه الذي ارتأى أخيراً أنه بدل أن يقسم صلاة الساعة السادسة نصفين حتى تكمل السبع صلوات ، فإنه عاد **وأضاف صلاةً برمتها بعد صلاة العشية (الغروب) ، هي صلاة النوم التي أسماها صلاة ختام النهار Compline كما هو واضح في القانون رقم ٣٨ ، حتى تكمل السبع صلوات ليوم كامل أي للنهار والليل معاً .** وهكذا اتفق كافة العلماء أن القديس باسيليوس هو أول من أدخل صلاة النوم في قانون الصلوات المفروضة على الرهبان أولاً ، ثم الشعب (١٢) . ثم عاد القديس باسيليوس طمعاً في المزيد من النسك وفصل صلوات

---

(12) Quasten, III, p..226.

الليل عن صلوات النهار، حتى يلتزم بنفس الروح التي عاش بها داوود النبي ، فجعل صلاة نصف الليل قائمة بذاتها طبقاً للمزمور١١٨ ، وفصل صلاة السحر عن صلاة نصف الليل وجعلها تمتد حتى مطلع الفجر، ثم أضافها في العدد على صلاة باكر والثالثة والسادسة والتاسعة والغروب والنوم حتى تكمل السبع صلوات النهارية التي يحددها داوود في المزمور للنهار فقط ، أي في نصف الليل ينهض ليصلي ، وفي النهار سبع مرات .

« في نصف الليل نهضتُ لأشكرك على أحكامك العادلة ،... وسبع مرات في النهار سبحتك على أحكام عدلك » (مز١١٨)

فيكون ترتيبها عند القديس باسيليوس كالآتي :

نصف الليل ، السحر ، باكر ، الثالثة ، السادسة ، التاسعة ، الغروب وختام النهار (النوم) .

ولكن ليس معنى هذا أن القديس باسيليوس يُعتبر أول من استخدم صلاة النوم في الطقس الكنسي ، لأنها كانت ثابتة ومستقرة في الكنيسة القبطية منذ القدم وتابعة لصلاة عشية ، فلو رجعنا إلى الديداسكاليا ــ أي كتاب تعاليم الرسل ــ (الباب السابع والثلاثون) ، نرى ذكراً ضمنياً للساعة الأولى من الليل كساعة تصلح لصلاة الأسقف عن الشعب وسمّاها الكتاب (صلاة أول الليل عند النوم) .

[و بعد ذلك يلازم الأسقف المذبح و يتفرغ للصلاة ليلاً ونهاراً ، لاسيما في الساعات التي تصلح للصلاة ، وهي **أول الليل عند النوم** ، ثم نصف الليل ، ثم وقت الغداة أول ساعة من النهار (باكر) ، والثانية عشرة آخر النهار (عشية) ، وثالث ، وسادس ، وتاسع ساعة ، والمساء (البتار) ، وإن صلّى عن نفسه وعن كل الشعب في كل ساعة فجيداً يفعل]

٧ ــ ظهور صلاة الستّار في الطقس القبطي

والملاحظ أن كتاب الدسقولية يُعتبر أول من أشار إلى صلاة الستار التي أسماها « صلاة ساعة **المساء** » ، التي تدعى ساعة حجاب الظلمة أو ستار الظلمة Pray of Veil ، وميعادها أول دخول عتمة الليل .

ويسميها عامة الناس « الستّار » ، وهذا نطق خاطىء ، فهي تُنطق بكسر السين وفتح التاء بدون شدة ، لتعني Veil أي ستار الظلمة ، أو حجاب الظلمة .

وهذه الصلاة ولو أنها ذُكرت كإختصاص للأسقف والكاهن إلا أنها دخلت شيئاً فشيئاً في ساعات الصلاة .

ولكن يُلاحظ أن صلاة المساء أي الستار فرضها كتاب الدسقولية على الأساقفة والكهنة فقط ، وليس على عامة الشعب ، وظلت هكذا حتى اليوم . في كافة كتب الصلوات « الأجبية » نجد تحت كلمة صلاة الستار مكتوب « وهي خاصة بالرهبان » ، والأصح « هي خاصة بالأساقفة والكهنة » ، حسب نص الدسقولية ، لأن الرهبان مفروض فيهم أنهم لا ينامون في الساعة الأولى من الليل بل يسهرون طويلاً في صلواتهم .

٨ ــ كاسيان يشرح الفرق بين نظام الأقباط الصارم في الصلوات وبين نظام فلسطين

و يلزمنا هنا أن نستعرض أقوال كاسيان عن بقية قانون الصلاة النهاري الذي كان سارياً في كافة كنائس الشرق آنذاك بما فيها الكنائس التي في مصر أيضاً ، لأنه إنما إستثنى من هذا القانون النهاري النُسّاك في نتريا وشيهيت فقط ، حيث كانوا قد فرضوا على أنفسهم الصلاة الدائمة غير المحددة طوال النهار...

الكتاب الثاني :

فصل ١ :

[لقد شرحنا بمعونة الله وعلى قدر إستطاعتنا النظام الليلي للصلوات والمزامير كما هو متبع في مصر كلها .

(يلاحظ أنه ضمَّ الغروب على نصف الليل وعلى السحر وسماها نظام « صلاة الليل Vigilae » والآن يلزمنا أن نتكلم عن خدمة صلوات الساعة الثالثة والسادسة والتاسعة ، حسب قانون أديرة فلسطين (وسوريا) وما بين النهرين ، حتى نلطِّف ، بعوايد تلك النواحي ، صرامة المصريين في تلمذتهم للكمال الذي يصعب الإقتداء به .

فصل ٢ :

إذ أن خدمة الصلوات التي تعلمناها لنقدمها للرب في الساعات المحددة على فترات متوالية بتنبيه المسئول عن الإجتماعات ، نجدها عند المصريين تقام بدون إنقطاع على مدى النهار كله ، بالإضافة إلى عمل اليدين و بالإضافة أيضاً إلى الصلوات التي يقدّمونها بحريتهم .

لأن الشغل اليدوي يمارسونه بدون إنقطاع داخل القلاية بطريقة تجعلهم قادرين على الهذيذ بالمزامير و بقية الأسفار المقدسة دون توقف ، فيعبرون النهار كله في خدمة الصلاة التي نحدد لها نحن أوقاتاً معينة . **على أنه لا يوجد عندهم إجتماعات عامة لخدمة الصلاة سوى الغروب (عشية) ونصف الليل ، وأيام السبت والأحد [1] حينما يجتمعون معاً في الساعة الثالثة من النهار**

(١) بداية رسم القداس صباحاً كان إشارة إلى زمن القيامة وخاصة أنه ابتُدىء به يوم الأحد .

إقامة قداس يوم السبت كان من التقليدات القديمة جداً المتبعة في مصر و بخاصة لدى الرهبان ، وكذلك يذكر القديس باسيليوس أيضاً هذا اليوم من الأيام الرسمية التي تقام فيها القداسات وهي الأربعاء والجمعة والسبت والأحد (رسالة ٩٣) .

و يذكر القانون ٤٩ من قانون لاوديكا (سرديكا ٣٦٠م) هكذا : « أثناء صوم الأربعين المقدسة لا تقدّم القرابين إلا في يومي السبت والأحد » *N. & P. N. Vol. XI. 213.*

للتناول من الأسرار المقدسة [2] .

ولهذا فالذي يقدمونه بالصلاة الدائمة أكثر من الذي يقدم في الأوقات المحددة ، وفي نفس الوقت أكثر قبولاً لدى الله ، بصفتها تقدمة حرية وليست بإضطرار قانون ، كما يذكر ذلك داود بسرور « أقدم لك ذبيحة حريتي » (مز٥٤) ، « ليت تقدمة فمي بحريتي تدخل إلى حضرتك » (مز١١٨:١٠٨)]

تحديد ثلاثة مزامير لكل صلاة من صلوات النهار :

[أما في أديرة فلسطين و بين النهرين وكل الشرق نجد أن خدمة السواعي المذكورة ــ أي الثالثة والسادسة والتاسعة ــ تكتفي بثلاثة مزامير في نهاية كل منها .

و بذلك تقدّم لله الصلاة في الأوقات المعينة ، فيمكن تأدية بقية الواجبات الروحية بإعتدال ، وفي نفس الوقت لا تُعاق خدمات العمل . على أننا نعلم أنه في هذه الثلاثة أوقات ــ أي الثالثة والسادسة والتاسعة ــ كان دانيال النبي يسكب صلاته أمام الله يوماً فيوماً في العُلِّية والنوافذ مفتوحة . كما أنه ليس بلا معنى قد تحددت هذه الساعات لإقامة خِدَم الصلوات ، لأن فيها كملت المواعيد الإلهية وتحقَّق الخلاص :

ففي الساعة الثالثة حلّ الروح القدس على التلاميذ وهم مجتمعون معاً للصلاة . أما الساعة السادسة ففيها تمت ذبيحة الخلاص الطاهرة التي لربنا ومخلصنا حينما ارتفع على الصليب لخلاص العالم كله كفارة عن خطايا البشرية وهتك الرئاسات والقوات وظفر بهم جهاراً .

ونحن كلنا الذين كنا تحت حكم الموت مربوطين بدين الخطية بمقتضى

(٢) لقد تثبتت هذه الساعة من النهار لإقامة طقس الإفخارستيا بقانون منسوب خطأ إلى البابا تلسفوروس (سنة ١٢٧-١٢٨م) سابع أسقف بعد الرسل على روما ولكنه طقس قبطي أصيل .

وثيقة لا يمكن تصفيتها ، خلصنا منها إذ رفعها من الوسط (التي كانت بيننا و بين الله أبيه) وسمَّرها على صليبه تذكاراً (كو٢ : ١٤، ١٥) .

وأما في الساعة التاسعة فاحترق الجحيم ، و ببهاء مجده بدّد ظلمته (خُلوُّه من الرحمة) ، وحطم أبوابه النحاس (عدم إستجابة الصلوات منه) ، وكسر مصاريعه الحديدية (حالة المذلة فيه) ، وفكّ سبي القديسين ورفعهم معه إلى السماء (٣) .

أما بخصوص خدمة المساء ، فمنذ العهد القديم منصوص عنها كيف كانت تقدَّم حسب الناموس (في الهيكل) ، وفيها يقول داوود « لترتفع صلاتي كالبخور قدامك وليكنْ رفع يديَّ كذبيحة مسائية » (مز١٤١ : ٢) ، و بالأكثر نستطيع أن ندرك بمعنى أعمق جداً هذه « الذبيحة المسائية الحقيقية » كيف قدمها الرب مخلصنا وقت العشاء لتلاميذه عندما أسس سر الإفخارستيا للكنيسة .

كما أن هذه « الذبيحة المسائية » التي هي المسيح نراها في اليوم التالي الذي فيه اكتملت الدهور لخلاص كل العالم مقدَّمة (على الصليب) إلى الآب « برفع اليدين » ، فرفعنا معه من الهاوية إلى السماء !

وأما بخصوص خدمة الصباح فهي التي تعلمنا منها كيف نسبح قائلين « يا الله إلهي إليك أبكر» (مز٦٣) ؛ « في وقت السحر أرتل لك » (مز٦٣) (٤) .

(٣) هذا إعتقاد الآباء الرسوليين على وجه العموم مثل القديس إغناطيوس (الرسالة إلى مغنيسيا : ٩) والقديس إير ينيئوس (ضد الهرطقات ٤ : ١١٠ : ٥٣) والعلاَّمة ترتليانوس *(Ad. Animae.IV.)* ومحسوب أنه من التقاليد المسلَّمة من الرسل . إرجع (١بط ٤ : ٦، ٣ : ١٩ ؛ أف ٤ : ٩)

(٤) نورد هنا أمثلة للتراتيل المسطة المؤلفة على صلوات السواعي ، ونرجو أن يقوم الموهوبون بتأليف تراتيل لاهوتية مثلها : =

= في السحر ربطوه
وفي باكر شتموه وأهانوه ،
في الثالثة حكموا عليه ،
وفي السادسة صلبوه ،
في التاسعة أسلم الروح وبجرأة طعنوه ،
في الغروب أنزلوه . و بالأحزان حملوه ،
وفي المساء لفُّوه . وفي قبر وضعوه

ومثل آخر :

في السحر قام وفك القيود كبكر بين المائتين
وفي باكر أشرقت البشرى في ربوع فلسطين
في الثالثة أرسل الروح يوم الخمسين
وفي السادسة أعلن بالرؤ يا دخول الأمميين
في التاسعة نزل إلى الجحيم ورَدّ المسبيين
وفي الغروب ردّ فرحة تلميذي عمواس اليائسين
وفي المساء أسس سر العشاء لانتظار مجيئه كل حين
وفي نصف الليل يأتي ليشدد قلوب الساهرين

وهذه الساعات هي التي خرج فيها رب (الكنيسة) ليستأجر فعلة لكرمه (مت ٢٠ : ١-٦) ومذكور كيف استأجر بعضهم في الصباح الباكر التي تشير إلى خدمة باكر النهار ، ثم الثالثة ، والسادسة ، والتاسعة ، وأخيراً في الساعة الحادية عشر وهي التي تشير إلى الساعة التي نوقد فيها المصابيح (٥)]

٩ ـ كاسيان يشرح تاريخ بداية دخول صلاة باكر منفصلة عن تسبحة نصف الليل والسحر

و يذكر كاسيان في الفصل الرابع من الكتاب الثاني من كتب المبادىء (السُّنَنْ والشرائع) قصة فصل صلاة باكر عن تسبحة الليل كالآتي :

[ولكن يلزم أن تعلموا أن صلاة باكر أول النهار التي تعتبر الآن هامة ومرعية في

(٥) *Vesper* كلمة لاتينية تعني « مساء » *Evening time* وصارت للصلاة . المرادف اللاتيني *Lucernaris hora* أي ساعة إضاءة النور.

كل الغرب حددت لتكون صلاة قانونية في أيامنا نحن فقط ، أما في ديرنا (بفلسطين) فكانت صلاة باكر — (التي تقام الآن عامة بعد وقت قصير من مزامير وصلوات الليل في غالا (فرنسا) — **كانت تنتهي مع صلاة سهر الليل** (١) ، فكانت الساعات الباقية على ظهور نور النهار متروكة أولاً لإنعاش الجسد ، ولكن بسبب كسل بعض الإخوة وإفساد هذه الفرصة الممنوحة لهم بإنغماسهم في النوم ، لأنه لم يكن عليهم اضطرار أن يخرجوا من قلاليهم في هذه الساعات لعدم وجود خدمات فيها فكانوا لا يقومون من نعاسهم حتى الساعة الثالثة ، فكانوا يظلون في حالة خمول من جراء النوم الكثير بالنهار في حين كان الواجب عليهم أن يُشغلوا ذواتهم في واجباتهم . فتقدمت شكوى للشيوخ وخصوصاً من الإخوة الحارّين بالروح الذين انزعجوا جداً بسبب هذا الكسل . فتقرر بعد محاجاة كثيرة وإعتبار كل الظروف أنه حتى طلوع الشمس إن كان ليس لأحد إستطاعة أن يعمل عملاً بيديه فليتّم ليعطي جسده راحة إن كان لا يأتي من ذلك ضرر، **ثم يقومون بعد ذلك من فراشهم — أي عند طلوع الشمس — ثم يُستدعى الجميع ليجتمعوا لخدمة هذه الصلاة**

(باكر) و يسبّحوا الثلاثة مزامير مع صلواتها ، إعترافاً وتمجيداً للثالوث (٢) **، حسب النظام القديم ، المحدِّد عدد مزامير سابقاً لساعات الثالثة والسادسة والتاسعة — وهكذا بهذا الترتيب الموَّحد للجماعة كلها وُضع حدٌّ للنوم وصار بداية لشغل النهار... و بإضافة ساعة هذه الصلاة**

(١) كانت باكر تقال مع صلاة نصف الليل . هذا ما وجدناه ثابتاً في بعض الأجبيات المنسوخة بدير السريان ، لأنها كانت معروفة سابقاً بصلاة السحر . ولم تعرف في مصر بصلاة باكر إلا بعد كاسيان .

(٢) يقصد كاسيان أن تحديد الثلاثة مزامير لكل صلاة أساسه إعتراف ضمني وشكر للثالوث الأقدس . والقديس كبريانوس يذكر في شرحه لصلاة « أبانا الذي في السموات ... » أن صلوات الساعات الثالثة والسادسة والتاسعة تُراعى كثلاث صلوات ترمز لسر الثالوث .

صار عدد الإجتماعات الروحية سبع مرات (٣) **كل يوم (بما فيها الليل) .**

وأخيراً وبهذا الشكل نفسه ابتدأ يسري هذا النظام المفيد من الشرق إلى هذه النواحي (أي فرنسا) .

ولكن في الشرق نجد الأديرة القديمة الثابتة التي لا تسمح بأي نكوص في قوانينها القديمة المسلّمة من الآباء لم يدخل إليها هذا الترتيب الجديد قط (٤)

فصل ٥ :

ولكن في نواحينا هذه (فرنسا) **لأنهم لا يعرفون السبب الذي من أجله تقررت** هذه الخدمة — خدمة باكر — **فإنهم يعودون بعدها إلى فراشهم ليستأنفوا نومهم** بعد إنتهاء هذه الصلاة . وهذا بالرغم من قيام هذه الصلاة بتدبير الآباء لمنع هذه العلة نجدهم يقعون فيها .

لهذا نجدهم يسرعون في تأدية صلاة باكر ليجدوا فرصة ليعودوا إلى فراشهم في عدم مبالاة وكسل ، الأمر المحظور قطعاً و بكل تأكيد خوفاً من أن تطغى علينا قوة العدو فتثير فينا الشهوات وتدنس طهارتنا التي اكتسبناها بالمسكنة والإعتراف والصلوات طول الليل .

(٣) يلاحَظ أن المحاولات لجعل عدد الصلوات حسب أقوال المزامير لم تهدأ منذ البدء . وهنا تظهر المحاولة قبل الأخيرة التي جعلت الصلوات سبعة على مدى الليل والنهار والتي تلتها ، محاولة أخرى لجعل صلوت النهار سبعة مستقلة عن صلوات الليل . وبهذا الترتيب الجديد الذي بدأ في فلسطين أُدمجت صلاة السحر مع صلاة نصف الليل لتكون هناك فرصة أخذ راحة للجسد قبل بدء النهار. وخصوصاً في الليالي التي يبدأ فيها السهر من أول الليل لينتهي قرب الفجر ، وأُدخلت صلاة باكر كصلاة قائمة بفردها منفصلة عن تسبحة الليل يسبقها راحة للجسد إن كانت هناك ضرورة لذلك . ولكن ظلت صلاة السحر *Laudes,* بالرغم من ذلك تحتفظ بصفتها أنها من صلوات النهار وذلك من مدلول إسمها : الصباح الباكر.

(٤) أي ظلت صلاة باكر ملحقة بتسبحة نصف الليل والسحر.

بل ربما أيضاً الخيالات وحدها التي يسوقها العدو ــ أثناء النوم في هذه الساعة ــ كفيلة أن تنجس أفكارنا .

بل حتى ولو كان النوم مريحاً وطاهراً فإنه حتما يتعارض مع حرارة الروح ويجعلنا خولين وكسالى طول النهار لأن برودة النوم تبلد الذهن .

من أجل هذا نجد المصريين الذين اعتادوا أن يكون قيامهم في ميعاد محدد ــ قبل صياح الديك ــ لإقامة قانون الخدمة الليلية يستمرون بعد الإنتهاء منها في سهرهم بالتسبيح حتى طلوع نور النهار (٥) .

فيشرق عليهم الصباح وهم في حرارة الروح فتحفظهم هذه الحرارة نشطاء بالروح كل النهار و يكونون في حالة إستعداد لمواجهة حرب الشيطان لأنهم يكونون متشددين بسهر الليل بهذيذ الروح .

فصل ٦ :

ولكن ما يجب أن نعلمه هو أنه لم يحدث أي تغيير في الترتيب القديم للمزامير عندما أضاف الشيوخ خدمة صلاة باكر، فإن التسبحة التي يتلونها في صلاة السحر هناك التي إعتادوا أن ينهوها بعد صياح الديك وقبل الفجر ظلوا يسبحونها حسب ترتيبها كما هي ، وهي مزمور١٤٨ ، ١٤٩ ثم ١٥٠ . ولكن خصص لخدمة الصلاة الجديدة أي صلاة باكر الترنيم بهذه الثلاثة مزامير(٦) الخمسون (٥١) « إرحمني » والمزمور٦٢ (٦٣) « يا الله إليك أبكر» والمزمور٨٩

(٥) يقصد أن التسبيح الليلي في مصر جُعل مساوياً للمدة ما بين صياح الديك الأول حتى مطلع النهار في الأيام العادية ، أما في أيام الأعياد والسبوت فجُعل التسبيح مساوياً لطول الليل ، أي من بعد الغروب حتى مطلع الفجر.

(٦) ليست هذه المزامير الثلاثة جديدة أو مضافة لأنها كانت معروفة ومخصصة لبدء النهار.

(٩٠) « يارب ملجأ كنت لنا » وحتى هذا اليوم نجد في إيطاليا كلها حينما تنتهي تسبحة صلاة السحر(٧) نجدهم يسبحون بالمزمور الخمسين في كافة الكنائس ، وهذا أعتقد أنه مأخوذ من الترتيب الجديد الشرقي ، بدون شك ، (أي بإعتبار أن التسبيح بالمزمور الخمسين بعد تسابيح سهر الليل وتسابيح السحر هو بحد ذاته إعتراف ضمني بالدخول في صلاة جديدة ، هي صلاة باكر، المأخوذة من نظام الشرق)]

و يلاحظ من سرد كاسيان لكيفية دخول صلاة باكر كخدمة نهارية منفصلة عن تسبحة وصلاة السحر، الأمور الآتية :

١ ــ أن صلاة السحر إنضمت لصلاة الليل وفقدت كيانها كخدمة نهارية مستقلة .

٢ ــ أن صلاة السحر كانت سابقاً هي نفسها بمثابة صلاة باكر، أو صلاة أول النهار، فكانت تُقام بعد نهاية خدمة تسبيح الليل بوقت قصير جداً ، على أن تستمر حتى بدء طلوع النهار.

٣ ــ أن صلاة السحر كانت ولا زالت تسبّح بثلاثة مزامير فقط وكانت محددة بأرقامها لا تتغير١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ .

٤ ــ أن صلاة باكر تحددت منذ البدء بثلاثة مزامير فقط . وتحددت أرقامها أيضاً ٥١ ، ٦٣ ، ٩٠ .

٥ ــ إحتفاظ الأديرة القبطية مدة طويلة بطقسها القديم ، أي بإعتبار صلاة السحر هي نهاية الخدمة الليلية

(٧) يلاحظ أن كاسيان كثيراً ما يدعو صلاة الليل وصلاة السحر وصلاة باكر بكلمة واحدة هي **Mattins** باعتبار أنها تبتدىء بيقظة من النوم وتنتهي بالنهار ولكن ليس من الصعب على المختبرين لهذه الصلوات تمييز قصد كاسيان بسهولة .

وفي هذا يقول القديس باسيليوس في خطابه : *II. 6.*

[إن ما يُعتبر فجراً عند قوم يعتبر عند العمّالين بالروح نصف الليل]

أي انهم يصنّون نصف الليل باكراً

٦ ــ أن التسبحة اليومية لنصف الليل كانت في مصر تبتدىء قبل صياح الديك الأول ، وتنتهي بطلوع النهار (وهذا بخلاف تسبحة عشية الأحد التي تبتدىء من الغروب حتى تنتهي بالقداس) .

٧ ــ يلاحظ أن صلاة باكر بالمزامير كساعة من ساعات النهار دخلت الطقس تدريجياً ، و ببطء شديد ، سواء في الغرب أو في الشرق ، ولو أنه يوجد لها طقس خدمة في قوانين القديس بندكت (القانون ١٩) ، إلا أنها غير مذكورة بالمرة في قوانين سيزار يوس أسقف آرلز لرهبان ديره ، ولا في قوانين إيسيذور الذي من سيڤيل[٨] ؛ ولا ذكر لها في أنواع خدم الصلوات السبعة للرهبان التي ذكرها كاسيودورس[٩] . وأول من ذكرها بعد بندكت هو أوريليوس خليفة سيزار يوس في آرلز و بعد ذلك إمتدت قليلاً قليلاً في باقي الغرب .

أما في الكنيسة اليونانية فظلت صلاة باكر مرتبطة بتسبحة السحر Ορθρος ولم تُعرف منفصلة .

ولكن المعروف أن باكر لها صلاة ولها مزمور منذ البدء وهو مزمور (٦٣) ، وكان هو تسبحة الكنيسة الأولى في الشرق والغرب[١٠] . ولكن يظهر أن هذا المزمور انمدج في تسبحة السحر ، لأنها هي التي كانت محسوبة أصلاً صلاة باكر .

كذلك نجد أن القديس باسيليوس ، في خطابه رقم (٢٠٧) لكهنة قيصرية ، يذكر أن في نهاية خدمة سهر الليل و بعد إنتهاء التسبحة :
[عند إنبشاق فجر النهار ترنم كل الجماعة معاً لله بصوت واحد وقلب واحد

(٨) إيسيذور أسقف سيڤيل أكبر مؤلف وجامع للمعارف المسيحية في الغرب . وتاريخ حياته مبدع ، و يعتبر آخر قديسي الغرب . وتوفي عام ٦٢٦ م .

(9) Early Christianity, p. 454.

(١٠) أنظر تعاليم الرسل *Apost. Constitut., II. LIX, VIII, XXXVII*

مزمور الإعتراف (المزمور الخمسون) ، وكل واحد يسكب فيه مشاعره وندامته] .

والمعروف أن زمن هذا الخطاب يعادل زمن ولادة كاسيان تقريباً ، أي أن طقس صلاة باكر كان قد أخذ ملامحه في الظهور قبل الزمن الذي عاش فيه كاسيان في ديره بفلسطين بمدة كبيرة ـ بل والمعروف أيضاً أن القديس باسيليوس هو نفسه أول من فصل صلاة باكر ، وحدد لها نظاماً وقانوناً للصلاة منفصلاً عن صلاة السهر والتسابيح الليلية .

١٠ ــ كاسيان يصف نظام الإجتماع في الصلاة ووقار التسبيح في الطقس القبطي

الكتاب الثاني : فصل ٧ ــ

[وهذه الصلوات التي تكلمنا عنها ــ كما تجري في مصر ــ تبتدىء وتنتهي بطريقة خاصة ، بحيث أنهم لما ينتهون من المزمور[١] لا يتسرعون بالسجود ، كما يحدث في بلادنا الآن (فرنسا) ، الذين حتى قبل أن ينتهي المزمور تماماً فإنهم ينطرحون للسجود والصلاة ، وتسرُّعهم هذا بقصد إنهاء خدمة الصلاة بأسرع ما يمكنهم . وهكذا بالرغم من أننا اخترنا أن نُزيد من حدود عدد المزامير التي وضعها الآباء السابقون وأضفنا مزامير أخرى ، فإننا دائماً قلقون لإنهاء الخدمة سريعاً من أجل راحة الجسد ، دون أن نلتفت إلى المنفعة والربح اللذين نتحصل عليها من الصلاة نفسها .

فبين المصريين لا يوجد مثل هذا ، لأنهم دائماً قبل أن يحنوا ركبهم يُمضون بعض دقائق في الصلاة ، وفي أثناء وقوفهم يقضون الوقت في صلاة مستمرة ؛ و بعد هذا يطرحون أنفسهم و يسجدون لأقل مدة ممكنة

(١) المزامير عند الأقباط كانت تُسلَّم للحفظ بطريقة صوتية كلحن أو ترتيل ، فلم تكن تُقرأ أبداً دمجاً أو سراً .

و يقومون في الحال بسرعة على قدر إستطاعتهم كمن يقدّم الوقار أمام الرحمة الإلهية فقط ، و ينتصبون مرة أخرى بأيدى مبسوطة ، كما كانوا أولاً حيث تظل أفكارهم ملتصقة بالصلوات .

لأنهم يقولون أن الذي يسجد و يستمر ساجداً لأي مدة ، فإنه يصير هدفاً لمهاجمة تشتت الفكر ، بل وربما للنوم . ومعروف بالتجربة أن الذي يسجد يود دائماً أن تطول سجدته ، لا من أجل الصلاة بقدر ما هولأجل الإستراحة على هذا الوضع . لذلك نراهم أنه بمجرد أن يقوم المسئول بوجهه عن الأرض ، فإن الكل ينتصب في الحال ، وكذلك لا يجرؤ أي واحد أن يحني ركبتيه قبل أن ينحني الرئيس أولاً بالسجود ولا يتمادى أحدٌ في سجوده بعد أن يقوم الرئيس . وإلا يُحسب الشخص أنه يقدّم صلاة خاصة أخرى منفصلة بدل أن يتبع المسئول حتى النهاية]

فصل ٨ ــ عن الصلوات التي يختم بها المزمور:

[أما عما نراه عندنا اليوم بخصوص الذين ينتظرون نهاية المزمور لكي ينطلقوا بأعلى صوتهم قائلين « المجد للآب والإبن والروح القدس » ، فهذا لم نره قط في أي مكان في الشرق . لأنهم هناك يظلون صامتين بهدوء بعد نهاية المزمور ، لأن الذي يتلو المزمور يقدم بعد تلاوته صلاة [٢] (قصيرة) . أما بخصوص تمجيد الثالوث بالذكصا فهي تكون في ختام التسبحة فقط [٣]]

(٢) هذه الصلوات القصيرة هي المعروفة الآن بالقطع ، وكان عددها كثيراً جداً ، بحسب عدد المزامير أو بحسب عدد الوقفات للصلاة ، في كتاب المزامير ــ ومعروف أن القديس مقاريوس كان يحفظ منها الكثير (أنظر بالليديوس)

(٣) وهذه لا يزال وضعها ثابتاً في مصر كما هو ، أي لا تقال إلا في نهاية خدمة صلاة الساعة بعد المزامير كلها و بعد صلوات القطع ، و يلاحظ أن عدد قطع الصلوات التي في نهاية المزمور كانت في البدء تساوي عدد المزامير المسبَّح بها .
وهذا واضح من القانون الذي أملاه الملاك على القديس باخوميوس ، ومن قصة القديس أنطونيوس مع بولا البسيط ، إذ ذُكر فيها أن عدد الصلوات تساوي عدد المزامير . و ياحبذا لو طبّقنا هذا النظام المقدس القديم فتُصلّى بعد كل مزمور ! !

فصل ١٠ ــ الصمت والإيجاز عند الأقباط :

[وحينما يجتمعون معاً لإقامة خدمة الصلوات التي يدعونها Synaxes فإنهم يراعون الصمت بدقة حتى أنه بالرغم من عددهم الكبير ، فإنه لا يتبين لك أن أحداً موجود قط إلا الواقف في الوسط ليسبّح ، و بالأخص أيضاً عند رفع الصلاة ، فلا أحدٌ يبصق ، ولا أحدٌ يتنحنح ، ولا أحد يكحّ ، ولا أحد يتثاءب أو يفتح فمه ، ولا أحد يئن أو يتنهد ، وهكذا لا يُقطع إنتباه الآخرين من الصلاة ، فلا يُسمع إلا **صوت الكاهن يباشر الصلاة بالتسبيح** . فإذا أصيب أحد في عقله واخذ يصلي بصوت مسموع أو أحدث صوتاً من الأصوات التي ذكرناها أو تغلّب عليه التثاؤب ، فإنهم يشهرونه كمستحق لملامة مضاعفة :
فأولاً : يُلام من جهة صلاته لأنه قدمها بإهمال ،
ثانياً : يُلام بسبب الصوت غير اللائق الذي أحدثه ، الذي تسبب في التشويش على الذين حوله وحرمانهم من الإنتباه في الصلاة .

لذلك فإن القاعدة المتبعة في تلاوة قطع الصلاة أن تنتهي في وقت قصير ، لئلا ــ إذا أطلنا فيها ــ يتخللها التشويش من بُصاق ونحنحة وخلافه ...

فبينما الصلاة في أوج حرارتها تقف فجأة ، وكأنما بذلك تُنتزع إنتزاعاً من فك الشيطان الذي يتربّص لنا بالأكثر وقت الصلاة ، لكي يخطف أفكارنا و يطيش بها بعيداً ، ويجعل بذلك البرودة تسود الصلاة بعد أن تكون قد بدأت حارة .
لذلك رأى الآباء أن تكون الصلاة قصيرة ولكن تقدّم بتكرار على الدوام ، حتى نستطيع أن نلتصق بالله باستمرار وفي نفس الوقت نتحاشى سهام العدو [٤]]

(٤) يقول القديس أغسطينوس في الرسالة ١٣٠ وفي *Book V, C. XXXII Eccl. Polity.* عن هذه الصلوات : [يُقال عن الأخوة الأقباط أنهم يحفظون صلوات كثيرة ، ولكن كل صلاة منها قصيرة كأنها سهام تُطلق فجأة و بسرعة ، حتى لا تتشتت أو تنطفيء حرارة الصلاة و يقظة العقل ، التي تُعتبر أثمن ما في الصلاة ، وهذا أفضل من أن تكون الصلوات قليلة وطويلة . هذه الصلوات حينما تتلوها العقول النقية بوضعها المختصر هذا ، فإنها تعبّر عن كيفية إنطلاق عواطفنا الحارة كأجنحة نشيطة وسريعة تصل إلى السماء قبل أن يكمل نطقها اللسان !]

فصل ٩ — طريقة تلاوة المزامير (بالترتيل) عند الأقباط :

[لذلك لا يهتمون أن يخدموا الصلاة بتلاوة المزامير بلحنها كلها مرة واحدة بدون توقف ، ولكنهم يقسمون مزامير الصلاة إلى قسمين أو ثلاثة — حسب عدد الإستيخونات (الأعداد أو الآيات أو أبيات الشعر) ، ثم يتلونها كل قسم بيتاً بيتاً ، و بين كل قسم وآخر (أي كاتسما) صلاة(٥) .

وهم لا يهتمون بعدد الإستيخونات ولكن يهتمون بانتباه الذهن والفهم حسب الآية « أصلّي بروحي وأصلّي بذهني أيضاً » (١كو١٤: ١٥) ، معتبرين أنه من الأفضل أن يصلّي الإنسان عشرة أبيات بتسبيح مفهوم وفكر حاضر ، من أن يتلو المزمور كله بفكر طائش ، وهذا يكون غالباً من تعجُّل المرتل حينما يلتفت إلى الأعداد والمزامير المتبقية ولا يحسب حساب المستمعين ليوضِّح لهم الألفاظ والمعاني ، بل يحسب حساب السرعة وإنهاء الخدمة .

كذلك حينما يكون الراهب المرتل من المبتدئين الذين إما عن حرارة روحية أو عدم دراية وتسليم صحيح يتمادى في التسبيح أكثر من المعتاد ، فإن المتقدّم في الصلاة يصفّق له بيديه وهو جالس لينبّه الجماعة كلها للوقوف للصلاة .

وهكذا يهتمون حتى لا يطغى عليهم الملل أثناء ترتيل المزامير ، بسبب التطويل في الترنيم ...

وكذلك يدققون جداً في الجواب بالألليلويا ، فلا تُقال إلا في المزامير المرسومة بالألليلويا في العنوان فقط(٦) .

(٥) هذا واضح من تقسيم الأقباط للمزامير ، حتى أنه في المزمور ١١٨ نجد في القطعة ١٧ بعد تلاوة ثلاث آيات منها يتوقف التسبيح لتقدّم الصلاة والذوكصا ثم تكمل بقية الآيات .

والمرجح لدينا جداً أن تقسيم الأقباط للمزامير وجعل مواقف فيها لتُقال الذوكصا أو الصلاة ، هو مثيل تماماً للوضع العبري القديم في إستخدامهم لكلمة « سلاه » ، التي ترد في أي مكان من المزمور حيث يُعتقد أنها وقفة للصلاة أو لتقديم الذبيحة .

(٦) وهي المزامير: ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١٣٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠

وفي الصلاة بالإثني عشر مزموراً يقسمونها بحيث إذا كان المرنمون إثنين ، فكل واحد يرنّم ستة مزامير ، أما إذا كانوا ثلاثة فكل واحد يرنّم أربعة مزامير فإذا كانوا أربعة فكل واحد يرنّم ثلاثة مزامير ، ولكن بأقل من ذلك لا يسمحون بالتسبيح في وسط الجماعة .

و بذلك فمهما كان عدد الأخوة المجتمعين كبيراً فلا يُسمح لأكثر من أربعة أخوة ليخدموا التسبيح (٧)] .

فصل ١٢ — كاسيان يشرح كيف يجلس الجميع أثناء التسبيح بالمزامير ، وكيف يواصل الرهبان السهر داخل قلاليهم بحرارة وغيرة حتى يظهر نور النهار:

[قانون التسبيح بالإثني عشر مزموراً — **في الغروب ، وسهر الليل** — استطاع الرهبان في مصر أن يجعلوه مريحاً . لأنهم بعد أن يؤدوا خدمة الصلاة حسب عادتهم ، يجلسون كلهم ماعدا الشخص الذي عليه التسبيح إذ يقف في الوسط و يتلوا المزامير ، وهم يجلسون على مقاعد منخفضة جداً (شِلّتْ) و يتابعون التسبيح بيقظة قلبية شديدة ، وسبب هذه العادة — أي الجلوس أثناء التسبيح — هو الإرهاق من الصوم وشغل اليد طول النهار والليل . لذلك فإذا لم يوفّر لهم مثل هذه الراحة أثناء التسبيح ، فإنهم لا يقوون على احتمال البقاء وقوفاً أثناء التسبيح بهذا العدد الكبير (الإثني عشر مزموراً) لأن المعروف عنهم أنهم لا يدعون أي وقت يمر سدى بدون أداء عمل ، وهم يجاهدون بكل اشتياق ونشاط ليعملوا بأيديهم ما يمكن أن يُعمل في ضوء النهار ، أما في عتمة الليل فبمعقول شغوفة يفحصون الأمور التي لا يمكن أن يحجزهم عنها الظلام ، فيكتسبون أثناء الليل نظرات عميقة في المواضيع التي تختص بالتأملات الروحية بقلوب صافية التي تكسبهم قدرة على تكريس حياتهم للجهاد والعمل .

(٧) هذه الطريقة في التسبيح تسمّى طريقة *Tractus* (أي القيادة) وفيها يكون المسبّح صوت واحد فقط بينما يكون باقي الجمع منصتاً

لذلك فإنهم يعتبرون أن هذا القانون قد ترتَّب من الله بهذه الصورة المعتدلة ، لتبق فرصة راحة للذين لهم حرارة في إيمانهم فلا يجرفهم تيار الإجهاد أو يصيبهم الإعياء في أجسادهم الضعيفة بسبب طول الخدمة .

وحينما تنتهي خدمة الصلوات القانونية يعود كل واحد إلى قلايته حيث يعاود باشتياق أكثر نفس الخدمات ، يقدمها كذبيحة خاصة سرية(٨) ولم نسمع أن أحداً منهم أعطى لنفسه راحة أو نوماً إلى أن يشرق نور النهار فيتصل عمل النهار بعمل الليل وتأملاته .

بهذا يضيف الرهبان في مصر لقانون السهر الليلي سهرهم الخاص ويقظتهم ويخضعون لهذا الترتيب بكل اعتناء حتى لا يفقدوا ما اكتسبوه من الصلاة والتسابيح ولكي يتابعوا النهار بنفس الطهارة واليقظة .

١١ ـــ كاسيان يصف تداخل خدمة التسبيح في خدمة الإفخارستيا :

الكتاب الثالث :

[ويلزم أن نعلم أنه في يوم الأحد فقط يقتصر على خدمة واحدة تقام (الساعة الثالثة من النهار) قبل الغذاء ، التي فيها يستخدمون خدمة ذات صبغة أكثر مهابة وقداسة تستغرق وقتاً أطول بخلاف وقت تقديم الذبيحة الإلهية ، حيث يستخدمون مزامير وصلوات وقراءات كثيرة ، ولهذا يعتبرون أن صلاة الثالثة والسادسة داخلة ضمن هذه الخدمة . ولا يُحسب هذا تقليلاً من العبادة ، لأن القراءات المضافة تغطي كل الوقت ، بل ويُسمح للإخوة بالتغاضي عن بقية خدمة الأوقات بسبب كرامة قيامة

(٨) لقد أخذ النظام الرهباني في الغرب من مصر هذا الترتيب الفردي ، وجعله قانوناً إلزامياً . فنجد في القانون الثلاثين من « مجمع آجد » هذا الترتيب نفسه [بعد الإنتهاء من خدمات باكر والمساء القانونية وبعد التسبيح والإنصراف *Missa* فلتتلى فصول المزامير الصغيرة] .

الرب (١) ، وهذا مما يخفف عن بقية الأسبوع ، وكذلك فإن هذا الإختلاف المتداخل (في الروتين اليومي) يجعل يوم الأحد منظوراً إليه نظرة تقديس ، كعيد ، وبتوقّعه يصير الصوم خلال الأسبوع كله غير محسوس]

فصل ١٢ ـــ كاسيان يصف مزمور الأكل ويشرح إستثناءه :

[وفي يومي السبت والأحد والأيام المقدسة التي فيها يقدّم للإخوة وجبة عشاء بعد وجبة الغذاء فإن المزمور لا يُقال وقت العشاء ، ولا عند إجتماعهم للأكل ، ولا عند الإنصراف منه ـــ كما هو معتاد وقت الغذاء في الأيام الأخرى المعتادة ـــ ولكنهم يصنعون صلاة عادية ويتقدمون للأكل ، وكذلك يصنعون بعد الأكل ، لأن هذه الوجبة تعتبر (إستثنائية) بين الرهبان ، وليس الجميع مكلَّف أن يتناولها ولكنها للغرباء الذين يحضرون لرؤية الإخوة وللضعفاء والمحتاجين]

إنتهى كتاب كاسيان

١٢ ـــ القديس باسيليوس يصف سهر الليل
وطريقة التسبيح كما إستلمها من مصر

الخطاب رقم ٢٠٧ إلى كهنة قيصرية :

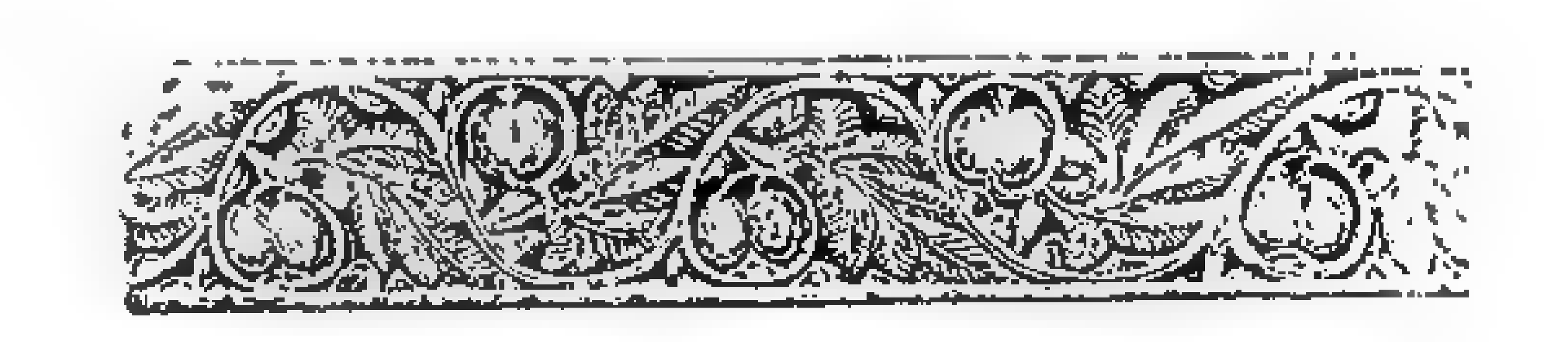
(بعدما يعرض القديس باسيليوس بعض الأمور الحادثة بينه وبين كهنة قيصرية) يقول :

[إني أسمع أن فضيلة من هذا النوع موجودة الآن في مصر وربما أيضاً في

(١) القديس باسيليوس يعتبر أن يوم الأحد بمثابة قيامة حقيقية فهو يوم لا غروب له ، ويرى أن الصلاة أثناءه يلزم أن تكون بدون جلوس وبدون سجود قط ، لأنه يوم قيامة حقيقية ، معتبراً أن كلمة قيامة αναστασις تعني وقوفاً إلى فوق ، On Spirit xxvii ويلزم أن الكنيسة تنبه على ذلك بشدة حتى يتذكر كل إنسان القيامة الآتية .

فلسطين ، يوجد أناس حديثهم كله في الإنجيل . وقد أُعلمتُ أنه فيا بين النهرين أيضاً يوجد رجال أتقياء كاملين ، ونحن بالنسبة لهذا الكمال نُحسب أطفالاً ... **والعادة التي حصلنا عليها الآن موافقة لما يحدث في كافة كنائس الله . فالشعب عندنا** (1) يذهب إلى بيت الصلاة في الليل ، وفي إنحصار وحزن ودموع متواصلة يعترفون أمام الله ، وأخيراً يقومون من الصلاة و يبدأون بتسبيح المزامير، وذلك بأن **ينقسموا أولاً إلى فريقين ليردِّدوا التسابيح مقابل بعضها** . وهكذا يثبتون من تعاليم الكتاب ، وفي نفس الوقت يقتنون أخلاقاً حريصة متمسكة وقلوباً غير طائشة . **وبعد ذلك يسلمون مطلع اللحن إلى واحد وبقية الجماعة تردّ ، وهكذا يقضون بقية الليل في تسابيح متعددة يتخللها صلاة من حين لآخر. وحينما يشرق الفجر ترفع الجماعة كلها ، بصوت واحد وقلب واحد ، مزمور الإعتراف (المزمور الخمسين) لله ، وكل واحد يعبّر عن توبته بشعوره الخاص .**

فإن كنتم من أجل هذا ترفضونني فأنتم إنما ترفضون **المصريين والطيبيين** بل والليبيين والفلسطينيين والعرب وأهل فينيقيا (لبنان) وسوريا وسكان الفرات ، أو بعبارة أخرى أنتم ترفضون كل من صار عندهم سهر الليل والصلوات وتسابيح المزامير كرامة ومجداً .]



(1) يلاحظ أن كل ما جاء في وصف كاسيان كان ينطبق بصورة مباشرة على ما كان يجري في كنائس مصر، ليس بين الرهبان فحسب ، بل وفي كنائس كبيرة في المدن وخاصة في صعيد مصر.

النظام الكنسي في التسبيح والصلاة بين الماضي والحاضر

أولاً : نظرة فاحصة متضعة نحو الماضي :

تلاحظ من أقوال كاسيان ، أولاً وقبل كل شيء ، أن النظام الذي رآه في مصر عام ٣٩٠م كان نظاماً كنسياً مستقراً في كل أنحاء مصر من الأسكندرية حتى أقاصي الصعيد .

[شاهدنا نظاماً موضوعاً للصلوات يُراعَى في إجتماعاتهم المسائية وفي سهراتهم الليلية .]

وذلك في الوقت الذي كان فيه كل الشرق على وجه العموم ، بما فيه فلسطين أيضاً ، لا يوجد فيه أي نظام موحّد بل على حد قوله :

[صار عدد الأنظمة والطرق التي رأيناها من الكثرة بعدد الأديرة والقلالي التي زرناها]

هذا أيضاً وفي نفس الوقت كان الغرب عامة و بالأخص في فرنسا وإيطاليا (حتى بداية القرن الرابع) يعوزه نظام كنسي ثابت لترتيب خدمة سواعي الصلوات والتسبيح المشترك بالمزامير:

[لذلك رأيت أنه من الأفضل أن أتبع أقدم نظام للآباء الذي لا يزال معمولاً لدى خدام الله في **كل مصر** حتى **يكون ديركم الجديد (في فرنسا) الذي لا يزال بعد في مرونة الطفولة في المسيح متعلماً على أقدم الأنظمة التي للآباء الأوائل .**]

إذن فليدرك الأقباط أن تقليدهم الكنسي هو الأصل ، الذي أخذت عنه كافة كنائس الشرق والغرب . فمن حيث نظام الصلوات وترتيبها والسواعي ، فالكنيسة القبطية معلمة المسكونة كلها ، وحينما كان نظامها وترتيبها مستقراً كانت الكنائس

كلها في الشرق والغرب تحبو في دور الطفولة حسب تعبير القديس باسيليوس وكاسيان، ولم تستيقظ كنائس العالم إلا بعد ذلك بثلاثة قرون !!...

فالتسبيح وطريقة الخدمة سواء بالأنتيفونا أو المردات أو بطريقة التراكتوس، وأعداد المزامير التي تُقال، وخدمة سهر الليل، كل هذه الترتيبات الكنسية إستقرت في مصر منذ القرن الأول. ومن مصر وعن طريق الرهبان الأجانب الذين جاءوا وتتلمذوا على أيدي الآباء بعد ذلك بنحو ثلاثة قرون، إنتشر هذا النظام والترتيب الكنسي: في فلسطين على يديّ الراهب القديس **هيلاريون**، وفي ما بين النهرين على يديّ الراهب **أوچين**، وفي كبادوكية وآسيا الصغرى على يديّ الراهب القديس **باسيليوس**، وفي فرنسا وإيطاليا على يديّ **أثناسيوس الرسولي** أولاً أثناء منفاه الثاني هناك (٣٤٠—٣٤٦)، ثم على يديّ **كاسيان**.

هؤلاء جميعاً جاءوا وزاروا مصر، ونقلوا عنها نظامها وترتيبها المحكم في العبادة والنسك عموماً، وفي الصلاة وطرقها وفي التسبيح خصوصاً. وذلك بالإضافة إلى مئات وألوف الرهبان الذين جاءوا من كافة أنحاء الأرض، وعاشوا في مصر، وتنسكوا فيها، من اليونان وروما وآسيا الصغرى وأسبانيا وأيرلندة [1] وأرمينيا والحبشة [2] وليبيا وشمال أفريقيا وسوريا وفلسطين وما بين النهرين، وجميعهم كتبوا بأيديهم، وأقرّوا، أنهم رأوا في مصر العبادة الصحيحة والنسك والتسبيح الحقيقي وافتخروا أنهم نقلوا إلى بلادهم ما رأوه ومارسوه على أيدي شيوخ مصر، بل واعتبروا أن نظام مصر حُجّة ثابتة يؤخذ بها كقانون و يتضح هذا من المادة ١٨ من مجمع تور الثاني ٥٦٧ الذي سبق أن أشرنا إليه بصفحة (١٣٩، ١٤٠)

هذا بالإضافة إلى أن الكتابات الرهبانية والقوانين النسكية والكنسية نُقلت بسرعة

(١) توجد مخطوطة في مكتبة باريس الأهلية هذه المخطوطة عبارة عن دليل كان يستعمله الرهبان الأيرلنديون عند سفرهم لمصر. ولا يزال في أيرلندة قبور سبعة رهبان مصريين. (دليل المتحف القبطي جزء ٢ ص ١٥).

(٢) لا تزال توجد في صحراء الإسقيط حتى الآن آثار أديرة الحبش والأرمن، ودير الروم لا يزال قائماً (البرموس)، ودير السريان كذلك.

إلى كافة أنحاء العالم، وتُرجمت إلى اللاتينية أيضاً بسرعة، منذ بداية القرن الخامس عام ٤٠٤م، أما كتابات بالليديوس وروفينوس فقُرئت في العالم قبل نهاية القرن الرابع، وسيرة القديس أنطونيوس بقلم البابا أثناسيوس إنتشرت في كافة أنحاء العالم المسيحي في منتصف القرن الرابع ٣٤٠م، وقُرئت في إيطاليا وكانت محور تغيير حياة أغسطينوس. كما ترجم چيروم سير حياة الآباء الأقباط وقوانين باخوميوس إلى اللاتينية وانتشرت في كافة أنحاء إيطاليا عام ٤٠٤م.

أما كتابات كاسيان الدقيقة فظلت بعد حياته المعلّم الأول لكل راهب، والنظام الفريد المحكم لكل دير، والإلهام الذي لا ينضب لكل حركة نسكية ولكل نهضة روحية حتى نهاية العصور الوسطى.

القديسان باسيليوس وكاسيان تقبّلا اللمسات النسكية والكنسية الأولى في مصر:

والذي نود أن نضع تحته خطاً عريضاً أكثر من هذه الشواهد الناطقة جميعها هو القديس باسيليوس والقديس كاسيان، باعتبار أن الأول أي باسيليوس هو صاحب النظام الديري والترتيب الكنسي في الطقس البيزنطي بصفة عامة، وجبل آثوس بأمجاده العريقة بصفة خاصة، و باعتبار أن الثاني أي كاسيان هو الذي نقل النظام الديري والنسكي بأنظمته الكنسية إلى الطقس اللاتيني.

أما القديس باسيليوس فمعروف بكل تأكيد أنه عاش في مصر قبل أن يبدأ حياته النسكية ونشاطه الكنسي، وقد تتلمذ في صعيد مصر على يد القديس باخوم، وهو بنفسه يشير إلى ذلك في خطابه رقم ٢٢٣ الذي يبتدئه بقوله: [يوجد وقت للسكوت ووقت للكلام]، حيث يذكر:

[لقد أمضيت زماناً كثيراً في الباطل، وأضعت شبابي كله تقريباً في جهاد العلم الباطل، لتحصيل الحكمة المحسوبة جهالة عند الله. ولكن حدث مرة، كإنسان يستيقظ من النوم العميق أني رفعت عيني إلى نور الحق العجيب الذي في الإنجيل فأدركت عدم نفع «حكمة عظماء هذا الدهر الذين يُبْطَلون»،

فبكيت على حياتي البائسة بدموع غزيرة وصليت حتى يهديني الله إلى معرفة المبادىء الحقيقية للدين ، ... ثم صليت حتى أجد واحداً من الإخوة يكون قد إختار هذا الطريق من الحياة ــ (حياة الكمال في بيع كل شيء ومشاركة الفقراء وترك الإهتمام بأمور هذه الحياة وعدم الحنين إلى الأمور التي على الأرض) ــ حتى بواسطته أستطيع أن أختصر طريق الحياة وهمومها ، وما أكثر ما وجدت من هذه الأمثلة في الأسكندرية وفي بقية مصر... لقد أُعجبت بحياتهم النسكية وإحتمالهم الجهاد واندهشت على مثابرتهم ومداومتهم في الصلاة وغلبتهم على النوم ، وعلى عدم خضوعهم لأي إلحاح طبيعي رافعين غرض أرواحهم عالياً حرًّا في جوع ، في عطش ، في برد ، في عُرْي ، دون أن ينهزموا للجسد ، بل ولا حتى أن يلتفتوا إليه ، وكأنما يعيشون في جسد ليس لهم . وفي كل عمل أظهروا أنهم غرباء عن هذه الحياة ، وأن ليس لأحد وطن ولا بيت حقيقي إلا في السماء ــ كل هذا حرَّك إعجابي ووضعت في نفسي أن أقتدي بهم] (٣)

والقديس باسيليوس ، سنة ٣٧٥م ، يعود مرة أخرى ويذكر الأنظمة المستقرة في مصر ويقارنها بالنظام في آسيا الصغرى ، يقول :

[إن هذه الفضيلة (فضيلة سهر الليل) سارية الآن في مصر ، وربما يوجد بعض أناس في فلسطين يتبعون الإنجيل في أحاديثهم ، وقد أُعلمت أيضاً أنه فيما بين النهرين يوجد رجال أتقياء كاملون ، ونحن بالنسبة لهذا الكمال نُحسب أطفالاً ...] (٤)

وهذا القول يشبه تماماً تقرير كاسيان عن حالة التنظيم الكنسي في العبادة والسهر والتسبيح في فرنسا وإيطاليا في ذلك الزمان ٤٠٤م . إذ يقول كاسيان :

[لذلك رأيت أنه من الأفضل أن أتبع أقدم نظام للآباء الذي لا يزال معمولاً به

(3) St. Basil N.P.N.F. vol IV let. 223.

(4) St. Basil letters 207.

لدى خدام الله في **كل مصر**، حتى يكون **ديركم الجديد الذي لا يزال بعد في مرونة الطفولة** في المسيح متعلماً على أقدم الأنظمة التي للآباء الأوائل]

ومن هذين الشاهدين يتبين بالبرهان الساطع أقدمية مصر وتفوقها على كافة كنائس العالم شرقاً وغرباً ، في رسوخ النظام الكنسي وترتيب العبادة وأوقاتها وشكلها والسهر الليلي والتسبيح بالمزامير وطرائقه وكل ما يختص بالأنظمة النسكية داخلها وخارجها . ونحن إذ نسجل هذا ، لا نبتغي وجه التفاخر ، وإنما لكي ندرك مكاننا وسط كنائس العالم ونلفت نظر الكنائس التي في العالم لكي تدرك علاقتها الأصيلة بنا . هذا بالإضافة إلى جعل هذه العلاقة الوثيقة الطيبة فرصة للحوار ومجالاً للتقارب ، فمصر ما زال تراثها المكنون الذي أهمله التاريخ عمداً ، يعتبر كما كان أولاً :

* **The nerve centre of christianity**

كقول المؤرخ الأمريكي روبرت باين في كتابه « النار المقدسة » صفحة ١٧١ .

كنيسة مصر كنيسة شعبية :

كما أن الملاحظة الثانية التي نحب أن نوجه إليها الأنظار ، أن النظام الكنسي الذي إستقرت أصوله منذ أيام مرقس الإنجيلي ، لم يكن خصيصاً للرهبان ولا كان هو من وضع الرهبان ولا اقتصر على كنائس النُسَّاك في البرية ، بل بدأ تقليداً رسولياً للكنيسة كلها تحت رعاية مرقس الرسول نفسه الذي يذكره ثيئودوريت المؤرخ بلقب « **المتعلم** » ، والذي يقول عنه إنه ألزم المؤمنين بإتِّباع النظام الرسولي الأول في الشركة والنسك والعبادة .

ثم يذكر كاسيان أيضاً أن هذا النظام الكنسي الراسخ لم يقتصر على البراري والنسَّاك ، بل قال إنه [معمول به لدي خدام الله في **كل مصر**] .

والقديس باسيليوس أيضاً لما هاجمه الإكليروس في مدينة قيصرية الجديدة ، بسبب وضعه نظام السهر الليلي للشعب ، كان دفاعه عن نفسه أن هذا النظام معمول به في مصر .

وإذا رجعنا إلى قصة القبض على القديس أثناسيوس ، نرى فعلاً أن شعب

(*) أي « مركز الأعصاب للمسيحية »

الأسكندرية كان كله في الكنيسة ساهراً بالتسابيح ... مع بطريركه . (أنظر صفحة ١٤٤ــ١٤٥)

إذن فقول بعض العلماء أن النظام الكنسي في مصر من تسابيح أو صلوات للسواعي هو نظام رهباني ، يكون في الحقيقة تجنياً على الواقع وعلى التاريخ ...

فلا يزال العلمانيون الأقباط ــ كما كانوا منذ البداية مؤسسو الكنيسة وأصحابها ، رسوليين حارّين عابدين ، بروح نسكية فاقت في كثير من الأحيان أعلا قامة للرهبان ، فالقديس أنطونيوس نزل مرتين إلى العالم يبحث عن العلمانيين الذين فاقوه في العبادة ، وكذلك القديس مقاريوس أنزله الروح إلى الإسكندرية ليرى بعينيه المرأتين اللتين فاقتاه في حرارة التقوى .

ولنا في ذلك أيضاً من أقوال القديس يوحنا ذهبي الفم أقوى شهادة :

[وإذا أُوتيت أن تزور صحراء مصر فسوف ترى هذه الصحراء وقد صارت أفضل من فردوس ، حيث يوجد عشرة آلاف خورساً من الملائكة في هيئة بشر ، وجماهير من الشهداء (الأحياء) ، وجماعات من العذارى ، حيث انسحقت كل طغيانات الشيطان وأضاء ملكوت المسيح في بهائه .

فبلاد الحكماء أم الشعراء والسحرة وسيدة الإختراعات السحرية إحتقرت كل ما كان لها وصارت تفتخر فقط بجماعات الصيادين ، حاملة فوق رأسها ذلك العشار (متى) ، وذلك الخيّام (بولس) ، ومحتمية بالصليب . **وهذه الأمور المفلحة لا تجدها في المدن فقط بل وفي الصحاري أيضاً أكثر من المدن ، لأنه بالحقيقة في كل مكان هناك في مصر تجد حظيرة للمسيح ، وقطيعاً ملكياً ، وسلوكاً وفضائل وقوات من فوق .**

وهذه القوانين تجدها في كامل قوتها وفاعليتها ليس فقط بين الرجال بل وأيضاً بين النساء ، فالنساء هناك لسن أقل من الرجال . يمارسون هذا السعي نفسه نحو الحكمة . لأن الحرب التي يثيرها العدو هي نفسها واحدة

للنساء والرجال ... **إن السماء بنجومها ليست جليلة كبرية مصر بصوامع رهبانها المنبثّة فيها]**

(العظة الثامنة على إنجيل متى)

ومعروف أن يوحنا ذهبي الفم لما سلك طريق النسك ، إتّبع النظام الباخومي في حياته الخاصة .

مدرسة الإسكندرية اللاهوتية مدرسة شعبية :

ومدرسة الإسكندرية اللاهوتية التي وقفت درعاً حصيناً للمسيحية ليس لمصر فحسب بل وللعالم كله ، لم تكن مؤسسة رهبانية ولا إعتمدت على الرهبان في مدى تاريخها كله ، بل كانت تدرس وتنشر المعرفة المسيحية الشعبية ، وكان إسمها مدرسة الموعوظين لأن أساس عملها كان تهيئة الشعب للإيمان الصحيح ، وقد بدأت في حياة مارمرقس الإنجيلي وظلّت تؤدي رسالتها حتى نهاية القرن السادس .

إذن فالكنيسة القبطية كنيسة شعبية بالدرجة الأولى ، علماً وطقساً ونسكاً ، وما الحياة الرهبانية إلا إنبثاقة من نورها الإلهي تمثل أصالتها الأولى وتحافظ عليها ولا تزال ...

ولما بدأت الرهبنة القبطية تأخذ طابعها المميز ومنهجها الكامل على يد القديسين أنطونيوس وباخوميوس وآمون ومقاريوس وشنودة ، كانت الكنيسة قد قطعت ثلاثة قرون كاملة ، كانت في أثنائها ــ ومن أول يوم ــ كنيسة قوية في كل شيء عميقة في كل شيء إستطاعت أن تواجه أعنف موجات الإضطهاد المسلّح ، كما استطاعت أن تقتلع جذور الفلسفة الوثنية والغنوستية مع ما كانتا عليه من قوة وسطوة علمية وفلسفية ...

لقد إنبثقت الرهبنة من حضن كنيسة ناضجة ورثت عنها كل ما هو حق وكل ما هو جليل وكل ما هو صيته حسن ! ... ثم ردّت الرهبنة هذا الجميل للكنيسة مضاعفاً على مدى الأجيال وإلى الآن ! ...

ثانياً : نظرة عادلة متفائلة نحو الحاضر:

الكنيسة باقية أمينة على الوديعة تنتظر جيلاً يحبها ويخلص لها .

يخطىء من يقول أن الكنيسة القبطية الآن تغيَّرت عما كانت عليه في شيء من جهة الأصول الطقسية أو مناهج الليتورچية في الخدمة والعبادة والتسبيح والصلاة ، فكل التقليد الكنسي لا يزال حياً ، وإن كان بصورة غير واضحة بسبب هبوط مستوى المعرفة اللاهوتية الملهَمة ، وكل الممارسات الطقسية جارية ولكن بصورة باهتة ضعيفة غاية الضعف بسبب الإستهانة بخدمة الكهنوت والطقس ، وكل ما تحتاجه الكنيسة في الحاضر هو الإخلاص لرسالة العبادة ، والإيمان بالخدمة العامة داخل الكنيسة ، والتخصص لدراسة دقائق الخدمات ومعانيها ، وفهم الطقوس فهماً روحياً حاراً ، وتحويل الإنتباه في الإجتماعات إلى أهمية الصلاة والعبادة بالتسبيح المشترك كذبيحة قائمة بذاتها أكثر من الوعظ وأكثر من التفسير؛ ففي الوعظ والتفسير يستفيد الإنسان ما هو لذاته فقط ، أما العبادة بالتسبيح المشترك والصلاة فهي خدمة إلهية وذبيحة ، تستطيع بحد ذاتها أن تجدِّد وتقوِّي الجميع وتفتح الطريق أمام الروح للإتصال بالله . أما صلوات السواعي فأساسها كله هو التسبيح ، لذلك ينبغي جداً ترجمة المزامير مع التسابيح القانونية ترجمة شعرية موزونة كأصلها تصلح للتسبيح ، وحينئذ لن يرتفع صوت الشعب بعد ذلك بالمطالبة بتقليل عدد المزامير في كل صلاة ، بل على العكس سيجد الإنسان كل مسرَّته في الإنشاد بالمزامير في كل وقت لأنه سيسهل حفظها جداً وتصير على كل فم .

« طوبى للشعب الذي يعرف التسبيح
يارب بنور وجهك يسلكون
باسمك طول النهار يبتهجون
وببرك وعدلك يرتفعون »

(مز٨٨)

تتناول سلسلة دراسات في التقليد الكنسي شرح المضمون الروحي للتقليد الكنسي بكل فروعه . حتى يكون المؤمن على بينة من أصالة تقليد الكنيسة التي يمارسه وعيا فيه ، وذلك بأسلوب مبسط سهل وواضح .

وقد إبتدأت هذه السلسلة بصدور كتاب « التقليد ـ وأهميته في الإيمان المسيحي » ، حيث تناول معنى التقليد في الكنيسة ، وتاريخ نموه إلى أن وصل إلينا في صورته المتكاملة اليوم .

ثم صدر كتاب « الإفخارستيا والقداس » (الجزء الأول) ، ليقدم في إسهاب الدراسة اللاهوتية المنهجية لعقيدة سر الإفخارستيا المقدس .

ـ وها هو كتاب « التسبحة اليومية ومزامير السواعي » يشرح طبيعة ليتورجيا الصلاة والتسبيح في الكنيسة متتبعاً أصولها الأولى في الكتاب المقدس ثم في حياة الكنيسة منذ عصر الرسل . شارحاً أثرها في حياة المؤمنين ـ أفراداً ـ وفي حياة الكنيسة كجسد واحد حي .

ثم يتطرق الكاتب إلى ترتيب طقس صلوات السواعي (الأجبية) متتبعاً تدرج نموها واكتمال تحديدها كما هي بين أيدينا الآن .

صدر من هذه السلسلة : + التقليد وأهميته في الإيمان المسيحي + الإفخارستيا والقداس + الصليب المقدس + التسبحة اليومية ومزامير السواعي
+ ويصدر قريباً العذراء القديسة مريم « ثيئوتوكوس » .

الثمن ٦٠ قرشاً